



الميزان

نفسية القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء الخامس عشر



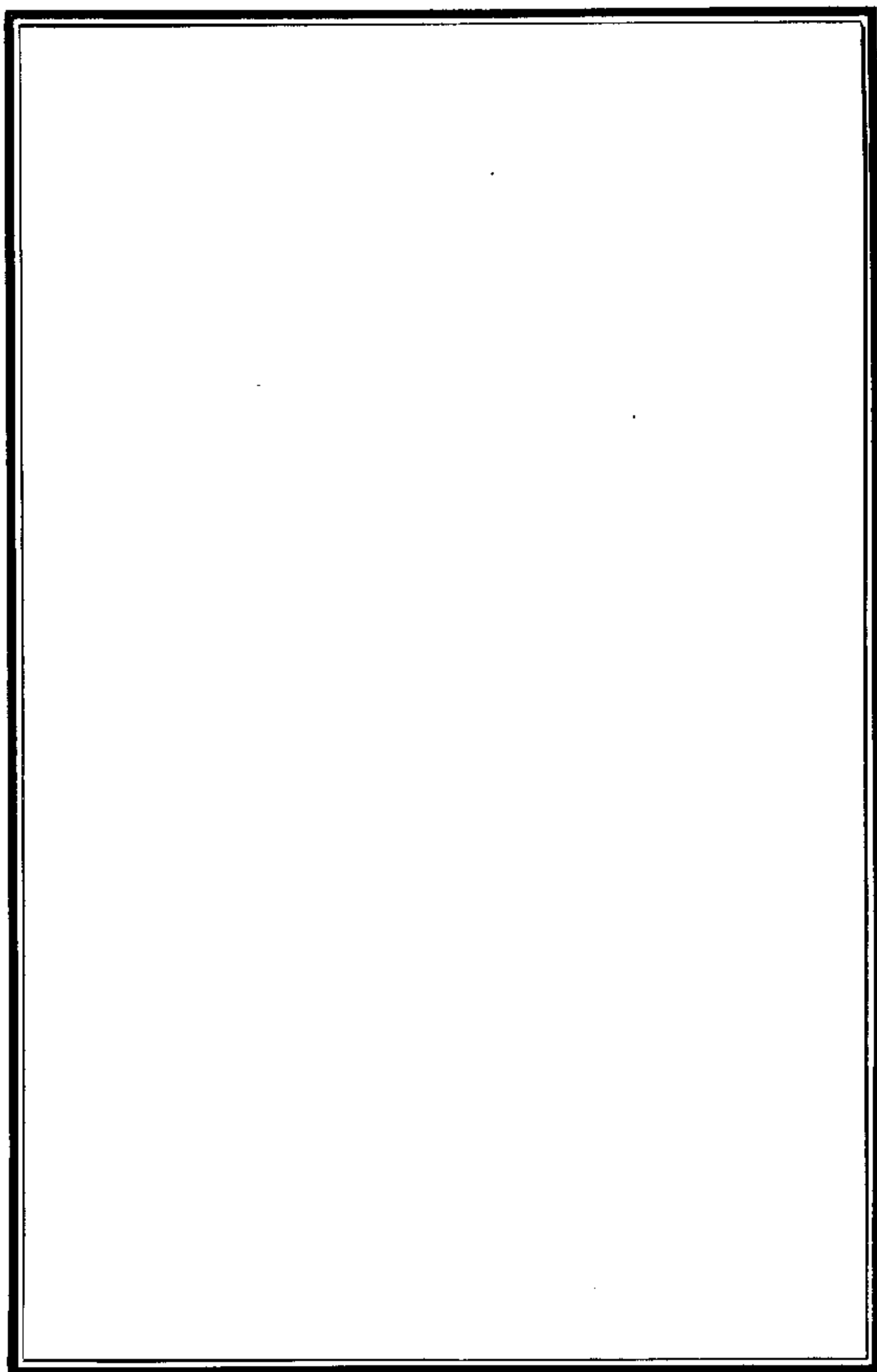
منشورات
مؤسسة الأعلى للطبوعات
بيروت - لبنان
ص. ب. ٧١٢٠



الميزان



المُتَّيِّزَاتُ
فِي
تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ
١٥



الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي فني ، فلسفي ،
أدبي ، تاريخي ، روائي ،
اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تأليف :

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء الخامس عشر

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بيروت - لبنان
ص ١ : ٧١٢٠

الطبعة الأولى المحققة
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناسر
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف والناسر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:

ببيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلي - ص.ب. ٧١٤٠٠
الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ - تليفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .



سورة المؤمنون



مكية ، وهي مائة وثمانين عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ آتَبَعْنِي وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ
عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) .

(بيان)

في السورة دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وتمييز المؤمنين من الكفار بذكر ما
لهؤلاء من جميل صفات العبودية وما لأولئك من رذائل الأخلاق وسفاسف الأعمال ،
وتعقيب ذلك بالتبشير والإنذار ، وقد تضمن الإنذار ذكر عذاب الآخرة وما غشي الأمم
المكذبين للدعوة الحققة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة آخذاً من زمن نوح إلى
زمن المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والسورة مكية ، وسياق آياتها يشهد بذلك .

قوله تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ قال الراغب : الفلح - بالفتح فالسكون - الشق ، وقيل : الحديد بالحديد يفلح أي يشق ، والفلاح الظفر وإدراك بغية وذلك ضربان : دنيوي وأخروي ، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز ، والأخروي أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل ، ولذلك قيل : لا عيش إلا عيش الآخرة . انتهى ملخصاً . فتسمية الظفر بالسعادة فلاحاً بعناية أن فيه شقاً للمانع وكشفاً عن وجه المطلوب .

والإيمان هو الإذعان والتصديق بشيء بالالتزام بلوازمه ، فالإيمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدايته ورسله واليوم الآخر وبما جاءت به رسله مع الاتباع في الجملة ، ولذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفع الإيمان بالعمل الصالح كقوله : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾^(١) ، وقوله : ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾^(٢) ، إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جداً .

وليس مجرد الاعتقاد بشيء إيماناً به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه وآثاره فإن الإيمان علم بالشيء مع السكون والاطمئنان إليه ولا ينفك السكون إلى الشيء من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفك من السكون والالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرة فإنهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتقاد وقد قال تعالى : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾^(٣) .

والإيمان وإن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لصارف من الصوارف النفسانية يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجملة .

قوله تعالى : ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه إليه والظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب إلى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله ﷺ - على ما روي - فيمن يعبد بلحيته في الصلاة : أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، وقوله تعالى : ﴿وخشعت الأصوات للرحمان﴾^(٤) .

(٣) النمل : ١٤ .

(١) النحل : ٩٧ .

(٤) طه : ١٠٨ .

(٢) الرعد : ٢٩ .

والخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعاني التي فسّر بها الخشوع في الآية ، كقول بعضهم : هو الخوف وسكون الجوارح ، وقول آخرين : غضّ البصر وخفض الجناح ، أو تنكيس الرأس ، أو عدم الالتفات يميناً وشمالاً ، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام ، أو التذلل إلى غير ذلك .

وهذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلزم كون وصف الإيمان حياً فعلاً يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليرتب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر والذلة إلى ساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والبهاء ولازمه أن يتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلة والهوان وينتزع قلبه عن كل ما يلهوه ويشغله عما يهّمه ويواجهه ، فلو كان إيمانه صادقاً جعل همّه حين التوجه إلى ربه همّاً واحداً وشغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره فماذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غني لا يقدر بقدره؟ والذليل إذا واجه عزة مطلقة لا يشوبها ذلة وهوان ؟ .

وهذا معنى قوله ﷺ في حديث الحارث بن النعمان المروي في الكافي وغيره : إن لكل حق حقيقة ولكل صواب نوراً . الحديث .

(كلام في معنى تأثير الإيمان)

الدين - كما تقدّم مراراً - السنّة الاجتماعية التي يسير بها الإنسان في حياته الدنيوية الاجتماعية ، والسنن الاجتماعية متعلقة بالعمل مبنياً على أساس الاعتقاد في حقيقة الكون والإنسان الذي هو جزء من أجزائه ، ومن هنا ما نرى أن السنن الاجتماعية تختلف باختلاف الاعتقادات فيما ذكر .

فمن ثبت للكون ربّاً يتدبّر أمره وسيعود إليه وللإنسان حياة باقية لا تبطل بموت ولا فناء يسير في الحياة سيرة يراعي في الأعمال الجارية فيها سعادة الحياة الباقية والتنعم في الدار الآخرة الخالدة .

ومن ثبت له إلهاً أو آلهة تدبّر الأمر بالرضا والسخط من غير معاد إليه يعيش عيشة نظمها على أساس التقرب من الآلهة وإرضائها للفوز بأمّعة الحياة والظفر بما يشتهي من نعم الدنيا .

ومن لا يهتم بأمر الربوبية ولا يرى للإنسان حياة خالدة كالماديّين ومن يحذو

حذوهم يبنّي سُنّة الحياة والقوانين الموضوعة الجارية في مجتمعه على أساس التمتع من الحياة الدنيا المحدودة بالموت .

فالدين سُنّة عملية مبنية على الاعتقاد في أمر الكون والإنسان بما أنه جزء من أجزائه ، وليس هذا الاعتقاد هو العلم النظري المتعلق بالكون والإنسان فإن العلم النظري لا يستتبع بنفسه عملاً وإن توقف عليه العمل بل هو العلم بوجوب الجري على ما يقتضيه هذا النظر وإن شئت فقل : الحكم بوجوب اتباع المعلوم النظري والالتزام به ، وهو العلم العملي كقولنا : يجب أن يعبد الإنسان الإله تعالى ويراعي في أعماله ما يسعد به في الدنيا والآخرة معاً .

ومعلوم أن الدعوة الدينية متعلقة بالدين الذي هو السُنّة العملية المبنية على الاعتقاد ، فالإيمان الذي يتعلق به الدعوة هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحق في الله سبحانه ورسله واليوم الآخر وما جاءت به رسله وهو علم عملي .

والعلوم العملية تشتد وتضعف حسب قوة الدواعي وضعفها فإننا لسنا نعمل عملاً قط إلا طمعاً في خير أو نفع أو خوفاً من شر أو ضرر ، وربما رأينا وجوب فعل لداع يدعو إليه ثم صرفنا عنه داع آخر أقوى منه وأثر ، كمن يرى وجوب أكل الغذاء لرفع ما به من جوع فيصرفه عن ذلك علمه بأنه مضر له مناف لصحته ، فبالحقيقة يقيد الداعي المانع بما معه من العلم إطلاق العلم الذي مع الداعي الممنوع كأنه يقول مثلاً : إن التغذي لرفع الجوع ليس يجب مطلقاً بل إنما يجب إذا لم يكن مضرّاً بالبدن مضاداً لصحته .

ومن هنا يظهر أن الإيمان بالله إنما يؤثر أثره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة النفسانية كالخشية والخشوع والإخلاص ونحوها إذا لم يغلبه الدواعي الباطلة والتسويات الشيطانية ، وبعبارة أخرى إذا لم يكن إيماناً مقيداً بحال دون حال كما قال تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾^(١) .

فالمؤمن إنما يكون مؤمناً على الإطلاق إذا جرت أعماله على حاق ما يقتضيه إيمانه من الخشوع في عبادته والإعراض عن اللغو ونحوه .

قوله تعالى : ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ اللغو من الفعل هو ما لا فائدة

فيه ويختلف باختلاف الأمور التي تعود عليها الفائدة فربُّ فعل هو لغو بالنسبة إلى أمر وهو بعينه مفيد مُجدٍ بالنسبة إلى أمر آخر .

فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة التي لا ينتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضاً إلى الآخرة كالأكل والشرب بداعي شهوة التغذي للذين يتفرع عليهما التقوي على طاعة الله وعبادته ، فإذا كان الفعل لا ينتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللغو وينظر أدق هو ما عدا الواجبات والمستحبات من الأفعال .

ولم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقاً فإن الإنسان في معرض العثرة ومزلة الخطيئة وقد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(١) .

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه والإعراض يقتضي أمراً بالفعل يدعو إلى الاشتغال به فيتركه الإنسان صارفاً وجهه عنه إلى غيره لعدم اعتداده به واعتناؤه بشأنه ، ولازمه ترفع النفس عن الأعمال الخسيسة واعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافي الشرف والكرامة وتعلقها بعظائم الأمور وجلائل المقاصد .

ومن حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن فيه تعلقاً بساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والمجد والبهاء والمتصف به لا يهتم إلا بحياة سعيدة أبدية خالدة فلا يشتغل إلا بما يستعظمه الحق ولا يستعظم ما يهتم به سفلة الناس وجهلتهم ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً .

ومن هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علو همّتهم وكرامة نفوسهم .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ذكر الزكاة مع الصلاة قرينة على كون المراد بها الإنفاق المالي دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزالة رذائل الأخلاق عنها ولعل المراد بالزكاة المعنى المصدري وهو تطهير المال بالإنفاق منه دون المقدار المخرج من المال فإن السورة مكية وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنما كان بالمدينة ثم صار لفظ الزكاة علماً بالغلبة للمقدار المعين المخرج من المال .

وبهذا يستصح تعلق ﴿للزكاة﴾ بقوله : ﴿فاعلمون﴾ والمعنى : الذين هم فاعلمون للإنفاق المالي ، وأما لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصح تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلاً متعلقاً بفاعل ، ولذا قدر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأدية فكان التقدير عنده والذين هم لتأدية الزكاة فاعلمون ، ولذا أيضاً فسر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيلة فراراً من تعلق ﴿للزكاة﴾ بقوله : ﴿فاعلمون﴾ .

وفي التعبير بقوله : ﴿للزكاة فاعلمون﴾ دون أن يقول : للزكاة مؤدون أو ما يؤدي معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل : إني شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال : إني فاعل .

ومن حق الإيمان بالله أن يدعو إلى هذا الإنفاق المالي فإن الإنسان لا ينال كمال سعادته إلا في مجتمع سعيد ينال فيه كل ذي حق حقه ولا سعادة لمجتمع إلا مع تقارب الطبقات في التمتع من مزايا الحياة وأمتعة العيش ، والإنفاق المالي على الفقراء والمساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغية .

قوله تعالى : ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلى آخر الآيات الثلاث ، الفروج جمع فرج وهو - على ما قيل - ما يسوء ذكره من الرجال والنساء ، وحفظ الفروج كناية عن الاجتناب عن المواقعة سواء كانت زناً أو لواطاً أو بإتيان البهائم وغير ذلك .

وقوله : ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ استثناء من حفظ الفروج ، والأزواج الحلائل من النساء ، وما ملكت أيمانهم الجواري المملوكة فإنهم غير ملومين في مسّ الأزواج الحلائل والجواري المملوكة .

وقوله : ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ تفريع على ما تقدم من الاستثناء والمستثنى منه أي إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقاً إلا عن طائفتين من النساء هما الأزواج وما ملكت أيمانهم ، فمن طلب وراء ذلك أي مسّ غير الطائفتين فأولئك هم المتجاوزون عن الحد الذي حدّه الله تعالى لهم .

وقد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع في ذيل قوله : ﴿ولا تقربوا

الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً^(١) في الجزء الثالث عشر من الكتاب .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ الأمانة مصدر في الأصل وربما أريد به ما ائتمن عليه من مال ونحوه ، وهو المراد في الآية ، ولعل جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس ، وربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهي أوتمن عليه الإنسان وما أوتمن عليه من أعضائه وجوارحه وقواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله وما ائتمنه عليه الناس من الأموال وغيرها ، ولا يخلو من بُعد بالنظر إلى ظاهر اللفظ وإن كان صحيحاً من جهة تحليل المعنى وتعميمه .

والعهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغة العهد شقيق النذر واليمين ، ويمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه إلى المؤمن فإن الله سبحانه سَمَّى إيمان المؤمن به عهداً وميثاقاً منه على ما توجه إليه من تكاليفه تعالى بقوله : ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ﴾^(٣) ، ولعل إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد .

والرعاية الحفظ ، وقد قيل : إن أصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه ثم استعمل في الحفظ مطلقاً . انتهى . ولعل العكس أقرب إلى الاعتبار .

وبالجملة الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان والعهد من أن ينقض ، ومن حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن في إيمانه معنى السكون والاستقرار والاطمئنان فإذا آمن أحد في أمانة أودعها عنده أو عهد عاهده وقطع على ذلك استقرار عليه ولم يتزلزل بخيانة أو نقض .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ جمع الصلاة وتعليق المحافظة عليه دليل على أن المراد المحافظة على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضة ويراقبونها دائماً ومن حق إيمانهم أن يدعوهم إلى ذلك .

ولذلك جمعت الصلاة ههنا وأفردت في قوله : ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ لأن

(١) الإسراء : ٣٢ .

(٢) البقرة : ١٠٠ .

(٣) الأحزاب : ١٥ .

الخشوع في جنس الصلاة على حد سواء فلا موجب لجمعها .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١) الفردوس أعلى الجنان ، وقد تقدم معناها وشيء من وصفها في ذيل قوله تعالى : ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾^(٢) .

وقوله : ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ الخ ، بيان لقوله : ﴿الْوَارِثُونَ﴾ ووراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم ، وقد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، وستوافيك إن شاء الله في بحث روائي .

(بحث روائي)

في تفسير القمي وقوله : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال : غَضَّكَ بصرك في صلاتك وإقبالك عليها .

أقول : وقد تقدم أنه من لوازم الخشوع فهو تعريف بلازم المعنى ، ونظيره ما رواه في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن علي عليه السلام : أن لا تلتفت في صلاتك .

وفي الكافي بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق .

أقول : وروى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي الدرداء عنه عليه السلام ما في معناه ولفظه : استعيذوا بالله من خشوع النفاق . قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع .

وفي المجمع في الآية روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه .

وفيه روي أن رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته فلما نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض .

(١) الكهف : ١٠٧ .

أقول : ورواهما في الدر المنثور عن جمع من أصحاب الكتب عنه عليه السلام .
وفي معنى الخشوع روايات أخر كثيرة .

وفي إرشاد المفيد في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام : كل قول ليس فيه لله ذكر
فهو لغو .

وفي المجمع في قوله : ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ روي عن أبي
عبد الله عليه السلام قال : أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض
عنه لله وفي رواية أخرى أنه الغناء والملاهي .

أقول : ما في روايتي المجمع من قبيل ذكر بعض المصاديق وما في رواية
الإرشاد من التعميم بالتحليل .

وفي الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال
أمير المؤمنين عليه السلام : تحلّ الفروج بثلاثة وجوه : نكاح بميراث ونكاح بلا ميراث
ونكاح بملك يمين .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن أبي سارة قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام
عنها يعني المتعة فقال لي : حلال فلا تتزوج إلا عفيفة إن الله عز وجل يقول :
﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك .

أقول : وفيه تعميم لمعنى حفظ الفروج بحيث يشمل ترك نكاح غير العفيفة .

والروايتان كما ترى تعدّان المتعة نكاحاً وازدواجاً والأمر على ذلك فيما لا
يحصى من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وعلى ذلك مبني فقههم .

والأمر على ذلك في عرف القرآن وفي عهد النبي عليه السلام وذلك أنه ليس وراء
ملك اليمين إلا نوعان : نكاح على الزوجية وزنا وقد حرم الله الزنا وأكد في تحريمه
في آيات كثيرة في السور المكية والمدنية كسورتي الفرقان والإسراء وهما مكيتان
وسورتي النور والممتحنة وهما مدنيتان .

ثم سماه سفاحاً وحرّمه في سورتي النساء والمائدة ثم سماه فحشاء ومنع عنه
وذمه في سورة الأعراف والعنكبوت ويوسف وهي مكية وفي سور النحل والبقرة
والنور وهي أو الأخيرتان مدنيتان .

ثم سماه فاحشة ونهى عنها في سور الأعراف والأنعام والإسراء والنمل والعنكبوت والشورى والنجم وهي مكة وفي سور النساء والنور والأحزاب والطلاق وهي مدنية .

ونهى عنه أيضاً بالتكنية في آية المؤمنون : ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ ونظيره في سورة المعارج وكان من المعروف في أول البعثة من أمر الإسلام أنه يحرم الخمر والزنا^(١) .

فلو لم يكن التمتع ازدواجاً والمتمتع بها زوجاً مشمولة لقوله : ﴿إلا على أزواجهم﴾ لكان زنا ومن المعلوم بالضرورة أن التمتع كان معمولاً به في مكة قبل الهجرة في الجملة وكذا في المدينة بعد الهجرة في الجملة ولازم ذلك أن يكون زنا أباحه النبي ﷺ لضرورة اقتضته لو أغمضنا عن قوله تعالى : ﴿فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن﴾^(٢) ولازم ذلك أن تكون آية سورة المؤمنون ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ إلى قوله ﴿العادون﴾ ، ناسخة لإباحة التمتع السابقة ثم يكون تحليل النبي ﷺ أو تحليل آية سورة النساء ذلك ناسخاً لجميع الآيات المكية الناهية عن الزنا وبعض المدنيات مما نزلت قبل التحليل ، وخاصة على قول من يقول : إن النبي ﷺ حلله ثم حرمه مرة^(٣) بعد مرة فإن لازمه نسخ الآيات الناهية عن الزنا ثم إحكامها ثم نسخها ثم إحكامها مرات ولم يقل أحد من المسلمين بكونها منسوخة فضلاً عن النسخ بعد النسخ وهل هذا إلا لعب بكلام الله تجل عنه ساحة النبي ﷺ ؟ .

على أن الآيات الناهية عن الزنا آية بسياقها وما فيه من التعليل أب عن النسخ وكيف يعقل أن يسمي الله سبحانه فعلاً من الأفعال فاحشة وسبيل سوء ويخبر أن من يفعله يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ثم يبيح ارتكابه ثم يمنع ثم يجيز .

(١) على ما رواه ابن هشام في السيرة وقد أوردنا الرواية في بحث روائي في ذيل قوله تعالى : ﴿إنما الخمر والميسر﴾ الآية من سورة المائدة ج ٦ ص ١٤٦ من الكتاب .

(٢) النساء : ٢٤ .

(٣) وقد أوردنا الروايات الدالة على ذلك في البحث الروائي الموضوع في ذيل قوله تعالى : ﴿فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن﴾ الآية النساء : ٢٤ ج ٤ ص ٣٠٨ .

على أن أصل نسخ القرآن بالحديث لا معنى له (١).

على أن عدة من المرتكبين لنكاح المتعة في عهد النبي ﷺ كانوا من معارف الصحابة وهم على ما هم عليه من حفظ ظواهر الأحكام فكيف استجازوا النبي ﷺ في الفحشاء؟ وكيف لم يستخبثوه؟ وكيف رضوا بالعار والشنار وقد تمتع زبير من اسماء بنت أبي بكر فولدت له عبد الله بن زبير وأخاه عروة بن زبير وورثاه بعد قتله وهم جميعاً من الصحابة.

على أن الروايات الدالة على نهى النبي ﷺ عن المتعة متهافة، وما تسالموا عليه من قول عمر بن الخطاب حينما نهى أيام خلافته عن المتعة وما ورد عنه حول القصة يكذب هذه الروايات ويدفع حديث النسخ. وقد مر شطر من الكلام في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة﴾ (٢).

ومن لطيف الدلالة على كون المتعة نكاحاً غير سفاح اقتران جملة ﴿فما استمتعتم﴾ الخ بقوله قبله متصلاً به ﴿محصنين غير مسافحين﴾.

فقد تبين بما ذكرنا أن المتعة في الشرع وفي عرف القرآن نكاح وزوجية لا زنا وسفاح سواء قلنا بكونها منسوخة بعد بكتاب أو سنة كما عليه معظم أهل السنة أو لم نقل كما عليه الشيعة تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

فالنكاح ينقسم إلى نوعين: نكاح دائم له أحكامه من العدد والإرث والإحصان والنفقة والفراش والعدة وغير ذلك. ونكاح مؤقت مبني على التسهيل له من أحكام النكاح الدائم اختصاص المرأة بالرجل ولحقوق الأولاد والعدة.

وبذلك يظهر فساد ما ذكره جمع منهم أن المتعة ليست بزوجية ولو كانت زوجية لجرت فيها أحكامها من العدد والميراث والنفقة والإحصان وغير ذلك وذلك أن الزوجية تنقسم إلى دائمة لها أحكامها وموقته مبنية على التسهيل يجري فيها بعض تلك الأحكام كما تقدم.

والإشكال بأن تشريع الازدواج إنما هو للتناسل بدوام الزوجية والغرض من المتعة مجرد دفع الشهوة بصب الماء وسفحه فهي سفاح وليست بنكاح.

(١) وقد بين ذلك في علم الأصول بما لا مزيد عليه.

(٢) النساء: ٢٤.

فيه أن التوسل إلى النسل حكمة لا علة يدور مدارها التشريع وإلا لم يجز نكاح العاقر واليايسة والصبي والصبية .

على أن المتعة لا تنافي الاستيلاد ومن الشاهد على ذلك عبد الله وعروة ابنا زبير أولدا له من أسماء بنت أبي بكر من المتعة .

وكذا الإشكال بأن المتعة تجعل المرأة ملعبة يلعب بها الرجال كالكرة الدائرة بين الصوالج ذكره صاحب المنار وغيره .

فيه أن هذا يرد أول ما يرد على الشارع فإن من الضروري أن المتعة كانت دائرة في صدر الإسلام برهة من الزمان فما أجاب به الشارع كان هو جوابنا .

وثانياً أن جميع ما يقصد بالمتعة من لذة أو دفع شهوة أو استيلاد أو استئناس أو غير ذلك مشتركة بين الرجال والمرأة فلا معنى لجعلها ملعبة له دون العكس إلا أن يكابر مكابر .

وللكلام تنمة ستوافيك في بحث مستقل إن شاء الله تعالى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن أبي مليكة قال : سألت عائشة عن متعة النساء قالت : بيني وبينكم كتاب الله وقرأت ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ فمن ابتغى وراء ما زوجه الله أو ملكه فقد عدا .

أقول : وروى نظيره عن القاسم بن محمد ، وقد تبين بما قدمنا أن المتمتع بها زوج وأن الآية تجيزها على خلاف ما في الرواية .

وفي تفسير القمي : ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ قال : من جاوز ذلك .

وفيه : ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال : على أوقاتها وحدودها .

وفي الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال : هي الفريضة قلت : ﴿والذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال : هي النافلة .

وفي المجمع روي عن النبي ﷺ أنه قال : ما منكم من أحد إلا له

منزلان : منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله .

أقول : وروى مثله القمي في تفسيره بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث مفصل وتقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ وَأُنذِرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (١) في الجزء السابق من الكتاب .

(بحث حقوقي اجتماعي)

لا ريب أن الذي يدعو الإنسان ويبعثه نحو الاستئناس بالسنن الاجتماعية أو وضع القوانين الجارية في المجتمع البشري ، تنبيهه لحوائج الحياة وتوسله بوضعها والعمل بها إلى رفعها .

وكلما كانت الحاجة أبسط وإلى الطبيعة الساذجة أقرب كان التوسل إلى رفعها أوجب والإهمال في دفعها أدهى وأضر فما الحاجة إلى أصل التغذية والحياة تدور معه كالحاجة إلى التنعم بألوان الطعام وأنواع الفواكه وهكذا .

ومن الحوائج الأولية الإنسانية حاجة كل من صفيه : الذكور والإناث إلى الآخرين بالنكاح والمباشرة ، ولا ريب أن المطلوب بالنظر إلى الصنع والإيجاد بذلك بقاء النسل وقد جهز الإنسان بفريضة شهوة النكاح للتوسل به إلى ذلك .

ولذلك نجد المجتمعات الإنسانية التي نشاهدها أو نسمع بأخبارها مستتة بسنة الازدواج وتكوين البيت ، وعلى ذلك كانت منذ أقدم عهودها فلم يضمن بقاء النسل إلا الازدواج .

ولا يدفع هذا الذي ذكرنا أن المدنية الحديثة وضعت سنة الازدواج على أصل الاشتراك في الحياة دون أصل التناسل أو إرضاء الفريضة فإن هذا البناء على كونه بناء محدثاً غير طبيعي لم يبعث حتى الآن شيئاً من المجتمعات المستتة بها على شيوع هذه الشركة الحيوية بين الرجال أنفسهم أو النساء أنفسهن وليس إلا لمباينته ما تبعث إليه الطبيعة الإنسانية .

وبالجملة الازدواج سنة طبيعية لم تزل ولا تزال دائرة في المجتمعات البشرية ولا

يزاحم هذه السنة الطبيعية في مسيرها إلا عمل الزنا الذي هو أقوى مانع من تكوّن البيوت وتحمل كلفة الازدواج وحمل أثقاله بانصراف غريزة الشهوة إليه المستلزم لانهدام البيت وانقطاع النسل .

ولذا كانت المجتمعات الدينية أو الطبيعية الساذجة تستشنعها وتعدّها فاحشة منكرة وتتوسل إلى المنع عنه بأي وسيلة ممكنة ، والمجتمعات المتمدنة الحديثة وإن لم تسد سبيله بالجملة ولم تمنع عنه ذلك المنع لكنها مع ذلك لا تستحسنه لما ترى من مضاداته العميقة لتكون البيوت وازدياد النفوس وبقاء النسل ، وتحتال إلى تقليله بلطائف الحيل وتروج سنة الازدواج وتدعو إلى تكثير الأولاد بجعل الجوائز وترفع الدرجات وغير ذلك من المشوّقات .

غير أنه على الرغم من كون سنة الازدواج الدائم سنة قانونية متبعة في جميع المجتمعات الإنسانية في العالم وتحريض الدول عليها واحتيالها لتضعيف أمر الزنا وصرف الناس لا سيما الشبان والفتيات عنه لا يزال يوجد في جميع البلاد صغيرتها وكبيرتها معاهد لهذا العمل لبنية المجتمع علنية أو سرية على اختلاف السنن الجارية فيها .

وهذا أوضح حجة على أن سنة الازدواج الدائم لا تفي برفع هذه الحاجة الحيوية للنوع ، وأن الإنسانية بعد في حاجة إلى تميم نقيصتها هذه ، وأن من الواجب على من بيده زمام التقنين أن يتوسع في أمر الازدواج .

ولذلك شفع شارع الإسلام سنة الازدواج الدائم بسنة الازدواج الموقت تسهلاً للأمر وشرط فيه شروطاً ترتفع بها محاذير الزنا من اختلاط المياه واختلال الأنساب والمواريث وانهدام البيوت وانقطاع النسل وعدم لحوق الأولاد وهي اختصاص المرأة بالرجل والعدة إذا افترقا ولحوق الأولاد ثم لها ما اشترطت على زوجها وليس فيه على الرجل شيء من كلفة الازدواج الدائم ومشقته .

ولعمر الحق إنها لمن مفاخر الإسلام في شريعته السهلة السمحة نظير الطلاق وتعدد الزوجات وكثير من قوانينه ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يسمعون يقول القائل : لأن أزني أحب إليّ من أن أمتنع أو أمتع .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) .

(بيان)

لما ذكر سبحانه فلاح المؤمنين بما عندهم من الأوصاف الجميلة عقبه بشرح خلقهم وخلق ما أنعم عليهم من النعم مقروناً بتدبير أمرهم تدبيراً مخلوطاً بالخلق لينكشف به أنه هو رب الإنسان ولكل شيء الواجب أن يعبد وحده لا شريك له .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال في المجمع : السلالة اسم لما ينسل من الشيء كالکساحة اسم لما يكسح انتهى . وظاهر السياق أن المراد بالإنسان هو النوع فيشمل آدم ومن دونه ويكون المراد بالخلق الخلق الابتدائي الذي خلق به آدم من الطين ثم جعل النسل من النطفة ، وتكون الآية وما بعدها في معنى قوله : ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾^(١) .

ويؤيده قوله بعد : ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب وكان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة إلى الطين لكان الظاهر أن يقال : ثم خلقناه نطفة كما قيل : ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة الخ .

وبذلك يظهر أن قول بعضهم : إن المراد بالإنسان جنس بني آدم ، وكذا القول بأن المراد به آدم عليه السلام غير سديد .

وأصل الخلق - كما قيل - التقدير يقال : خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئاً من اللباس فالمعنى ولقد قدرنا الإنسان أولاً من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء .

قوله تعالى : ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ النطفة القليل من الماء وربما يطلق على مطلق الماء ، والقرار مصدر أريد به المقر بمبالغة والمراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة ، والمكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة والفساد أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها .

والمعنى : ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أولاً من سلالة من طين أي بدلنا طريق خلقه من هذا إلى ذاك .

قوله تعالى : ﴿ثم خلقنا النطفة علقه﴾ إلى قوله ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ تقدم بيان مفردات الآية في الآية ٥ من سورة الحج في الجزء السابق من الكتاب وفي قوله : ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ استعارة بالكناية لطيفة .

قوله تعالى : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ الإنشاء - كما ذكره الراغب - إيجاد الشيء وتربيته كما أن النشء والنشأة إحداثه وتربيته كما يقال للشباب الحديث السن ناشيء .

وقد غير السياق من الخلق إلى الإنشاء فقال : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ دون أن يقال : ثم خلقناه الخ ، للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه ولا يقارنه ما تقدمه من مادة فإن العلقه مثلاً وإن خالفت النطفة في أوصافها وخواصها من لون وطعم وغير ذلك إلا أن في النطفة مكان كل من هذه الأوصاف والخواص ما يجانسه وإن لم يماثله كالبياض مكان الحمرة وهما جميعاً لون بخلاف ما أنشأه الله أخيراً وهو الإنسان الذي له حياة وعلم وقدرة فإن ما له من جوهر الذات وهو الذي نحكي عنه بأنا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة والعلقه والمضغة والعظام المكسوة لحماً

شيء ، ولا سبق فيها شيء يناظر ما له من الخواص والأوصاف كالحياة والقدرة والعلم فهو منشأ حادث مسبق بالعدم .

والضمير في ﴿أنشأناه﴾ - على ما يعطيه السياق - للإنسان المخلوق عظاماً مكسوة باللحم فهو الذي أنشأ وأحدث خلقاً آخر أي بدّل وهو مادة ميتة جاهلة عاجزة موجوداً ذا حياة وعلم وقدرة ، فقد كان مادة لها صفاتها وخواصها ثم برز وهو يغيّر سابقته في الذات والصفات والخواص ، فهو تلك المادة السابقة فإنها التي صارت إنساناً ، وليس بها إذ لا يشاركها في ذات ولا صفات ، وإنما له نوع اتحاد معها وتعلّق بها يستعملها في سبيل مقاصدها استعمال ذي الآلة للآلة كالكتاب للقلم .

وهذا هو الذي يستفاد من مثل قوله : ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾^(١) ، فالمتوفى والمأخوذ عند الموت هو الإنسان ، والمتلاشي الضال في الأرض هو البدن وليس به .

وقد اختلف العطف في مفردات الآية بالفاء وثم ، وقد قيل في وجهه أن ما عطف بثم له بينونة كاملة مع ما عطف عليه كما في قوله : ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ ، ﴿ثم خلقنا النطفة علقه﴾ ، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ ، وما لم يكن بتلك البينونة والبعد عطف بالفاء كقوله : ﴿فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾ .

قوله تعالى : ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ قال الراغب : أصل البرك - بالفتح فالسكون - صدر البعير . قال : وبرك البعير ألقى ركه واعتبر منه معنى الزوم . قال : وسمي محبس الماء بركة - بالكسر فالسكون - والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء قال تعالى : ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير .

قال : ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة . انتهى .

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الذي يجود به ويفيضه على خلقه وقد تقدم أن الخلق في أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله في تقديره وهو إيجاد

الأشياء وتركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها وتناسب ما وراءها ومن ذلك يتشعر الخير الكثير .

ووصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به وهو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير وقياس الشيء من الشيء لا يختص به تعالى ، وفي كلامه تعالى من الخلق المنسوب إلى غيره قوله : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾^(١) وقوله : ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ بيان لتمام التدبير الإلهي وأن الموت من المراحل التي من الواجب أن يقطعها الإنسان في مسير التقدير ، وأنه حق كما تقدم في قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنُبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ وهذا تمام التدبير وهو أعني البحث آخر مرحلة في مسير الإنسان إذا حل بها لزمها ولا يزال قاطناً بها .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ، المراد بالطرائق السبع بقرينة قوله : ﴿فَوْقَكُمْ﴾ السماوات السبع وقد سماها طرائق - جمع طريقة - وهي السبل المطروقة لأنها ممر الأمر النازل من عنده تعالى إلى الأرض ، قال تعالى : ﴿يُنْزِلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ﴾^(٤) ، وقال : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾^(٥) . والسبل التي تسلكها الأعمال في صعودها إلى الله والملائكة في هبوطهم وعروجهم كما قال : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٦) ، وقال : ﴿وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(٧) .

وبذلك يتضح اتصال ذيل الآية ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ بصدرها أي لستم بمنقطعين عنا ولا بمعزل عن مراقبتنا بل هذه الطرائق السبع منصوبة بيننا وبينكم يتطرقها رسل الملائكة بالنزول والصعود وينزل منها أمرنا إليكم وتصعد منها أعمالكم إلينا .

وبذلك كله يظهر ما في قول بعضهم : إن الطرائق بمعنى الطباق المنصودة بعضها فوق بعض من طرق النعل إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض ، وقول آخرين :

(٦) فاطر : ١٠ .

(٤) الطلاق : ١٢ .

(١) المائدة : ١١٠ .

(٧) مريم : ٦٤ .

(٥) الم السجدة : ٥ .

(٢) العنكبوت : ١٧ .

(٣) الأنبياء : ٣٥ .

إنها بمعنى المبسوطات من طرق الحديد إذا بسطه بالمطرقة .

على أن اتصال ذيل الآية بصدرها على القولين غير بين .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ المراد بالسماة جهة العلو فإن ما علاك وأظلك فهو سماة ، والمراد بالماء النازل منها ماء المطر .

وفي قوله : ﴿بِقَدَرٍ﴾ دلالة على أن الذي نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهي الذي يقدره بقدر لا يزيد قطرة على ما قدر ولا ينقص ، وفيه تلميح أيضاً إلى قوله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١) .

والمعنى : وأنزلنا من جهة العلو ماء بقدر وهو ماء المطر فأسكناه في الأرض وهو الذخائر المدخرة من الماء في الجبال والسهول تتفجر عنه العيون والأنهار وتكشف عنه الآبار ، وإنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذي أسكناه في الأرض نوعاً من الذهاب لا تهتدون إلى علمه .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ إلى آخر الآية ، إنشاء الجنات إحداثها وتربيتها ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلَّكَلِينِ﴾ معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي وأنشأنا لكم به شجرة في طور سيناء ، والمراد بها شجرة الزيتون التي تكثر في طور سيناء ، وقوله : ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي ثمر ثمرة فيها الدهن وهو الزيت فهي تنبت بالدهن ، وقوله : ﴿وَصَبْغٍ لِلَّكَلِينِ﴾ أي وتنبت بصبغ للأكلين ، والصبغ بالكسر فالكسر الإسكون الإدام الذي يؤتدم به ، وإنما خص شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا﴾ الخ ، العبرة الدلالة يستدل بها على أنه تعالى مدبر لأمر خلقه حنين بهم رؤوف رحيم ، والمراد بسقيه تعالى مما في بطونها أنه رزقهم من ألبانها ، والمراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك ، ومنها يأكلون .

قوله تعالى : ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحمِلُونَ﴾ ضمير ﴿عليها﴾ للأنعام والحمل

على الأنعام هو الحمل على الإبل ، وهو حمل في البر ويقابله الحمل في البحر وهو الحمل على الفلك ، فالآية في معنى قوله : ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾^(١) ، والفلك جمع فلكة وهي السفينة .

(بحث روائي)

في الدر المشور أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : إذا تمت النطفة أربعة أشهر بعث إليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث ، فذلك قوله : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نفخ الروح فيه .

وفي الكافي بإسناده عن ابن فضال عن الحسن بن الجهم قال : سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول : قال أبو جعفر عليه السلام : إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً ، ثم تصير علقة أربعين يوماً ، ثم تصير مضغة أربعين يوماً ، فإذا كمل أربعة أشهر بعث الله ملكين خلاقين فيقولان : يا رب ما نخلق ذكراً أو أنثى ؟ فيؤمران فيقولان : يا رب شقي أو سعيد ؟ فيؤمران فيقولان : يا رب ما أجله وما رزقه وكل شيء من حاله ؟ وعدد من ذلك أشياء ، ويكتبان الميثاق بين عينيهِ .

فإذا كمل الأجل بعث الله إليه ملكاً فزجره زجرة فيخرج وقد نسي الميثاق ، فقال الحسن بن الجهم : أفيجوز أن يدعوا الله فيحول الأنثى ذكراً أو الذكر أنثى ؟ فقال : إن الله يفعل ما يشاء .

أقول : والرواية مروية عن أبي جعفر عليه السلام بطرق أخرى وألفاظ متقاربة .

وفي تفسير القمي قوله عز وجل : ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين﴾ قال : شجرة الزيتون ، وهو مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثل أمير المؤمنين عليه السلام فالطور الجبل وسيناء الشجرة .

وفي المجمع ﴿تنبت بالدهن وصبغ للأكلين﴾ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه وادهنوا .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا

هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبُّصُوا
بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
أَنْ أَصْنَعْ أَلْفُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا
تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ
وَمَنْ مَعَكَ عَلَى أَلْفُكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ
بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ أَلَمَلَا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ
بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ
تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا
تُوَعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ
بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً
فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا

آخِرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِغَضَبٍ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا آدَمَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) .

(بيان)

بعدما عدَّ نعمه العظام على الناس عقبه في هذه الآيات بذكر دعوتهم إلى توحيد عبادته من طريق الرسالة وقصَّ إجمال دعوة الرسل من لدن نوح إلى عيسى ابن مريم عليهما السلام ، ولم يصرَّح من أسمائهم إلا باسم نوح وهو أول الناهضين لدعوة التوحيد واسم موسى وعيسى عليهما السلام وهما في آخرهم ، وأبهم أسماء الباقيين غير أنه صرَّح باتصال الدعوة وتواتر الرسل ، وأن الناس لم يستجيبوا إلا بالكفر بآيات الله والكفران لنعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ قد تقدم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنه أول أولي العزم من الرسل أصحاب الكتب والشرائع المبعوثين إلى عامة البشر والناهضين للتوحيد ونفي الشرك ، فالمراد بقومه أمته وأهل عصره عامة .

وقوله : ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ دعوة إلى عبادة الله ورفض عبادة الآلهة من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكة والجنّ والقديسين بدعوى ألوهيتهم أي كونهم معبودين من دونه .

قال بعض المفسرين : إن معنى ﴿اعبدوا الله﴾ -اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله في سورة هود : ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ وترك التقيد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط وأما العبادة مع الإشراف فليست من العبادة في شيء رأساً . انتهى .

وفيه غفلة أو ذهول عن أن الوثنيين لا يعبدون الله سبحانه أصلاً بناءً على أن العبادة توجه من العابد إلى المعبود ، والله سبحانه أجل من أن يحيط به توجه متوجه أو علم عالم ، فالوجه أن يتقرب إلى خاصة خلقه من الملائكة وغيره ليشفعوا عنده ويقربوا منه ، والعبادة بإزاء التدبير وأمر التدبير مفوض إليهم منه تعالى فهم الآلهة المعبودون والأرباب من دونه .

ومن هنا يظهر أنه لو جازت عبادته تعالى عندهم لم يجز إلا عبادته وحده لأنهم لا يرتابون في أنه تعالى رب الأرباب موجد الكل ولو صحت عبادته لم تجز إلا عبادته وحده ولم تصح عبادة غيره لكنهم لا يرون صحتها بناءً على ما زعموه من الوجه المتقدم .

فقوله ﴿الذين﴾ لقومه الوثنيين : ﴿اعبدوا الله﴾ في معنى أن يقال : اعبدوا الله وحده كما ورد في سورة هود ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ ، وقوله : ﴿ما لكم من إله غيره﴾ في معنى أن يقال : ما لكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفاً من سخطه ، وقوله بالتفريع على ذلك : ﴿أفلا تتقون﴾ أي إذا لم يكن لكم رب يدبر أمورك دونه أفلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه وتكفرون به ؟

قوله تعالى : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ إلى قوله ﴿حتى حين﴾ ملأ القوم أشرافهم ، ووصفهم بقوله : ﴿الذين كفروا من قومه﴾ وصف توضيحي لا احترازي إذ لم يؤمن به من ملأ قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله : ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾^(١) .

والسياق يدل على أن الملائكة كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامة الناس لصرف وجوههم عنه وإغرائهم عليه وتحريضهم على إيذائه وإسكاته ، وما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فرية أو مغالطة لفقوها واحتجوا بها على بطلان دعوته .

الأول قولهم : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ ومحصله أنه بشر مثلكم فلو كان صادقاً فيما يدّعيه من الوحي الإلهي والاتصال بالغيب كان نظير ما يدّعيه متحققاً فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشرية ولوازمها ، ولم يتحقق فهو كاذب وكيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدّعيه من غير شاهد يشهد عليه ؟ فلم يبق إلا أنه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم ويترأس فيكم ويؤيده أنه يدعوكم إلى اتباعه وطاعته وهذه الحجة تنحل في الحقيقة إلى حجتين مختلفتين .

والثاني قولهم : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ ومحصله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوة غيبية لاختار لذلك الملائكة الذين هم المقربون عنده والشفعاء الروابط بيننا وبينه فأرسلهم إلينا لا بشراً ممن لا نسبة بينه وبينه . على أن في نزولهم واعترافهم بوجوب العبادة له تعالى وحده وعدم جواز اتخاذهم أرباباً وآلهة معبودين آية بيّنة على صحة الدعوة وصدقها .

والتعبير عن إرسال الملائكة بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال والتعبير بلفظ الجمع دون الأفراد لعله لكون المراد بهم الآلهة المتخذة منهم وهم كثيرون .

والثالث قولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ ومحصله أنه لو كانت دعوته حقة لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانية ، وآباؤنا كانوا أفضل منا وأعقل ولم يتفق لهم وفي أعصارهم ما يناظر هذه الدعوة فليست إلا بدعة وأحدثة كاذبة .

والرابع قولهم : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ ، الجنة إما مصدر أي به جنون أو مفرد الجن أي حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعي ما لا يقبله العقل السليم ويقول ما لا يقوله إلا مصاب في عقله فتربصوا وانتظروا به إلى حين ما لعله يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه .

وهذه حجج مختلفة ألغاهما ملا قومه إلى عامتهم أو ذكر كلاً منها بعضهم وهي وإن كانت حججاً جدلية مدخولة لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه ويغرونهم عليه ويمدون في ضلالهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴾ سؤال منه للنصر والباء في قوله : ﴿ بِمَا كَذَبُونَ ﴾ للبدلية والمعنى انصُرْنِي بدل تكذيبهم لي أو للآلة وعليه فالمعنى انصُرْنِي بالذي كذبوني فيه وهو العذاب فإنهم قالوا : ﴿ فَأَتْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(١) ، ويؤيده قول نوح : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾^(٢) ، وفصل الآية لكونها في معنى جواب السؤال .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ إلى آخر الآية . متفرع على سؤال النصر ، ومعنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرئى منه وهو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى ومحافظته ، ومعنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبي حالاً بعد حال .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ المراد بالأمر - كما قيل - حكمه الفصل بينه وبين قومه وقضاؤه فيهم بالغرق ، والسياق يشهد على كون فوران التنور بالماء أمانة نزول العذاب عليهم وهو أعني فوران الماء من التنور وهو محل النار من عجيب الأمر في نفسه .

وقوله : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ القراءة الدائرة ﴿ مِنْ كُلِّ ﴾ بالتثنية والقطع عن الإضافة ، والتقدير من كل نوع من الحيوان ، والسلوك فيها الإدخال في الفلك والظاهر أن ﴿ مِنْ ﴾ لا ابتداء الغاية والمعنى فأدخل في الفلك زوجين اثنين : ذكر وأنثى من كل نوع من الحيوان .

وقوله ﴿ وَأَهْلِكَ إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ وما قيل : إن عطف ﴿ أَهْلِكَ ﴾ على ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ إلى قولنا : واسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير ﴿ أَهْلِكَ ﴾ ثانياً قبل ﴿ أَهْلِكَ ﴾ وعطفه على ﴿ فَاسْلُكْ ﴾ . يدفعه أن ﴿ مِنْ كُلِّ ﴾ في موضع الحال من ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ فهو متأخر عنه رتبة كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانياً على المعطوف .

والمراد بالأهل خاصته ، والظاهر أنهم أهل بيته والمؤمنون به فقد ذكرهم في سورة هود مع الأهل ولم يذكر ههنا إلا الأهل فقط .

والمراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافرة على ما فهم نوح عليه السلام وهي وابنه الذي أبى ركوب السفينة وغرق حينما أوى إلى جبل في الحقيقة ، وسبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق .

وقوله : ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ النهي عن مخاطبته تعالى كناية عن النهي الشديد عن الشفاعة لهم ، بدليل تعليق المخاطبة بالذين ظلموا وتعليل النهي بقوله : ﴿إنهم مغرقون﴾ فكأنه قيل : أنهاك عن أصل تكليمي فيهم فضلاً أن تشفع لهم فقد شملهم غضبي شمولاً لا يدفعه دافع .

قوله تعالى : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل﴾ إلى آخر الآيتين علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين وهذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتماً ، وأن يسأله أن ينجيه من الطوفان وينزله على الأرض إنزالاً مباركاً ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين .

وفي أمره عليه السلام أن يحمده ويصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزه عما يصفه غيرهم كما قال : ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصون﴾^(١) .

وقد اكتفى سبحانه في القصة بإخباره عن حكمه بغرقهم وأنهم مغرقون حتماً ولم يذكر خبر غرقهم إيماء إلى أنهم آل بهم الأمر إلى أن لا خبر عنهم بعد ذلك ، وإعظاماً للقدرة وتهويلاً للسخطه وتحقيراً لهم واستهانة بأمرهم ، فالسكوت في هذه القصة عن هلاكهم أبلغ من قوله في القصة الآتية : ﴿فجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ من وجوه .

قوله تعالى : ﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾ خطاب في آخر القصة للنبي عليه السلام وبيان أن هذه الدعوة مع ما جرى معها كانت ابتلاء أي امتحاناً واختباراً إليها .

قوله تعالى : ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ إلى آخر الآية الثانية . القرن

أهل عصر واحد ، وقوله : ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بتيجته كقوله تعالى : ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هؤلاء أشرفهم المتوغلون في الدنيا المخلدون إلى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم .

وقد وصفهم الله بصفات ثلاث وهي : الكفر بالله بعبادة غيره ، والتكذيب بلقاء الآخرة - أي بلقاء الحياة الآخرة بقرينة مقابلتها لقوله : ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ - ، ولكفرهم بالمبدأ والمعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبوا عليها ثم لما أترفوا في الحياة الدنيا وتمكنوا من زخارفها وزيناتها الملهة اجتذبتهم الدنيا إلى نفسها فاتبعوا الهوى ونسوا كل حق وحقيقة ، ولذلك تفوهوا قارة بنفي التوحيد والرسالة وقارة بإنكار المعاد وقارة ردوا الدعوة بإضرارها دنياهم وحریتهم في اتباع هواهم .

قارة قالوا لعوامهم مشيرين إلى رسولهم إشارة المستحقر المستهين بأمره : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يريدون به تكذيبه في دعوته ودعواه الرسالة على ما مر من تقرير حجتهم في قصة نوح السابقة .

وفي استدلالهم على بشريته ومساواته سائر الناس بأكله وشربه مثل الناس وذلك من خاصة مطلق الحيوان دليل على أنهم ما كانوا يرون للإنسان إلا كمال الحيوان ولا فضيلة إلا في الأكل والشرب ولا سعادة إلا في التمكن من التوسع والاسترسال من اللذائذ الحيوانية كما قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾^(٢) ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾^(٣) .

وقارة قالوا : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ وهو في معنى قولهم في القصة السابقة : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ بِكُمْ﴾ يريدون به أن في اتباعه وإطاعته فيما يأمركم به مع كونه بَشَرًا مِثْلَكُمْ من غير فضل له عليكم خسرانكم وبطلان سعادتكم في الحياة إذ لا حياة إلا الحياة الدنيا ولا سعادة فيها إلا الحرية في التمتع من لذائذها ، وفي طاعة من لا فضل له عليكم رقيتكم وزوال حریتكم وهو الخسران .

وتارة قالوا : ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ أي مبعوثون من قبوركم للحساب والجزاء ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ وهيهات كلمة استبعاد وفي تكراره مبالغة في الاستبعاد ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي يموت قوم منا في الدنيا ويحيا آخرون فيها لا نزال كذلك ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ للحياة في دار أخرى وراء الدنيا .

ويمكن أن يحمل قولهم : ﴿نموت ونحيا﴾ على التناسخ وهو خروج الروح بالموت من بدن وتعلقها ببدن آخر إنساني أو غير إنساني فإن التناسخ مذهب شائع عند الوثنيين وربما عبروا عنه بالولادة بعد الولادة لكنه لا يلائم سياق الآيات كثير ملاءمة .

وتارة قالوا : ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين﴾ يريدون به تكذيب دعواه الرسالة مع ما احتوت عليه دعوته وقد أنكروا التوحيد والمعاد قبل ذلك .

ومرادهم بقولهم : ﴿نحن﴾ أنفسهم وعامتهم أشركوا أنفسهم عامتهم لثلاثتهم العامة فيما يأمرونهم به من الكفر بالرسول ، ويمكن أن يكون المراد به أنفسهم خاصة دون العامة وإنما أخبروا بعدم إيمانهم ليقنطروا بهم فيه .

وقد نشأت هذه الأقاويل من اجتماع الصفات التي وصفهم الله به في أول الآيات وهي إنكار التوحيد والنبوة والمعاد والإتراف في الحياة الدنيا .

واعلم أن في قوله في صدر الآيات : ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم﴾ قديم قوله : ﴿من قومه﴾ على ﴿الذين كفروا﴾ بخلاف ما في القصة السابقة من قوله : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ لأنه لو وقع بعد ﴿الذين كفروا﴾ اختل به ترتيب الجمل المتوالية ﴿كفروا﴾ و﴿كذبوا﴾ و﴿أترفناهم﴾ ولو وقع بعد الجميع طال الفصل .

قوله تعالى : ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ تقدم تفسيره في القصة السابقة .

قوله تعالى : ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ استجابة لدعوة الرسول وصيرورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم ، وقوله : ﴿عما قليل﴾ عن بمعنى بعد و﴿ما﴾ لتأكيد القلة وضمير الجمع للقوم ، والكلام مؤكد بلام القسم ونون

التأكيد ، والمعنى : أقسم لتأخذتهم الندامة بعد قليل من الزمان بمشاهدة حلول العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، الباء في ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ للمصاحبة وهو متعلق بقوله : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ ﴾ أي أخذتهم الصيحة أخذاً مصاحباً للحق ، أو للسببية ، والحق وصف أقيم مقام موصوفه المحذوف والتقدير فأخذتهم الصيحة بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ (١) .

والغثاء بضم الغين وربما شددت الثاء : ما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان البالية ، وقوله : ﴿ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ إبعاد ولعن لهم أو دعاء عليهم .

والمعنى : فأنجزنا للرسول ما وعدناه من عذابهم فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب فأهلكناهم وجعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعداً .

ولم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكهم ولا باسم رسولهم ، وليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه في قصتهم في مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح وقد أهلكوا بالصيحة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ تقدم توضيح مضمون الآيتين كراراً .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلَهَا كَذَّبُوهُ ﴾ إلى آخر الآية يقال : جاءوا تترى أي فرادى يتبع بعضهم بعضاً ، ومنه التواتر وهو تتابع الشيء وتراً وفرادى ، وعن الأصمعي : واترت الخبر أتبعته بعضه بعضاً وبين الخبرين هنيهة انتهى .

والكلام من تنمة قوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا ﴾ و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي بحسب الذكر دون الزمان ، والقصة إجمال منتزع من قصص الرسل وأمهم بين أمة نوح والأمة الناشئة بعدها وبين أمة موسى .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْأُمَّةِ الْهَالِكَةِ بِالصَّيْحَةِ بَعْدَ أُمَّةٍ نُوْحٍ قَرُونًا ﴾

وأماماً آخرين وأرسلنا إليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضاً كلما جاء أمة رسولها المبعوث منها إليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أي بعض هذه الأمم بعضاً أي بالعذاب وجعلناهم أحاديث أي صيرناهم قصصاً وأخباراً بعد ما كانوا أعياناً ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون .

والآيات تدل على أنه كان من سنة الله إنشاء قرن بعد قرن وهدايتهم إلى الحق بإرسال رسول بعد رسول وهي سنة الابتلاء والامتحان ، ومن سنة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنة الله ثانياً - وهي سنة المجازاة - تعذيب المكذبين واتباع بعضهم بعضاً .

وقوله : ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أبلغ كلمة تفصح عن القهر الإلهي الذي يغشى أعداء الحق والمكذبين لدعوته حيث يمحو العين ويعفو الأثر ولا يبقى إلا الخبر .

قوله تعالى : ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ الآيات هي العصا واليد البيضاء وسائر الآيات التي أراها موسى فرعون وقومه ، والسلطان المبين الحجة الواضحة ، وتفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد .

قوله تعالى : ﴿إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾ قيل : إنما ذكر ملا فرعون واكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون وسائر القوم أتباع يتبعونهم .

والمراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلنون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بني إسرائيل واستعبدوهم فالعلو في الأرض كناية عن التطاول على أهلها وقهرهم على الطاعة .

قوله تعالى : ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ المراد بكونهما بشرين مثلهم نفي أن يكون لهما فضل عليهم ، ويكون قومهما لهم عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى : ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ ثم ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم فقال : ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ ثم قال : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب

لعلهم يهتدون ﴿ والمراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملائته .

قوله تعالى : ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ تقدم أن الآية هي ولادة عيسى ﷺ الخارقة للعادة وإذ كانت أمراً قائماً به وبإمامه معاً عدداً جميعاً آية واحدة .

والإيواء من الأوي وأصله الرجوع ثم استعمل في رجوع الإنسان إلى مسكنه ومقره ، وآواه إلى مكان كذا أي جعله مسكناً له والربوة المكان المرتفع المستوي الواسع ، والمعين الماء الجاري .

والمعنى : وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه مريم آية دالة على ربوبيتنا وأسكناهما في مكان مرتفع مستو وسيع فيه قرار وماء جار .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ خطاب لعامة الرسل بأكل الطيبات وكأن المراد بالأكل منها الارتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره وهو استعمال شائع .

والسياق يشهد بأن في قوله : ﴿كلوا من الطيبات﴾ امتناناً منه تعالى عليهم ، ففي قوله عقيبته : ﴿واعملوا صالحاً﴾ أمر بمقابلة المنّة بصالح العمل وهو شكر للنعمة وفي تعليقه بقوله : ﴿إني بما تعملون عليم﴾ تحذير لهم من مخالفة أمره وبعث إلى ملازمة التقوى .

قوله تعالى : ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ تقدم تفسير نظيرة الآية في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ في المجمع أن التقطع والتقطيع بمعنى واحد ، والزبر بضمين جمع زبور وهو الكتاب ، والكلام متفرع على ما تقدمه ، والمعنى أن الله أرسل إليهم رسلاً ترى والجميع أمة واحدة لهم رب واحد دعاهم إلى تقواه لكنهم لم ياتمروا بأمره وقطعوا أمرهم بينهم قطعاً وجعلوه كتباً اختص بكل كتاب حزب وكل حزب بما لديهم فرحون .

وفي قراءة ابن عامر ﴿زبراً﴾ بفتح الباء وهو جمع زبرة وهي الفرقة ، والمعنى

وتفرقوا في أمرهم جماعات وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، وهي أرجح .
قوله تعالى : ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾ قال في المفردات : الغمرة
معظم الماء الساترة لمقرها وجعل مثلاً للجهالة التي يغمر صاحبها ، انتهى . وفي
الآية تهديد بالعذاب ، وقد تقدمت إشارة إلى أن من سنته تعالى المجازاة بالعذاب
بعد تكذيب الرسالة ، وفي تنكير ﴿ حين ﴾ إشارة إلى إتيان العذاب الموعود بغتة .

(بحث روائي)

في نهج البلاغة : يا أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم
يعذكم من أن يبتليكم وقد قال جل من قائل : ﴿ إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾ .
وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله :
﴿ فجعلناهم غناء ﴾ الغناء اليابس الهامد من نبات الأرض .

وفيه في قوله تعالى : ﴿ إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قال : الربوة الحيرة وذات
قرار ومعين الكوفة .

وفي المجمع : ﴿ وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قيل : حيرة الكوفة
وسوادها ، والقرار مسجد الكوفة ، والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما
السلام .

أقول : وروى في الدر المنثور عن ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن
الربوة هي دمشق الشام ، وروى أيضاً عن ابن عساكر وغيره عن مرة البهزي عنه
صلى الله عليه وآله وسلم أنها الرملة ، والروايات جميعاً لا تخلو من الضعف .

وفي المجمع : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :
أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وأنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها
الرسل كلوا من الطيبات ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما
رزقناكم ﴾ .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي
هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ أمة واحدة ﴾ قال : على مذهب واحد .

وفيه في قوله : ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ قال : كل من اختار لنفسه ديناً فهو فرح به .

* * *

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ (٦٤) لَا تَجْعَرُوا أَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْنا لَا تَنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُتِّمْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ

وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لِلْجُثَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) .

(بيان)

الآيات متصلة بقوله السابق : ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾ فإنه لما عقب قصص الرسل باختلاف الناس في أمر الدين وتحزبهم أحزاباً أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون أوعدهم بعذاب مؤجل لا مناص لهم عنه ولا مخلص منه فليتيهوا في غمراتهم ما شاءوا فسيغشاهم العذاب ولا محالة .

فنبههم في هذه الآيات أن توهمهم أن ما مدَّهم الله به من مال وبنين مسارعة لهم في الخيرات خطأ منهم وجهل بحقيقة الحال ، ولو كان ذلك من الخير لم يأخذ العذاب مترفيهم بل المسارعة في الخيرات هو ما وفق الله المؤمنين له من الأعمال الصالحة وما يترتب عليها من جزيل الأجر وعظيم الثواب في الدنيا والآخرة فهم يسارعون إليها فيسارع لهم فيها .

فالعذاب مدرّكهم لا محالة والحجة تامة عليهم ولا عذر لهم يعتذرون به كعدم تدبُّر القول أو كون الدعوة بدعاً لا سابقة له أو عدم معرفة الرسول أو كونه مجنوناً مختلاً القول أو سؤال منهم خرجاً بل هم أهل عناد ولجاج لا يؤمنون بالحق حتى يأتيهم عذاب لا مردّ له .

قوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنْ مَا نَمُدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ نَمُدُّهُمْ ﴾ - بضمّ النون - من الإمداد والمد والإمداد بمعنى واحد وهو تميم نقص الشيء وحفظه من أن ينقطع أو ينفد ، قال الراغب : وأكثر ما يستعمل الإمداد في المحبوب والمد في المكروه ، فقوله : ﴿ نَمُدُّهُمْ ﴾ من الإمداد المستعمل في المكروه والمسارة لهم في الخيرات إفاضة الخيرات بسرعة لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنهم هي المال والبنون سورع لهم فيها .

والمعنى : أيعظن هؤلاء أن ما نعطيهم في مدة المهلة من مال وبنين خيرات نسارع لهم فيها لرضانا عنهم أو حبنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا ؟ .

لا ، بل لا يشعرون أي إن الأمر على خلاف ما يظنون وهم في جهل بحقيقة الأمر وهو أن ذلك إملاء منا واستدراج وإنما نمذهم في طغيانهم يعمهون كما قال تعالى : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملئ لهم إن كيدي متين﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ إلى آخر الآيات الخمس ، يبين تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونة ما تقدم أن الذي يظن هؤلاء الكفار أن المال والبنين خيرات يسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هي من الخيرات في شيء بل استدراج وإملاء وإنما الخيرات التي يسارع فيها هي ما عند المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر الصالحين في أعمالهم .

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال : ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ ، قال الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه ، قال تعالى : ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر ، قال : ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ «مشفقون منها» . انتهى .

والآية تصفهم بأنهم اتخذوا الله سبحانه رباً يملكهم ويدبر أمرهم ، ولازم ذلك أن يكون النجاة والهلاك دائرين مدار رضاه وسخطه يخشونه في أمر يحبونه وهو نجاتهم وسعادتهم فهم مشفقون من خشيته وهذا هو الذي يبعثهم إلى الإيمان بآياته وعبادته ، وقد ظهر بما مر من المعنى أن الجمع في الآية بين الخشية والإشفاق ليس تكراراً مستدركاً .

ثم قال : ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ وهي كل ما يدل عليه تعالى بوجه ومن ذلك رسله الحاملون لرسالته وما أيدوا به من كتاب وغيره وما جاءوا به من شريعة لأن إشفاقهم من خشية الله يبعثهم إلى تحصيل رضاه ويحملهم على إجابته إلى ما يدعوهم إليه وائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي والرسالة .

ثم قال : ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ والإيمان بآياته هو الذي دعاهم إلى نفي الشركاء في العبادة فإن الإيمان بها إيمان بالشرعية التي شرعت عبادته تعالى والحجج التي دلت على توحيده في ربوبيته والوحيته .

على أن جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام إنما جاءوا من قبله وإرسال الرسل لهداية الناس إلى الحق الذي فيه سعادتهم من شؤون الربوبية ، ولو كان له شريك لأرسل رسولا ، ومن لطيف كلام علي عليه أفضل السلام قوله : لو كان لربك شريك لأتتك رسله .

ثم قال : ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ الوجل الخوف ، وقوله : ﴿يؤتون ما آتوا﴾ أي يعطون ما أعطوا من المال بالإنفاق في سبيل الله وقيل : المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم بكل عمل صالح ، وقوله : ﴿وقلوبهم وجلة﴾ حال من فاعل ﴿يؤتون﴾ .

والمعنى والذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة والحال أن قلوبهم خائفة من أنهم سيرجعون إلى ربهم أي إن الباعث لهم على الإنفاق في سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم إلى ربهم على وجل منه .

وفي الآية دلالة على إيمانهم باليوم الآخر وإتيانهم بصالح العمل وعند ذلك تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له وبرسله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات .

ثم قال : ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ الظاهر أن اللام في ﴿لها﴾ بمعنى «إلى» و﴿لها﴾ متعلق بسابقون ، والمعنى أولئك الذين وصفناهم هم يسارعون في الخيرات من الأعمال وهم سابقون إليها أي يتسابقون فيها لأن ذلك لازم كون كل منهم مريداً للسبق إليها .

فقد بين في الآيات أن الخيرات هي الأعمال الصالحة المبتنية على الاعتقاد الحق الذي عند هؤلاء المؤمنين وهم يسارعون فيها وليست الخيرات ما عند أولئك الكفار وهم يعدونها بحسبانهم مسارعة من الله سبحانه لهم في الخيرات .

قال في التفسير الكبير : وفيه يعني قوله : ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ وجهان :

أحدهما : أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاحترام .

والثاني : أنهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام كما قال : ﴿فأتاهم

الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴿وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا أَجْرَهُ وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمُنَّ الصَّالِحِينَ﴾ لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين . انتهى .

أقول : إن الذي نفي عن الكفار في الآية المتقدمة هو مسارعة الله للكفار في الخيرات والذي أثبت للمؤمنين في هذه الآية هو مسارعة المؤمنين في الخيرات ، والذي وجهه في هذه الوجه أن مسارعته في الخيرات مسارعة من الله سبحانه بوجه فيبقى عليه أن يبين الوجه في وضع مسارعته في الآية موضع مسارعة تعالى وتبديلها منها ، ووجهه بعضهم بأن تغيير الأسلوب للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ، وهو كما ترى .

والظاهر أن هذا التبديل إنما هو في قوله في الآية المتقدمة : ﴿نَسَارِعْ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمراد بيان أنهم يحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين خيرات يتسارعون إليها لكرامتهم وهم كافرون لكن لما كان ذلك بإعطاء من الله تعالى لا بقدرتهم عليها من أنفسهم نسبت المسارعة إليه تعالى ثم نفيت بالاستفهام الإنكاري ، وأثبت ما يقابله على الأصل للمؤمنين .

فمحصل هذا النفي والإثبات أن المال والبنين ليست خيرات يتسارعون إليها ولا هم مسارعون إلى الخيرات بل الأعمال الصالحة وآثارها الحسنة هي الخيرات والمؤمنون هم المسارعون إلى الخيرات .

قوله تعالى : ﴿وَلَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الذي يعطيه السياق أن في الآية ترغيباً وتحضيضاً على ما ذكره من صفات المؤمنين ودفعاً لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبس بها أمر سهل في وسع النفوس وليس بذاك الصعب الشاق الذي يستوعره المترفون ، والثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح ولا ينسى أجرهم الجزيل .

فقوله : ﴿وَلَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ نفي للتكليف الحرجي الخارج عن وسع النفوس أما في الاعتقاد فإنه تعالى نصب حججاً ظاهرة وآيات باهرة تدل على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف وجهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها ويصدق بها وهو العقل ثم راعى حال العقول في اختلافها من جهة قوة الإدراك وضعفه فأراد من كل ما يناسب مقدار تحمله وطوقه فلم يرد من العامة ما يريد من الخاصة ولم يسأل الأبرار

عما سأل عنه المقربين ولا ساق المستضعفين بما ساق به المخلصين .

وأما في العمل فإنما ندب الإنسان منه إلى ما فيه خيره في حياته الفردية والاجتماعية الدنيوية وسعادته في حياته الآخروية ، ومن المعلوم أن خير كل نوع من الأنواع ومنها الإنسان إنما يكون فيما يتم به حياته وينتفع به في عيشته وهو مجهز بما يقوى على إتيانه وعمله ، وما هذا شأنه لا يكون حرجياً خارجاً عن الوسع والطاقة .

فلا تكليف حرجياً في دين الله بمعنى الحكم الحرجي في تشريعه مبنياً على مصلحة حرجية ، وبذلك امتن الله سبحانه على عباده ، وطيب نفوسهم ورغبهم إلى ما وصفه من حال المؤمنين .

والآية ﴿ولا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ تدل على ذلك وزيادة فإنها تدل على نفي التكليف المبني على الحرج في أصل تشريعه كتشريع الرهبانية والتقرب بذبح الأولاد مثلاً ، ونفي التكليف الذي هو في نفسه غير حرجي لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجياً لخصوصية في المورد كالقيام في الصلاة للمريض الذي لا يستطيعه فالجميع منفي بالآية وإن كان الامتنان والترغيب المذكوران يتمان بنفي القسم الأول .

والدليل عليه في الآية تعلق نفي التكليف بقوله : ﴿نفساً﴾ وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، وعليه فأى نفس مفروضة في أي حادثة لا تكلف إلا وسعها ولا يتعلق بها حكم حرجي سواء كان حرجياً من أصله أو صار حرجياً في خصوص المورد .

وقد ظهر أن في الآية إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول ورفعاً للحرج سواء كان في أصل الحكم أو طارئاً عليه .

وقوله : ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ ترغيب لهم بتطيب نفوسهم بأن عملهم لا يضيع وأجرهم لا يتخلف والمراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعراباً لا لبس فيه وذلك لأن أعمالهم مثبتة في كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة والنقيصة والتحريف ، والحساب مبني على ما أثبت فيه كما يشير إليه قوله : ﴿ينطق﴾ والجزاء مبني على ما يستتج من الحساب كما يشير إليه قوله : ﴿وهم لا يظلمون﴾ فهم في أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره

كما أنهم في أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير .

قال الرازي في التفسير الكبير فإن قيل : هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه فإن أحالوه عليه فإنهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد ، وإن جوزه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجوزهم أنه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب .

قلنا : يفعل الله ما يشاء ، وعلى أنه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة . انتهى .

أقول : والذي أجاب به مبني على مسلكه من نفي الغرض عن فعله تعالى وتجوز الإرادة الجزافية تعالى عن ذلك ، والإشكال مطرد في سائر شؤون يوم القيامة التي أخبر الله سبحانه بها كالحشر والجمع وإشهاد الشهود ونشر الكتب والدواوين والصراط والميزان والحساب .

والجواب عن ذلك كله : أنه تعالى مثل لنا ما يجري على الإنسان يوم القيامة في صورة القضاء والحكم الفصل ، ولا غنى للقضاء بما أنه قضاء عن الاستناد إلى الحجج والبيئات كالكتب والشهود والأمارات والجمع بين المتخاصمين ولا يتم دون ذلك البتة .

نعم لو أغمضنا النظر عن ذلك كان ظهور أعمال الإنسان له في مراحل رجوعه إلى الله سبحانه بإذنه ، فافهمه .

قوله تعالى : ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ المناسب لسياق الآيات أن يكون ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما وصفته الآيات السابقة من حال المؤمنين ومسارعهم في الخيرات ، ويمكن أن يكون إشارة إلى القرآن كما يؤيده قوله بعد : ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ والغمرة الغفلة الشديدة أو الجهل الشديد الذي غمرهم ، وقوله : ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ الخ ، أي من غير ما وصفناه من حال المؤمنين وهو كناية عن أن لهم شاغلاً يشغلهم عن هذه الخيرات والأعمال الصالحة وهو الأعمال الرديئة الخبيثة التي هم لها عاملون .

المعنى : بل الكفار في غفلة شديدة أو جهل شديد عن هذا الذي وصفنا به المؤمنين

ولهم أعمال رديئة خبيثة من دون ذلك هم لها عاملون في شاغلهم ومانعتهم .

قوله تعالى : ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ الجؤر - بضم الجيم - صوت الوحش كالظباء ونحوها عند الفرع كني به عن رفعهم الصوت بالاستغاثة والتضرع ، وقيل : المراد به ضجَّتْهم وجزعهم والآيات التالية تؤيد المعنى الأول .

وإنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلاً بقوله : ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبني﴾ وهم الرؤساء المتنعمون منهم وغيرهم تابعون لهم .

قوله تعالى : ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ العدول عن سياق الغيبة إلى الخطاب لتشديد التوبيخ والتقريع ولقطع طمعهم في النجاة بسبب الاستغاثة وأي رجاء وأمل لهم فيها فإن إخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعاة لا يقطع طمعهم في النصر كما يقطعه إخبار من إليه النصر نفسه .

قوله تعالى : ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ إلى قوله ﴿تهجرون﴾ النكوص : الرجوع القهقري ، والسامر من السمر وهو التحديث بالليل ، قيل : السامر كالحاضر يطلق على المفرد والجمع ، وقرئ ﴿سَمَرًا﴾ - بضم السين وتشديد الميم ، جمع سامر وهو أرجح ، وقرئ أيضاً ﴿سَمَارًا﴾ - بالضم والتشديد - ، والهجر : الهذيان .

والفصل في قوله : ﴿قد كانت آياتي﴾ الخ ، لكونه في مقام التعليل ، والمعنى : إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتي تتلى وتُقرأ عليكم فكنتم تعرضون عنها وترجعون على أعقابكم القهقري مستكبرين بنكوصكم تحدثون في أمره في الليل تهجرون وتهذون ، وقيل : ضمير ﴿به﴾ عائد إلى البيت أو الحرم وهو كما ترى .

قوله تعالى : ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ شروع في قطع أعدائهم في الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم وعدم استجابتهم للدعوة الحقة التي قام بها النبي ﷺ .

فقوله : ﴿أفلم يدبروا القول﴾ الاستفهام فيه للإنكار واللام في ﴿القول﴾ للعهد والمراد به القرآن المتلو عليهم ، والكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم في غفلة منه وشغل يشغلهم عنه ، والمعنى : هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه حق من عند الله فيؤمنوا به .

قوله : ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَمْ﴾ فيه وفيما بعده منقطة في معنى الإضراب ، والمعنى : بل أجاءهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعاً ينكر ويحترز منه .

وكون الشيء بدعاً محدثاً لا يعرفه السابقون وإن لم يستلزم كونه باطلاً غير حق على نحو الكلية لكن الرسالة الإلهية لما كانت لغرض الهداية لو صحت وجبت في حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجة قاطعة على بطلانها .

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مَنكَرُونَ﴾ المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبة وحسبه وبالجملته بسجاياه الروحية وملكاته النفسية من اكتسابية وموروثة حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيد من عند الله وقد عرفوا من النبي ﷺ سوابق حاله قبل البعثة ، وقد كان يتيماً فاقداً للأبوين لم يقرأ ولم يكتب ولم يأخذ أدباً من مؤدب ولا تربية من مرب ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأي ولا طمعاً في ملك أو حرصاً على مال أو ولعاً بجاه ، وهو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادي للفلاح والسعادة ويندب إلى حقائق معارف تبهر العقول ويدعو إلى شريعة تحيّر الألباب ويتلو كتاباً .

فهم قد عرفوا رسولهم ﷺ بنعوته الخاصة المعجزة لغيره ، ولو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذراً في إعراضهم عن دينه واستنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه ، ومن المعلوم أن إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل .

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وهذا عذر آخر لهم تشبثوا به إذ قالوا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(١) ذكره ورده بلازم قوله : ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ .

فمدلول قوله : ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ إضراب عن جملة محذوفة والتقدير إنهم كاذبون في قولهم : ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ واعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون .

ولازمه رد قولهم بحجة يلوح إليها هذا الإضراب ، وهي أن قولهم : ﴿بِهِ

جنة ﴿ لو كان حقاً كان كلامه مختلّ التنظيم غير مستقيم المعنى مدخولاً فيه كما هو مدخول في عقله ، غير رام إلى مرمى صحيح ، ولكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا إلى حق ، ولا يأتي إلا بحق ، وأين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريد ولا يشعر بما يقول .

وإنما نسب الكراهة إلى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبؤ بهم أرادوا أو كرهوا .

قوله تعالى : ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون وإنما يكرهون الحق لمخالفته هواءهم فهم يريدون من الحق أي الدعوة الحقّة أن يتبع أهواءهم وهذا مما لا يكون البتة .

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا وما يهوونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام واتخذوا الأرباب ونفوا الرسالة والمعاد واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء والمنكر والفساد جاز أن يتبعهم الحق في غير ذلك من الخليفة والنظام الذي يجري فيها بالحق إذ ليس بين الحق والحق فرق فاعطي كل منهم ما يشتهي من جريان النظام وفيه فساد السماوات والأرض ومن فيهن واختلال النظام وانتقاض القوانين الكلية الجارية في الكون فمن البين أن الهوى لا يقف سدى حد ولا يستقر على قرار .

وبتقرير آخر أدق وأوفق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدين القيم أن الإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون العام وله في نوعيته غاية هي سعادته وقد خط له طريق إلى سعادته وكماله ينالها بسطي الطريق المنصوب إليها نظير غيره من الأنواع الموجودة ، وقد جهّزه الكون العام وخلقته الخاصة به من القوى والآلات بما يناسب سعادته والطريق المنصوب إليها وهي الاعتقاد والعمل اللذان ينتهيان به إلى سعادته .

فالتريق التي تنتهي بالإنسان إلى سعادته أعني الاعتقادات والأعمال الخاصة المتوسطة بينه وبين سعادته وهي التي تسمى الدين وسنة الحياة متعينة حسب اقتضاء النظام العام الكوني والنظام الخاص الإنساني الذي نسميه الفطرة وتابعة لذلك .

وهذا هو الذي يشير تعالى إليه بقوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(١) .

فسنة الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانية طريقة متعينة يقتضيها النظام بالحق وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحق ، وهذا الحق هو القوانين الثابتة غير المتغيرة التي تحكم في النظام الكوني الذي أحد أجزائه النظام الإنساني وتدبره وتسوقه إلى غاياته وهو الذي قضى به الله سبحانه فكان حتماً مقضياً .

فلو اتبع الحق أهواءهم فافتضى لهم من الشرع ما تجاوزف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلا بتغير أجزاء الكون عما هي عليه وتبدل العلل والأسباب غيرها وتغير الروابط المنتظمة إلى روابط جزافية مختلفة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم ، وفي ذلك فساد السماوات والأرض ومن فيهن في أنفسها والتدبير الجاري فيها لأن كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متميزين ، والخلق والأمر متصلان غير منفصلين .

وهذا هو الذي يشير إليه قوله : ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ .

وقوله : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا ريب أن المراد بالذكر هو القرآن كما قال : ﴿وهذا ذكر مبارك﴾^(٢) ، وقال : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات ، ولعل التعبير عنه بالذكر بعد قوله : ﴿أم يقولون به جنة﴾ نوع مقابلة لقولهم : ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾^(٤) .

وكيف كان فقد سمي ذكراً لأنه يذكرهم بالله أو يذكر لهم دين الله من الاعتقاد الحق والعمل الصالح ، والثاني أوفق لصدر الآية بما تقدم من معناه ، وإنما أضيف إليهم لأن الدين أعني الدعوة الحققة مختلفة بالنسبة إلى الناس بالإجمال والتفصيل والذي يذكره القرآن آخر مراحل التفصيل لكون شريعته آخر الشرائع .

والمعنى : لم يتبع الحق أهواءهم بل جئناهم بكتاب يذكرهم - أو يذكرون به - دينهم الذي يختص بهم ويتفرع عليه أنهم عن دينهم الخاص بهم معرضون .

(٣) الزخرف : ٤٤ .

(٤) الحجر : ٦ .

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) الأنبياء : ٥٠ .

وقال كثير منهم إن إضافة الذكر إليهم للتشريف نظير قوله : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾^(١) ، والمعنى : بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال فهم بما فعلوه من النكوص عن فخرهم وشرفهم أنفسهم معرضون .

وفيه أنه لا ريب في أن القرآن الكريم شرف للنبي ﷺ إذ أنزل عليه ولأهل بيته إذ نزل في بيتهم ، وللعرب إذ نزل بلغتهم وللامة إذ نزل لهدايتهم غير أن الإضافة في الآية ليست لهذه العناية بل لعناية اختصاص هذا الدين بهذه الأمة وهو الأوفق لصدر الآية بالمعنى الذي تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : ﴿أم تسألهم خرجا فخرج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ ، قال في مجمع البيان : أصل الخراج والخرج واحد وهو الغلة التي يخرج على سبيل الوظيفة انتهى .

وهذا رابع الأعذار التي ذكرت في هذه الآيات وردت ووبخوا عليها وقد ذكره الله بقوله : ﴿أم تسألهم خرجا﴾ أي مالا يدفعونه إليك على سبيل الرسم والوظيفة ثم ذكر غنى النبي ﷺ بقوله : ﴿فخرج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ أي إن الله هو رازقك ولا حاجة لك إلى خرجهم ، وقد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك في الآيات ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾^(٢) (٣) .

وقد تمت بما ذكر في الآية أربعة من الأعذار المردودة إليهم وهي مختلفة فأولها ﴿أفلم يدبروا القول﴾ راجع إلى القرآن والثاني ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ إلى الدين الذي إليه الدعوة ، والثالث ﴿أم يقولون به جنة﴾ إلى نفس النبي ﷺ ، والرابع ﴿أم تسألهم خرجا﴾ إلى سيرته .

قوله تعالى : ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ النكب والنكوب العدول عن الطريق والميل عن الشيء .

قد تقدم في تفسير سورة الفاتحة أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا يختلف ولا يتخلف في حكمه وهو إيصاله سالكيه إلى الغاية المقصودة ،

وهذه صفة الحق فإن الحق واحد لا يختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع ولا يتخلف في مطلوبه الذي يهدي إليه فالحق صراط مستقيم ، وإذ ذكر أن النبي ﷺ يهدي إلى الحق كان لازمه هذا الذي ذكره أنه يهدي إلى صراط مستقيم .

ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أي الصراط المستقيم مائلون إلى غيره .

وإنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخرة واقتصر عليه لأن دين الحق مبني على أساس أن للإنسان حياة خالدة لا تبطل بالموت وله فيها سعادة يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحق والعمل الصالح وشقاوة يجب أن تجتنب ، وهؤلاء لنفيهم الحياة الآخرة يعدلون عن الحق والصراط المستقيم .

وبتقرير آخر : دين الحق مجموع تكاليف اعتقادية وعملية والتكليف لا يتم إلا بحساب وجزاء ، وقد عين لذلك يوم القيامة ، وإذ لا يؤمن هؤلاء بالآخرة لغى الدين عندهم فلا يرون من الحياة إلا الحياة المادية ولا يبقى من السعادة عندهم إلا نيل اللذائذ المادية وهو التمتع بالبطن فما دونه ، ولازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه .

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو إلى صراط مستقيم وهم لا هم لهم إلا العدول والميل عنه .

قوله تعالى : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ إلى قوله ﴿وما يتضرعون﴾ اللجاج التماذي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه ، والعمه التردد في الأمر من التحير ، ذكرهما الراغب ، وفي المجمع : الاستكانة الخضوع وهو استفعال من الكون ، والمعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع . انتهى .

وقوله : ﴿ولو رحمناهم﴾ بيان وتأيد لنكوبهم عن الصراط بأننا لو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابلة ذلك الشكر بل أصروا على تمردهم عن الحق وتمادوا يترددون في طغيانهم فلا ينفعهم رحمة بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب ونقمة فإننا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم وما يتضرعون إليه فهؤلاء لا ينفعهم ولا يركبهم صراط الحق لا رحمة بكشف الضر ولا نقمة وتخويف بالأخذ بالعذاب .

والمراد بالعذاب العذاب الخفيف الذي لا يقطع به الإنسان عن عامة الأسباب بقرينة ما في الآية التالية فلا يرد أن الرجوع إلى الله تعالى عند الاضطراب والانقطاع عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره في القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا ولا يتضرعوا ؟ .

وقوله في الآية الأولى : ﴿ ما بهم من ضر ﴾ وفي الثانية : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ يدل على أن الكلام ناظر إلى عذاب قد وقع ولما يرتفع حين نزول الآيات ، ومن المحتمل أنه الجذب الذي ابتلي به أهل مكة وقد ورد ذكر منه في الروايات .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمة ولا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد وهو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة - على ما يعطيه سياق الآيات وخاصة الآيات الآتية - فيفاجئهم الإبلas واليأس من كل خير .

وقد ختم هذا الفصل من الكلام أعني قوله : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ الخ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعني قوله : ﴿ أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين ﴾ إلى آخر الآيات وهو ذكر عذاب الآخرة ، وسيعود إليه ثانياً .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ والذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ إلى قوله ﴿ يؤتون ما آتوا ﴾ قال : من العبادة والطاعة .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قال : قلت : يا رسول الله قول الله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجل ﴾ أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه .

وفي المجمع في قوله : ﴿ وقلوبهم وجل ﴾ قال أبو عبد الله عليه السلام : معناه خائفة أن لا يقبل منهم ، وفي رواية أخرى : أتى وهو خائف راج .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ قال ذكر لنا أنها نزلت في الذين قتل الله يوم بدر .

أقول : وروى مثله عن النسائي عن ابن عباس ولفظه قال : هم أهل بدر ، وسياق الآيات لا ينطبق على مضمون الروایتين .

وفيه أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر بالدم فأنزل الله : ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ .

أقول : والروايات في هذا المعنى مختلفة وما أوردناه أعدها وهي تشير إلى جذب وقع بمكة وحواليها بدعوة النبي ﷺ ، وظاهر أكثرها أنه كان بعد الهجرة ، ولا يوافق ذلك الاعتبار .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ قال : الحق رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ .

أقول : هو من البطن بالمعنى الذي تقدم في بحث المحكم والمتشابه ونظيره ما أورده في قوله : ﴿وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ قال : إلى ولاية أمير المؤمنين ﷺ ، وكذا ما أورده في قوله : ﴿عن الصراط لناكبون﴾ قال : عن الإمام لحادون .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله : ﴿أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ يقول : أم تسألهم أجراً فأجر ربك خير .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ فقال : الاستكانة هي الخضوع ، والتضرع رفع اليدين والتضرع بهما .

وفي المجمع وروى عن مقاتل بن حيان عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين ﷺ قال : قال النبي ﷺ : رفع الأيدي من الاستكانة : قلت : وما

الاستكانة ؟ قال : أما تقرأ هذه الآية : ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ ؟ أوردته الثعلبي والواحد في تفسيريهما .

وفيه قال أبو عبد الله عليه السلام : الاستكانة الدعاء ، والتضرع رفع اليدين في الصلاة .

وفي الدر المنثور أخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿وما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا لو خضعوا لله لاستجاب لهم .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾ قال أبو جعفر عليه السلام هو في الرجعة .

* * *

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السِّيْئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) .

(بيان)

لما أوعدهم بعذاب شديد لا مردُّ له ولا مخلص منه ، وردَّ عليهم كل عذر يمكنهم أن يعتذروا به ، وبَيَّن أن السبب الوحيد لكفرهم بالله واليوم الآخر هو اتباع الهوى وكراهة اتباع الحق ، تَمَّ البيان بإقامة الحجة على توحيده في الربوبية وعلى رجوع الخلق إليه بذكر آيات بيِّنة لا سبيل للإنكار إليها .

وعقَّب ذلك بأمر النبي ﷺ أن يستعيد به من أن يشمله العذاب الذي أوعدوا به ، وأن يعوذ به من همزات الشيطان وأن يحضروه كما فعلوا بهم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خصَّ بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء وإبداعاً لا عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر .

وبحصول هذين الحسَّين يقف الوجود المجهز بهما موقفاً جديداً ويتسع مجال فعاليته بالنسبة إلى ما هو محروم منهما اتساعاً لا يتقدر بقدر فيدرك خيره وشره ونافعه وضارّه ويعطي معهما الحركة الإرادية إلى ما يريدّه وعمّا يكرهه ، ويستقر في عالم حديث طري فيه مجالي الجمال واللذة والعزة والغلبة والمحبة ممّا لا خبر عنه فيما قبله .

ولنّما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر - قيل - لأن الاستدلال يتوقف عليهما ويتم بهما .

ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة خاصة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجودية جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالاً من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواس فيتسع به أولاً شعاع عمل الحواس مما كان عليه في عامة الحيوان بما لا يتقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وما حضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج .

ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية ، ويغور متفكراً في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية ، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض .

ففي ذلك كله من عجب التدبير الإلهي بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة ما لا يسع الإنسان أن يستوفي شكره .

وقوله : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ فيه بعض العتاب ومعناه تشكرون شكراً قليلاً فقوله : ﴿ قليلاً ﴾ وصف للمفعول المطلق قائم مقامه .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴾ قال الراغب : الذرأ إظهار الله تعالى ما أبداه يقال : ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم . وقال : الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها . انتهى .

فالمعنى : أنه لما جعلكم ذوي حس وعقل أظهر وجودكم في الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم ويرجعكم إلى لقائه .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ معنى الآية ظاهر ، وقوله : ﴿ وهو الذي يحيي ويميت ﴾ مترتب بحسب المعنى على الجملة التي قبله أي لما جعلكم ذوي علم وأظهر وجودكم في الأرض إلى حين حتى تحشروا إليه لزمتم ذلك سنة الإحياء والإماتة إذ العلم متوقف على الحياة والحشر متوقف على الموت .

وقوله : ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ مترتب على ما قبله فإن الحياة ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان وورود الليل بعد النهار والنهار بعد الليل حتى ينقضي العمر ويحل الأجل المكتوب ، هذا لو أريد باختلاف الليل والنهار وورود الواحد

منها بعد الواحد ، ولو أريد به اختلافهما في الطول والقصر كانت فيه إشارة إلى إيجاد فصول السنة الأربعة المتفرعة على طول الليل والنهار وقصرهما وبذلك يتم أمر أرزاق الحيوان وتدبير معاشها كما قال : ﴿وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾^(١) .

فمضامين الآيات الثلاث مترتبة مستتعبة بعضها بعضاً فإنشاء السمع والبصر والفؤاد وهو الحس والعقل للإنسان يستتبع حياة متعلقة بالمادة وسكوناً في الأرض إلى حين ، ثم الرجوع إلى الله ، وهو يستتبع حياة وموتاً ، وذلك يستتبع عمراً متقضياً بانقضاء الزمان ورزقاً يرتزق به .

فالآيات الثلاث تتضمن الإشارة إلى دور كامل من تدبير أمر الإنسان من حين يخلق إلى أن يرجع إلى ربه ، والله سبحانه هو مالك خلقه فهو مالك تدبير أمره لأن هذا التدبير تدبير تكويني لا يفارق الخلق والإيجاد ولا ينحاز عنه ، وهو نظام الفعل والانفعال الجاري بين الأشياء بما بينها من الروابط المختلفة المفعولة بالتكوين فالله سبحانه هو ربهم المدبر لأمرهم وإليه يحشرون ، وقوله : ﴿أفلا تعقلون﴾ توبيخ لهم وحث على التنبيه بالإيمان .

قوله تعالى : ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ إضراب عن نفي سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدم أي لم يعقلوا بل قالوا كذا وكذا .

وفي تشبيه قولهم بقول الأولين إشارة إلى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق وأوقعهم فيما لا يبقى معه للدين جدوى وهو نفي المعاد ، والإخلاص إلى الأرض والانغمار في الماديات سنة جارية فيهم في آخريهم وأوليهم .

قوله تعالى : ﴿قالوا إذا متنا وكنا تراباً وعظماً إنا لمبعوثون﴾ بيان لقوله : ﴿قالوا﴾ في الآية السابقة والكلام مبني على الاستبعاد .

قوله تعالى : ﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ الأساطير الأباطيل والأحاديث الخرافية وهي جمع أسطورة كأكاذيب جمع أكذوبة وأعاجيب جمع أعجوبة وإطلاق الأساطير وهو جمع على البعث وهو مفرد بعناية أنه مجموع عدات كل واحد منها أسطورة كالأحياء والجمع والحشر والحساب

والجنة والنار وغيرها ، والإشارة بهذا إلى حديث البعث وقوله : من قبل ، متعلق بقوله : ﴿وعدنا﴾ على ما يعطيه سياق الجملة .

والمعنى : أن وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن وآباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافية وضعها ونظمها الأناسي الأولون في صورة إحياء الأموات وحساب الأعمال والجنة والنار والثواب والعقاب .

والدليل على كونها أساطير أن الأنبياء من قديم الدهر لا يزالون يعدوننا ويخوفوننا بقيام الساعة ولو كان حقاً غير خرافي لوقع .

ومن هنا يظهر أولاً أن قولهم : «من قبل» لتمهيد الحجة على قولهم بعده ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ .

وثانياً : أن الكلام مسوق للترقي فالآية السابقة : ﴿إذا كنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون﴾ مبنية على الاستبعاد وهذه الآية متضمنة للإنكار مبنياً على حجة واهية .

قوله تعالى : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع في الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك والربوبية والسلطنة ، ووجه الكلام إلى الوثنيين المنكرين للبعث وهم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم ورب الأرباب والآلهة المعبودون دونه من خلقه ، ولذا أخذ وجوده تعالى مسلماً في ضمن الحجة .

فقوله : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ أمر للنبي ﷺ أن يسألهم عن مالك الأرض ومن فيها من أولي العقل من هو؟ ومعلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقي الذي هو قيام وجود شيء بشيء بحيث لا يستقل الشيء المملوك عن مالكه بأي وجه فرض دون الملك الاعتباري الذي وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحة الاجتماع وهو يقبل الصحة والفساد ويقع مورداً للبيع والشراء ، وذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحة جميع التصرفات التكوينية وملاكها الملك التكويني الحقيقي دون التشريعي الاعتباري .

قوله تعالى : ﴿سيقولون لله قل أفلا تذكرون﴾ إخبار عن جوابهم وهو أن الأرض ومن فيها مملوكة لله ، ولا مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعلة الموجدة لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول

بها قياماً لا يستقلّ عنها بوجه من الوجوه ، والعلة الموجدة للأرض ومن فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين .

وقوله : ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم تذكرهم بالحجة الدالة على إمكان البعث ، والمعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض ومن فيها لم لا تتذكرون أن له - لمكان مالكيته - أن يتصرف في أهلها بالإحياء بعد الإماتة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أمره ثانياً أن يسألهم عن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم من هو ؟

والمراد بالعرش هو المقام الذي يجتمع فيه أزمنة الأمور ويصدر عنه كل تدبير ، وتكرار لفظ الرب في قوله : ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ للإشارة إلى أهمية أمره ورفعة محله كما وصفه الله بالعظمة ، وقد تقدم البحث عنه في تفسير سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب .

ذكروا أن قولنا : لمن السماوات السبع وقولنا : من رب السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال : لمن الدار ومن رب الدار فقوله تعالى : ﴿ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ؟ ﴾ سؤال عن مالكتها ، ولذا حكى الجواب عنهم بقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ على المعنى ولو أنه أجيب عنه فقيل : « الله » كما في القراءة الأخرى كان جواباً على اللفظ .

وفيه أن الذي ثبت في اللغة أن رب الشيء هو مالكه المدبّر لأمره بالتصرف فيه فيكون الربوبية أخص من الملك ، ولو كان الرب مرادفاً للمالك لم يستقم ترتب الجواب على السؤال في الآيتين السابقتين ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ إلى قوله ﴿ سَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ إذ كان معنى السؤال : من رب الأرض ومن فيها ، ومن المعلوم أنهم كانوا قائلين بربوبية آلهتهم من دون الله للأرض ومن فيها فكان جوابهم إثبات الربوبية لآلهتهم من غير أن يكونوا ملزمين بتصديق ذلك لله سبحانه وهذا بخلاف السؤال عن مالك الأرض ومن فيها فإن الجواب عنه تصديقه لله لأنهم كانوا يرون الإيجاد لله والملك لازم الإيجاد فكانوا ملزمين بالاعتراف به .

ثم على تقدير كون الرب أخص من المالك يمكن أن يتوهم توجه الإشكال إلى ترتب الجواب على السؤال في الآية المبحوث عنها ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ﴾

إلى قوله ﴿سيقولون لله﴾ فإن جلّ الوثنيين من الصابئين وغيرهم يرون للسموات وما فيها من الشمس والقمر وغيرهما آلهة دون الله فلو أجابوا عن السؤال عن رب السموات أجابوا بإثبات الربوبية لآلهتهم دون الله فلا يستقيم قوله : ﴿سيقولون لله﴾ إذ لا ملزم يلزمهم على الاعتراف به .

والذي يحسم أصل الإشكال أن البحث العميق عن معتقدات القوم يعطي أنهم لم يكونوا يبنون آراءهم في أمر الآلهة على أصل أو أصول منظمة مسلمة عند الجميع فأمثال الصابئين والبرهمنيين والبوذيين كانوا يقسمون أمور العالم إلى أنواع وأقسام كأمر السماء والأرض وأنواع الحيوان والنبات والبر والبحر وغير ذلك ويشتون لكل منها إلهاً دون الله يعبدونه من دون الله ويعتونه شفيعاً مقرباً ثم يتخذون له صنماً يمثله .

وأما عامتهم من الهمجيين كأعراب الجاهلية والقاطنين في أطراف المعمورة فلم يكن معتقداتهم في ذلك مبنية على قواعد مضبوطة وربما كانوا يرون للمعمورة من الأرض وسكانها آلهة دون الله لها أصنام وربما رأوا نفس الأصنام المصنوعة آلهة ، وأما السموات والسمويات وكذا البحار فكانوا يرونها مربوبة لله سبحانه والله ربها كما يلوح إليه قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى﴾^(١) ، فإن ظاهره أنه كان يرى أن الذي يدعو إليه موسى - وهو الله تعالى - إله السماء وبالجملّة السموات وما فيهن ومن فيهن من الملائكة عندهم مربوبون لله سبحانه ثم الملائكة أرباب لما دون السموات .

وأما الصابئون ومن يحذو حذوهم فإنهم - كما سمعت - يرون للسموات وما فيهن من النجوم والكواكب آلهة وأرباباً من دون الله وهم الملائكة والجن وهم يرون الملائكة والجن موجودات مجردة عن المادة طاهرة عن لوث الطبيعة ، وحينما يعدّونهم ساكنين في السموات فإنما يريدون باطن هذا العلم وهو العلم السماوي العلوي الذي فيه تقدر الأمور ومنه ينزل القضاء وبه تستمد الأسباب الطبيعية ، وهو بما فيه من الملائكة وغيرهم مربوب لله سبحانه وإن كان من فيه آلهة للعالم الحسّي وأرباباً لمن فيه والله رب الأرباب .

إذا تمهدت هذه المقدمة فنقول : إن كان وجه الكلام في الآية الكريمة إلى

مشركي العرب كما هو الظاهر ، كان السؤال عن رب السماوات السبع والجواب عنه باعترافهم أنه الله في محله كما عرفت .

وإن كان وجه الكلام إلى غيرهم ممن يرى للسماء إلهاً دون الله كان المراد بالسماء العالم السماوي بسكنته من الملائكة والجن دون السماوات المادية ، ويؤيده مقارنته بالسؤال عن رب العرش العظيم فإن العرش مقام صدور الأحكام المتعلقة بمطلق الخلق الذي منهم أربابهم وآلهتهم ، ومن المعلوم أن لا رب لمقام هذا شأنه إلا الله إذ لا يفوقه شيء دونه .

وهذا العالم العلوي هو عندهم عالم الأرباب والآلهة لا رب له إلا الله سبحانه فالسؤال عن ربه والجواب عنه باعترافهم أنه الله في محله كما أشير إليه .

فمعنى الآية - والله أعلم - قل : من رب السماوات السبع التي منها تنزل أقدار الأمور وأقضيتها ورب العرش العظيم الذي منه يصدر الأحكام لعامة ما في العالم من الملائكة فمن دونهم ؟ فإنهم وما يملكونهم باعتقادكم مملوكة لله وهو الذي ملكهم ما ملكوه .

قوله تعالى : ﴿سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾ حكاية لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع والعرش العظيم لله سبحانه .

والمعنى : سيجيبونك بأنها لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً : فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر والعرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث وتعدونه من أساطير الأولين وتسخرون من أنبيائه الذين وعدوكم به ؟ فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات وإنشاء النشأة الآخرة للإنسان وينزل الأمر به من السماء .

ومن لطيف تعبير الآية التعبير بقوله : ﴿لله﴾ فإن الحجة تتم بالملك وإن لم يعترفوا بالربوبية .

قوله تعالى : ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾ الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة والحكم ، ويفيد مبالغة في معناه والفرق بين الملك بالفتح والكسر وبين المالك أن المالك هو الذي يملك المال والملك يملك المالك وماله ، فله ملك في طول ملك وله التصرف بالحكم في المال ومالكة .

وقد فسر تعالى ملكوته بقوله : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾^(١) ، فملكوت كل شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمة كن وبعبارة أخرى وجوده عن إيجاده تعالى .

فكون ملكوت كل شيء بيده كناية استعارية عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال : ﴿الله خالق كل شيء﴾^(٢) ، فملكه تعالى محيط بكل شيء ونفوذ أمره ومضي حكمه ثابت على كل شيء .

ولما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك ونفوذ الأمر لا ينافي إخلال بعض ما أوجده من الأسباب والعلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عما يريده تتم قوله : ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ بقوله : ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ وهو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه ولو بالمنع والإخلال والاعتراض فله الملك وله الحكم .

وقوله : ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ من الجوار ، وهو في أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقاً وهو حماية الجار لجاره عن يقصده بسوء لكرامة الجار على الجار بقرب الدار واشتق منه الأفعال يقال : استجاره فأجاره أي سأل الحماية فحماه أي منع عنه من يقصده بسوء .

وهذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطية حدوثاً أو بقاء إلا وهو يحفظه على ما يريد وبمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع - لو فرض - إنما هو بإذن منه ومشية فليس منعاً له تعالى بل منعاً منه وتحديداً لفعل منه بفعل آخر ، وما من سبب من الأسباب يفعل فعلاً إلا وله تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريده لأنه تعالى هو الذي ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه .

فالمراد بقوله : ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ أنه يمنع السوء عن قصد به ولا يمنعه شيء إذا أراد شيئاً بسوء عما أراد .

ومعنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث : من الذي يختص به إيجاد كل شيء بما له من الخواص والآثار وهو يحمي من استجار به ولا يحمي عنه شيء إذا أراد شيئاً بسوء ؟ إن كنتم تعلمون .

قوله تعالى : ﴿سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ قيل : إن المراد بالسحر أن يخيل الشيء للإنسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعارة أو الكناية .

والمعنى : سيجيبونك أن الملكوت لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً : فإلى متى يخيل لكم الحق باطلاً فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأة الآخرة ويعيد الأموات للحساب والجزاء بأمر يأمره وهو قوله : ﴿كن﴾ .

واعلم أن الاحتجاجات الثلاثة كما ثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحيده تعالى في الربوبية فإن الملك الحقيقي لا يتخلف عن جواز التصرفات ، والمالك المتصرف هو الرب .

قوله تعالى : ﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ إضراب عن النفي المفهوم من الحجج التي أقيمت في الآيات السابقة ، والمعنى فإذا كانت الحجج المبنية تدل على البعث وهم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلاً بل جثاهم بلسان الرسل بالحق وإنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم ونفيهم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ الخ ، القول بالولد كان شائعاً بين الوثنيين يعدّون الملائكة أو بعضهم وبعض الجن وبعض القديسين من البشر أولاداً لله سبحانه وتبعهم النصارى في قولهم : المسيح ابن الله ، وهذا النوع من الولادة والبنوة مبني على اشتمال الابن على شيء من حقيقة اللاهوت وجوهره وانفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلهاً مولوداً من إله .

وأما البنوة الإدعائية بالتبني وهو أخذ ولد الغير ابناً لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شيء من حقيقة الأب كقول اليهود نحن أبناء الله وأحباءه ، وليس الولد بهذا المعنى مراداً لأن الكلام مسوق لنفي تعدّد الآلهة ، ولا يستلزم هذا النوع من البنوة الوهية وإن كان التسمي والتسمية بها ممنوعاً .

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شيء بنحو التبعض والاشتقاق يكون مشتملاً بنحو على شيء من حقيقة الموجد لا تسمية شيء موجوداً بنا وولداً لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم .

والولد - كما عرفت - أخص مصداقاً عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد

عندهم فقوله : ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ ترقى من نفي الأخص إلى نفي الأعم ولفظة «من» في الجملتين زائدة للتأكيد .

وقوله : ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾ حجة على نفي التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا بينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد في معنى الوهيتها وربوبيتها ، ومعنى ربوبية الإله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه حتى إلى من فوض إليه الأمر ، ومن البين أيضاً أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان .

ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير وتنقطع رابطة الاتحاد والاتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها وكل منها عن كل منها ، وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهن ، ووحدة النظام الكوني والثام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذبه .

وهذا هو المراد بقوله : ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾ أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يترشح منه من التدبير .

وقوله : ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ محذور آخر لازم لتعدد الآلهة تتألف منه حجة أخرى على النفي ، بيانه أن التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضية كالتدبيرين الجارين في البر والبحر والتدبيرين الجارين في الماء والنار ، ومنها التدابير الطولية التي تنقسم إلى تدبير عام كلي حاكم وتدبير خاص جزئي محكوم كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه ، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء ، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية .

فبعض التدبير وهو التدبير العام الكلي يعلو بعضاً بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقومه بما فوقه ، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنساني ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص .

ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عال من التدبير عالياً بالنسبة إلى الإله الذي فوض إليه من التدبير ما هو دونه وأخص منه وأخس واستعلاء الإله على الإله محال .

لا لأن الاستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوباً لغيره أو ناقصاً في قدرته محتاجاً في تمامه إلى غيره أو محدوداً والمحدودية تفضي إلى التركيب ، وكل ذلك من لوازم الإمكان المنافي لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف - كما قرره المفسرون - فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون الله وجوب الوجود بل هي عندهم موجودات ممكنة عالية فوض إليهم تدبير أمر ما دونها ، وهي مربوبة لله سبحانه وأرباب لما دونها والله سبحانه رب الأرباب وإله الآلهة وهو الواجب الوجود بالذات وحده .

بل استحالة الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه في تدبيره وتأثيره إذ لا يجمع توقف التدبير على الغير والحاجة إليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمداً في تأثيره محتاجاً فيه إلى العالي فيكون سبباً من الأسباب التي يتوسل بها إلى تدبير ما دونه لا إلهاً مستقلاً بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلهاً غير إله بل سبباً يدبر به الأمر هذا خلف .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية ، وللمفسرين في تقرير حجة الآية مسالك مختلفة يبتني جميعها على استلزام تعدد الآلهة أموراً تستلزم إمكانها وتنافي كونها واجبة الوجود فيلزم الخلف ، والقوم لا يقولون في شيء من آلهتهم من دون الله بوجوب الوجود ، وقد أفرط بعضهم فقرر الآية بوجوده مؤلفة من مقدمات لا إشارة في الآية إلى جلتها ولا إيهام ، وفرط آخرون فصرحوا بأن الملازمة المذكورة في الآية عادية لا عقلية ، والدليل إقناعي لا قطعي .

ثم لا يشتبهن عليك أمر قوله : ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ حيث نسب الخلقة إليها وقد تقدم أنهم قائلون بإله التدبير دون الإيجاد وذلك لأن بعض الخلق من التدبير فإن خلق جزئي من الجزئيات مما يتم بوجوده النظام الكلي من التدبير بالنسبة إلى النظام الجاري فالخلق بمعنى الفعل والتدبير مختلطان وقد نسب الخلق إلى أعمالنا كما في قوله : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾^(١) ، وقوله : ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾^(٢) .

فالقوم يرون أن كلاً من الآلهة خالق لما دونه أي فاعل له كما يفعل الواحد منا أفعاله ، وأما إعطاء الوجود للأشياء فمما يختص بالله سبحانه وحده لا يرتاب فيه موحد

ولا وثني إلا بعض من لم يفرق بين الفعل والإيجاد من المتكلمين .

وقد ختم الآية بالتنزيه بقوله : ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ .

قوله تعالى : ﴿عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ صفة لاسم الجلالة في قوله : ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ وتأخيرها للدلالة على علمه بتنزيهه عن وصفهم إياه بالشركة - على ما يعطيه السياق - فيكون في معنى قوله : ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(١) .

ويرجع في الحقيقة إلى الاحتجاج على نفي الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكاً كما أن قوله : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾^(٢) احتجاج بالشهادة على نفي أصل الوجود .

وقيل : إنه برهان آخر راجع إلى إثبات العلو أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلو لأن المتعدين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور . انتهى .

وفيه أن ذلك كسائر ما قرره من البراهين ينفي تعدد الإله الواجب الوجود بالذات ، والوثنيون لا يلتزمون في آلهتهم من دون الله بذلك . على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع .

وقوله : ﴿فتعالى عما يشركون﴾ تفريع على جميع ما تقدم من الحجج على نفي الشركاء .

قوله تعالى : ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ لما فرغ من نقل ما تفوهوا به من الشرك بالله وإنكار البعث والاستهزاء بالرسل وأقام الحجج على إثبات حقيقتها رجع إلى ما تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه ﷺ أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذي أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب .

فقوله : ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ أمر بالدعاء والاستغاثة ، وتكرار «رب» لتأكيد التضرع وما في قوله : ﴿إما تريني﴾ زائدة وهي المصححة لدخول نون التأكيد على الشرط وأصله : إن ترني . وفي قوله : ﴿ما يوعدون﴾ دلالة على أن

(٢) آل عمران : ١٨ .

(١) يونس : ١٨ .

بعض ما تقدم في السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوي . وما في قوله : ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له .

قوله تعالى : ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ تطيب لنفس النبي ﷺ بقدرة ربه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب ، ولعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر وقد أراه الله ذلك وأراه المؤمنين وشفى به غليل صدورهم .

قوله تعالى : ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ أي ادفع السيئة التي تتوجه إليك منهم بالحسنة واختر للدفع من الحسنات أحسنها ، وهو دفع السيئة بالحسنة التي هي أحسن مثل أنه لو أساءوا إليك بالإيذاء أحسن إليهم بغاية ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان في الجملة ولو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم .

وقوله : ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ نوع تسلية للنبي ﷺ أن لا يسوءه ما يلقاه ولا يحزنه ما يشاهد من تجريهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون .

قوله تعالى : ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ ، قال في مجمع البيان : الهمزة شدة الدفع ، ومنه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع ، وهمزة الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصي انتهى . وفي تفسير القمي عنه عليه السلام : أنه ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين .

وفي الآيتين أمره ﷺ أن يستعيز بربه من إغواء الشياطين ومن أن يحضروه ، وفيه إيهام إلى أن ما ابتلي به المشركون من الشرك والتكذيب من همزات الشياطين وإحاطتهم بهم بالحضور .

* * *

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ

إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) .

(بيان)

الآيات تفصل القول في عذاب الآخرة التي أوعدهم الله بها في طي الآيات السابقة وهو من يوم الموت إلى يوم البعث ثم إلى الأبد ، وتذكر أن الحياة الدنيا التي

غرّتهم وصرفتهم عن الآخرة قليلة لو كانوا يعلمون . ثم تختتم السورة بأمره عليه السلام أن تسأله ما حكاه عن عباده المؤمنين الفائزين في الآخرة ﴿رَبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وقد افتتحت السورة بأنهم مفلحون وارثون للجنة .

قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ «حتى» متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه وشركهم به ، والآيات المتخللة اعتراض في الكلام أي لا يزالون يشركون به ويصفونه بما هو منزّه منه وهم مغترون بما نمدهم به من مال وبنين حتى إذا جاء أحدهم الموت .

وقوله : ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و«رَبِّ» استغاثة معترضة بحذف حرف النداء والمعنى قال - وهو يستغيث بربه - ارْجِعُون .

وقيل : إن الخطاب للرب تعالى والجمع للتعظيم كقول امرأة فرعون له على ما حكاه الله : ﴿قَرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ .

وقيل : هو من جمع الفعل ويفيد تعدد الخطاب ، والمعنى رَبِّ ارْجِعْنِي ارْجِعْنِي ارْجِعْنِي كما قيل في قوله :

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل
أي قف قف نبك .

وفي الوجهين أن الجمع للتعظيم إن صحَّ ثبوته في اللغة العربية فهو شاذ لا يحمل عليه كلامه تعالى ، وأشدُّ منه جمع الفعل بالمعنى الذي ذكر .

قوله تعالى : ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ «لعل» للترجّي وهو رجاء تعلقوا به بمعاينة العذاب المشرف عليهم كما ربما ذكروا الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم : ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾^(١) ، وربما ذكروه بلفظ التمني كقولهم : ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذِبُ بآيَاتِ رَبِّنَا﴾^(٢) .

وقوله : ﴿أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي أعمل عملاً صالحاً فيما تركت من المال بإنفاقه في البرّ والإحسان وكل ما فيه رضى الله سبحانه .

وقيل : المراد بما تركت الدنيا التي تركها بالموت والعمل الصالح أعم من العبادات المالية وغيرها من صلاة وصوم وحج ونحوها ، وهو حسن غير أن الأول هو الأظهر .

وقوله : ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ أي لا يرجع إلى الدنيا إن هذه الكلمة ﴿ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ كلمة هو قائلها أي لا أثر لها إلا أنها كلمة هو قائلها ، فهو كناية عن عدم إجابة مسأله .

قوله تعالى : ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ البرزخ هو الحاجز بين الشيتين كما في قوله : ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾^(١) ، والمراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطاً بهم وسمي وراءهم بعناية أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان ويقال : وراءك يوم كذا بعناية أن الزمان يطلب الإنسان ليمر عليه وهذا معنى قول بعضهم : إن في «وراء» معنى الإحاطة ، قال تعالى : ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾^(٢) .

والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة على ما يعطيه السياق وتدل عليه آيات أخر وتكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام وكذا من طرق أهل السنة ، وقد تقدم البحث عنه في الجزء الأول من الكتاب .

وقيل : المراد بالآية أن بينهم وبين الدنيا حاجزاً يمنعهم من الرجوع إليها إلى يوم القيامة ومعلوم أن لا رجوع بعد القيامة ففيه تأكيد لعدم رجوعهم وإيأس لهم من الرجوع إليها من أصله .

وفيه أن ظاهر السياق الدلالة على استقرار الحاجز بين الدنيا وبين يوم يبعثون لا بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، ولو كان المراد أن الموت حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا لغى التقييد بقوله : ﴿إلى يوم يبعثون﴾ لا لدلالته من طريق المفهوم على رجوعهم بعد البعث إلى الدنيا ولا رجوع بعد البعث بل للغوية أصل التقييد وإن فرض أنهم كانوا يعلمون من الخارج أو من آيات سابقة أن لا رجوع بعد القيامة .

على أن قولهم : إنه تأكيد لعدم الرجوع بإيثارهم من الرجوع مطلقاً مع قولهم بأن عدم الرجوع بعد القيامة معلوم من خارج كالمتهافتين بل يرجع المعنى إلى تأكيد نفي الرجوع مطلقاً المفهوم من «كلا» بنفي الرجوع الموقت المحدود بقوله : ﴿إلى يوم يبعثون﴾ فافهمه .

قوله تعالى : ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ المراد به النفخة الثانية التي تحيا فيها الأموات دون النفخة الأولى التي تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب والتساؤل وثقل الميزان وخفته إلى غير ذلك من آثار النفخة الثانية .

وقوله : ﴿فلا أنساب بينهم﴾ نفي لآثار الأنساب بنفي أصلها فإن الذي يستوجب حفظ الأنساب واعتبارها هي الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان إلى الحياة الاجتماعية التي تبني على تكون البيت ، والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاقد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية ويوم القيامة ظرف جزاء الأعمال وسقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بلوازمها وخواصها وآثارها .

وقوله : ﴿ولا يتساءلون﴾ ذكر لأظهر آثار الأنساب ، وهو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض ، للإعانة والاستعانة في الحوائج لجلب المنافع ودفع المضار .

ولا ينافي الآية ما وقع في مواضع أخر من قوله تعالى : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾^(١) ، فإنه حكاية تساؤل أهل الجنة بعد دخولها وتساؤل أهل النار بعد دخولها وهذه الآية تنفي التساؤل في ظرف الحساب والقضاء .

قوله تعالى : ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ إلى آخر الآيتين . الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون وهو العمل الذي يوزن يومئذ ، وقد تقدم الكلام في معنى الميزان وثقله وخفته في تفسير سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالخون﴾ قال في المجمع : اللفح والنفح بمعنى إلا أن اللفح أشد تأثيراً وأعظم من النفح ، وهو ضرب من

السموم للوجه والنفخ ضرب الريح الوجه ، والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان . انتهى .

والمعنى : يصيب وجوههم لهب النار حتى تتقلص شفاههم وتنكشف عن أسنانهم كالرؤوس المشوية .

قوله تعالى : ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ الخ أي يقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون .

قوله تعالى : ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾ الشقوة والشقاوة والشقاء خلاف السعادة ، وسعادة الشيء ما يختص به من الخير ، وشقاوته فقد ذلك وإن شئت فقل : ما يختص به من الشر .

وقوله : ﴿غلبت علينا شقوتنا﴾ أي قهرنا واستولت علينا شقوتنا ، وفي إضافة الشقوة إلى أنفسهم تلويح إلى أن لهم صنعا في شقوتهم من جهة اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم ، والدليل عليه قولهم بعد : ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ إذ هو وعد منهم بالحسنات ولو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختياري لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساوية لما قبل الخروج .

وقد عدوا أنفسهم مغلوبة للشقوة فقد أخذوها ساذجة في ذواتها صالحة للحقوق السعادة والشقاوة غير أن الشقوة غلبت فأشغلت المحل وكانت الشقوة شقوة أنفسهم أي شقوة لازمة لسوء اختيارهم وسيات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالية عن السعادة والشقوة لذاتها فانتساب الشقوة إلى أنفسهم وارتباطها بها إنما هي من جهة سوء اختيارهم وسيات أعمالهم .

وبالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحجة ولحقوق الشقوة على ما يشهد به وقوع الآية بعد قوله : ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ الخ .

ثم عقبوا قولهم : ﴿غلبت علينا شقوتنا﴾ بقولهم : ﴿وكنا قوماً ضالين﴾ تأكيداً لاعترافهم ، وإنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به إلى التخلص من العذاب والرجوع إلى الدنيا لكسب السعادة فقد شاهدوا في الدنيا أن اعتراف العاصي المتمرد بذنبه وظلمه توبة منه مطهرة له تنجيه من تبعه الذنب وهم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل والتوبة والاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم

يكذبون يومئذ وينكرون أشياء مع ظهور الحق ومعايته لاستقرار ملكة الكذب والإنكار في نفوسهم ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾^(١) . وقال : ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ سؤال منهم للرجوع إلى الدنيا على ما تدل عليه آيات آخر فهو من قبيل طلب المسبب بطلب سببه ، ومرادهم أن يعملوا صالحاً بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب وعمل صالحاً .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ قال الراغب : خسأت الكلب فخساً أي زجرته مستهيناً به فانزجر وذلك إذا قلت له : اخساً انتهى . ففي الكلام استعارة بالكناية ، والمراد زجرهم بالتباعد وقطع الكلام .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا وكان إيمانهم توبة ورجوعاً إلى الله كما سماه الله في كلامه توبة ، وكان سؤالهم شمول الرحمة - وهي الرحمة الخاصة بالمؤمنين البتة - سؤالاً منهم أن يوفقهم للسعادة فيعملوا صالحاً فيدخلوا الجنة ، وقد توسلوا إليه باسمه خير الراحمين .

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وإنما الفرق بينهما من حيث الموقف .

قوله تعالى : ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ضمائر الخطاب للكفار وضمائر الغيبة للمؤمنين ، والسياق يشهد أن المراد من «ذكرى» قول المؤمنين : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ الخ ، وهو معنى قول الكفار في النار .

وقوله : ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي أنسى اشتغالكم بسخريّة المؤمنين والضحك منهم ذكرى ، ففي نسبة الإنساء إلى المؤمنين دون سخريتهم إشارة إلى

أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلا أن يتخذوهم سخرى .

قوله تعالى : ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ المراد باليوم يوم الجزاء ، ومتعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أي صبروا على ذكرى مع سخريتكم منهم لأجله ، وقوله : ﴿أنهم هم الفائزون﴾ مسوق للحصر أي هم الفائزون دونكم .

وهذه الآيات الأربع ﴿قال اخشوا﴾ إلى قوله ﴿هم الفائزون﴾ إياها قطعي للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب وسؤال الرجوع إلى الدنيا ومحصلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول وهو الاعتراف والسؤال فإنه عمل إنما كان ينفع في دار العمل وهي الدنيا ، وقد كان المؤمنون من عبادي يتخذونه وسيلة إلى الفوز وكنتم تسخرون وتضحكون منهم حتى تركتموه وبدلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم وهو يوم جزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل وبقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم وهو يوم الجزاء دون العمل .

قوله تعالى : ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ مما يسأل الله الناس عنه يوم القيامة مدة لبثهم في الأرض وقد ذكر في مواضع من كلامه والمراد به السؤال عن مدة لبثهم في القبور كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾^(١) ، وقوله : ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾^(٢) وغيرهما من الآيات ، فلا محل لقول بعضهم : إن المراد به المكث في الدنيا ، واحتمال بعضهم أنه مجموع اللبث في الدنيا والبرزخ .

قوله تعالى : ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ ظاهر السياق أن المراد باليوم هو الواحد من أيام الدنيا وقد استقلوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الأبدي الذي يلوح لهم يوم القيامة ويعاينونه .

ويؤيده ما وقع في موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة ، وفي موضع آخر بعشية أو ضحاها .

وقوله : ﴿فاسأل العادين﴾ أي نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدونه وفسر بالملائكة العادين للأيام وليس ببعيد .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ القائل هو الله سبحانه ، وفي الكلام تصديق لهم في استقلالهم المكث في القبور وفيه توطئة لما يلحق به من قوله : ﴿لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما فيه من التمني .

والمعنى : قال الله : الأمر كما قلتم فما مكثتم إلا قليلاً فليتكم كنتم تعلمون في الدنيا أنكم لا تلبثون في قبوركم إلا قليلاً ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث ولم تبتلوا بهذا العذاب الخالد ، والتمني في كلامه تعالى كالترجي راجع إلى المخاطب أو المقام .

وجعل بعضهم «لو» في الآية شرطية والجملة شرطاً محذوف الجزاء وتكلف في تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم وهو بعيد عن السياق كما هو ظاهر وأبعد منه جعل «لو» وصلية مع أن «لو» الوصلية لا تجيء بغير واو العطف .

قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ إلى قوله ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث في البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب والجزاء وبخهم على حسابهم أنهم لا يبعثون فإن فيه جرأة على الله بنسبة العبث إليه ثم أشار إلى برهان العبث .

فقوله : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ الخ ، معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينة الموت ثم اللبث في القبور ثم البعث فالحساب والجزاء فهل تظنون إنما خلقناكم عبثاً تحيون وتموتون من غير غاية باقية في خلقكم وأنكم إلينا لا ترجعون ؟

وقوله : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ إشارة إلى برهان يثبت البعث ويدفع قولهم بالنفي ، في صورة التنزيه ، فإنه تعالى وصف نفسه في كلمة التنزيه بالأوصاف الأربعة : أنه ملك وأنه حق وأنه لا إله إلا هو وأنه رب العرش الكريم .

فله أن يحكم بما شاء من بدء وعود وحياة وموت ورزق نافذاً حكمه ماضياً أمره لملكه ، وما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقاً فإنه حق ولا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون عبثاً باطلاً ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يطل به حكمه وصفه بأنه لا إله - أي لا معبود - إلا هو ، والإله معبود لربوبيته فإذا لا إله غيره فهو رب العرش الكريم - عرش العالم - الذي هو مجتمع أزمة الأمور ومنه يصدر الأحكام والأوامر الجارية فيه .

فتلخص أنه هو الذي يصدر عنه كل حكم ويوجد منه كل شيء ولا يحكم إلا بحق ولا يفعل إلا حقاً فللاشياء رجوع إليه وبقاء به وإلا لكانت عبثاً باطلة ولا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع .

والدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجود لغيره .

قوله تعالى : ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ ، المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى ودعاء إله آخر معاً فإن المشركين جلّهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء ، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه .

وقوله : ﴿لا برهان له به﴾ قيد توضيحي لإله آخر إذ لا إله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقاً .

وقوله : ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ كلمة تهديد وفيه قصر حسابه بكونه عند ربه لا يداخله أحد فيما اقتضاه حسابه من جزاء - وهو النار كما صرّحت به الآيات السابقة - فإنه يصيبه لا محالة ، ومرجعه إلى نفي الشفعاء والإيأس من أسباب النجاة وتأممه بقوله : ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ .

قوله تعالى : ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ خاتمة السورة وقد أمر فيها النبي ﷺ أن يقول ما حكاه عن عباده المؤمنين أنهم يقولونه في الدنيا وأن جزاء ذلك هو الفوز يوم القيامة : ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون﴾ الخ^(١) .

وبذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السورة : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وقد تقدم الكلام في معنى الآية .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام : من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم ، وهو قوله تعالى : ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ .

(١) المؤمنون : ١٠٩ ، ١١١ .

أقول : وروي هذا المعنى بطرق أخر غيرها عنه عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد به انطباق الآية على مانع الزكاة لا نزولها فيه .

وفي تفسير القمي : قوله عز وجل : ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ قال : البرزخ هو أمر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة ، وهو قول الصادق عليه السلام : والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ وأما إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم .

أقول : وروي الذيل في الكافي بإسناده عن عمر بن يزيد عنه عليه السلام . وفيه قال علي بن الحسين عليه السلام : إن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

وفي الكافي بإسناده عن أبي ولّاد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش . فقال : لا . المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم .

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال أبو عبد الله عليه السلام : إن أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون : ربنا أقم الساعة لنا ، وأنجز لنا ما وعدتنا ، وألحق آخرنا بأولنا .

وفيه بإسناده أيضاً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تتعارف وتتساءل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان ؟ وما فعل فلان ؟ فإن قالت لهم : تركته حياً ارتجوه ، وإن قالت لهم : قد هلك ، قالوا : قد هوى قد هوى .

أقول : أخبار البرزخ وتفاصيل ما يجري على المؤمنين وغيرهم فيه كثيرة متواترة ، وقد مرّ شطر منها في أبحاث متفرقة مما تقدم .

في مجمع البيان وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي .

أقول : كأن الرواية من طريق الجماعة ، وقد رواها في الدر المشور عن عدة من أصحاب الجوامع عن المسور بن مخرمة عن النبي ﷺ ولفظها : أن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسبي وصهري ، وعن عدة منهم عن عمر بن الخطاب عنه ﷺ ولفظها : كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي وعن ابن عساكر عن ابن عمر عنه ﷺ ولفظها : كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري .

وفي المناقب في حديث طاوس عن زين العابدين عليه السلام : خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً أما سمعت قول الله تعالى : ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون﴾ والله لا ينفك غداً إلا مقدمة تقدمها من عمل صالح .

أقول : سياق الآية كالأبي عن التخصيص ولعل من آثار نسبه ﷺ أن يوفق ذريته من صالح العمل بما ينتفع به يوم القيامة .

وفي تفسير القمي وقوله عز وجل : ﴿تلفح وجوههم النار﴾ قال : تلهب عليهم فتحرقهم ﴿وهم فيها كالحن﴾ أي مفتوح الفم متربدي الوجوه .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ قال : بأعمالهم شقوا .

وفي العلل بإسناده عن مسعدة بن زياد قال : قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : يا أبا عبد الله إنا خلقنا للعجب . قال : وما ذلك الله أنت ؟ قال : خلقنا للفناء . قال : مه يا ابن أخ خلقنا للبقاء وكيف تفتنى جنة لا تبید ونار لا تخمد ؟ ولكن إنما نتحول من دار إلى دار .

وفي تفسير القمي قوله تعالى : ﴿قال كم لبثتم﴾ إلى قوله ﴿فاسأل العادين﴾ قال : سل الملائكة الذين يعدون علينا الأيام ، ويكتبون ساعاتنا وأعمالنا التي اكتسبنا فيها .

وفي الدر المشور أخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال لأهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . قال : لنعم ما

أتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي اسكنوا فيها خالدين مخلدين .

ثم يقول : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول : بشس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين .

أقول : وفي انطباق معنى الحديث على الآية بما لها من السياق وبما يشهد به الآيات النظائر خفاء ، وقد تقدم البحث عن مدلول الآية مستمداً من الشواهد .



سورة النور



مدنية ، وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنْ

غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنَّ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) .

(بيان)

غرض السورة ما ينبيء عنه مفتتحها ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات
بينات لعلكم تذكرون﴾ فهي تذكرة نبذة من الأحكام المفروضة المشرعة ثم جملة من
المعارف الإلهية تناسبها ويتذكر بها المؤمنون .

وهي سورة مدنية بلا خلاف وسياق آياتها يشهد بذلك ومن غرر الآيات فيها آية
النور .

قوله تعالى : ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾
السورة طائفة من الكلام يجمعها غرض واحد سقت لأجله ولذا اعتبرت تارة نفس
الآيات بما لها من المعاني فقليل : ﴿فرضناها﴾ ، وتارة ظرفاً لبعض الآيات ظرفية
المجموع للبعض فقليل : ﴿أنزلنا فيها آيات بينات﴾ وهي مما وضعه القرآن وسمى به
طائفة خاصة من آياته وتكرر استعمالها في كلامه تعالى ، وكأنه مأخوذ من سور البلد
وهو الحائط الذي يحيط به سميت به سورة القرآن لإحاطتها بما فيها من الآيات أو
بالغرض الذي سقت له .

وقال الراغب : الفرض قطع الشيء الصلب والتأثير فيه كفرض الحديد وفرض
الزند والقوس . قال : والفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتباراً بوقوعه وثباته ،
والفرض بقطع الحكم فيه ، قال تعالى : ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ أي أوجبنا العمل
بها عليك . قال : وكل موضع ورد ﴿فرض الله عليه﴾ ففي الإيجاب الذي أدخله الله
فيه ، وما ورد ﴿فرض الله له﴾ فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو ﴿ما كان على النبي
من حرج فيما فرض الله له﴾ . انتهى .

فقوله : ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ أي هذه سورة أنزلناها وأوجبنا العمل بما فيها
من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابي هو الإتيان به وبالحكم التحريمي الانتهاء عنه .
وقوله : ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ المراد بها - بشهادة السياق -

آية النور وما يتلوها من الآيات المبينة لحقيقة الإيمان والكفر والتوحيد والشرك المذكورة لهذه المعارف الإلهية .

قوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ الآية ، الزنا الواقعة من غير عقد أو شبهة عقد أو ملك يمين ، والجلد هو الضرب بالسوط والرافة التحنن والتعطف وقيل : هي رحمة في توجع ، والطائفة في الأصل هي الجماعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان إلى مكان قيل : وربما تطلق على الاثنين وعلى الواحد .

وقوله : ﴿ الزانية والزاني ﴾ الخ ، أي المرأة والرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائة سوط ، وهو حد الزنا بنص الآية غير أنها مخصصة بصور : منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصناً فالرجم ومنها أن يكونا غير حرين أو أحدهما رقاً فنصف الحد .

قيل : وقدمت الزانية في الذكر على الزاني لأن الزنا منهن أشنع ولكون الشهوة فيهن أقوى وأكثر ، والخطاب في الأمر بالجلد متوجه إلى عامة المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوي الولاية من النبي والإمام ومن ينوب منابه .

وقوله : ﴿ ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله ﴾ الخ ، النهي عن الرافة من قبيل النهي عن المسبب بالنهي عن سببه إذ الرافة بمن يستحق نوعاً من العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه وربما أدى إلى تركه ، ولذا قيده بقوله : ﴿ في دين الله ﴾ أي حال كون الرافة أي المساهلة من جهتها في دين الله وشريعته .

وقيل : المراد بدين الله حكم الله كما في قوله تعالى : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ ^(١) أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رافة في إنفاذ حكم الله وإقامة حده .

وقوله : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي إن كنتم كذا وكذا فلا تأخذكم بهما رافة ولا تساهلوا في أمرهما وفيه تأكيد للنهي .

وقوله : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ أي وليحضر ولينظر إلى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشة .

قوله تعالى : ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾ ظاهر الآية وخاصة بالنظر إلى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي وإن كان صدرها وارداً في صورة الخبر فإن المراد النهي تأكيداً للطلب وهو شائع .

والمحصل من معناها بتفسير من السنة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الزاني إذا اشتهر منه الزنا وأقيم عليه الحد ولم تتبين منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية والمشركة ، والزانية إذا اشتهر منها الزنا وأقيم عليها الحد ولم تتبين منها التوبة يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك .

فالآية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ ولا تأويل ، وتقييدها بإقامة الحد وتبين التوبة مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامة الحد يلوح إلى أن المراد به الزاني والزانية المجلودان ، وكذا إطلاق الزاني والزانية على من ابتلي بذلك ثم تاب توبة نصوحاً وتبين منه ذلك ، بعيد من دأب القرآن وأدبه .

وللمفسرين في معنى الآية تشاجرات طويلة وأقوال شتى :

منها : أن الكلام مسوق للإخبار عما من شأن مرتكبي هذه الفاحشة أن يقصدوه وذلك أن من خبث فطرته لا يميل إلا إلى من يشابهه في الخبائة ويجانسه في الفساد والزاني لا يميل إلا إلى الزانية المشاركة لها في الفحشاء ومن هو أفسد منها وهي المشركة ، والزانية كذلك لا تميل إلا إلى مثلها وهو الزاني ومن هو أفسد منه وهو المشرك فالحكم وارد مورد الأعم الأغلب كما قيل في قوله تعالى : ﴿الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات﴾^(١) .

ومنها : أن المراد بالآية التقييح ، والمعنى : أن اللائق بحال الزاني أن لا ينكح إلا زانية أو من هي دونها وهي المشركة واللائق بحال الزانية أن لا ينكحها إلا زان أو من هو دونه وهو المشرك ، والمراد بالنكاح العقد ، وقوله : ﴿وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾ معطوف على أول الآية ، والمراد وحُرِّمَ الزنا على المؤمنين .

وفيه وفي سابقه مخالفتها لسياق الآية وخاصة اتصال ذيلها بصدرها كما تقدمت الإشارة إليه .

ومنها : أن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَأَنكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُم وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ .

وفيه أن النسبة بين الآيتين نسبة العموم والخصوص والعام الوارد بعد الخاص لا ينسخه خلافاً لمن قال به نعم ربما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾^(١) ، بدعوى أن الآية وإن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها آب عن التخصيص فتكون ناسخة بالنسبة إلى جواز النكاح بين المؤمن والمؤمنة والمشرک والمشرکة ، وقد ادّعى بعضهم أن نكاح الكافر للمسلمة كان جائزاً إلى سنة ست من الهجرة ثم نزل التحريم فلعل الآية التي نحن فيها نزلت قبل ذلك ، ونزلت آية التحريم بعدها وفي الآية أقوال آخر تركنا إيرادها لظهور فسادها .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ الخ الرمي معروف ثم استعير لنسبة أمر غير مرضي إلى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف ، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة العفيفة ، والمراد بالإتيان بأربعة شهداء وهم شهود الزنا إقامة الشهادة لإثبات ما قذف به ، وقد أمر الله تعالى بإقامة الحد عليهم إن لم يقيموا الشهادة ، وحكم بفسقهم وعدم قبول شهادتهم أبداً .

والمعنى : والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم وهم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبداً .

والآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر والأنثى والحر والعبد ، وبذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة وهي قوله : ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة إلى قوله : ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ - على ما يعطيه السياق - كان لازم ما تفيد من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبداً ، ولأزم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معاً .

والمعنى : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم ويرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبداً .

وذكر بعضهم : أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف وأصلح بعد إقامة الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبداً خلافاً لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معاً .

والظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسألة الأصولية المعنونة بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعددة هل يتعلق بالجميع أو بالجملة الأخيرة والحق في المسألة أن الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعاً وتعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام ، والذي يعطيه السياق في الآية التي نحن فيها تعلق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقييد الجملة السابقة أيضاً بمعناه كالأخيرة على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهادة ثم يؤدوها إلا أنفسهم ، وقوله : ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ أي شهادة أحدهم يعني القاذف وهو واحد أربع شهادات متعلقة بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف .

ومعنى الآيتين : والذين يقذفون أزواجهم ولم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا - ومن طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفريقهما - فالشهادة التي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرة بعد مرة : «أشهد الله على صدقي فيما أقذفه به» أربع مرات وخامستها أن يشهد ويقول : لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين .

قوله تعالى : ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ إلى آخر الآيتين ، الدرء الدفع

والمراد بالعذاب حد الزنا ، والمعنى أن المرأة إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا ، وشهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسة فتقول : لعنة الله عليّ إن كان من الصادقين ، وهذا هو اللعان الذي يفصل به الزوجان .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ جواب لولا محذوف يدل عليه ما أخذ في شرطه من القيود إذ معناه لولا فضل الله ورحمته وتوبته وحكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات والأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما في الشرط من القيود لولا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين وتوبته لمذنبكم وتشريع الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمّتكم الشقوة ، وأهلكتكم المعصية والخطيئة ، واختلّ نظام حياتكم بالجهالة . والله أعلم .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وسورة النور أنزلت بعد سورة النساء ، وتصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة النساء ﴿ وَاللّٰتِي يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ والسبيل الذي قال الله عز وجل ﴿ سَوْءَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا ﴾ يقول : ضربهما ﴿ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يجمع لهما الناس إذا جلدوا .

وفي التهذيب بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين عليهم السلام في قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : في إقامة الحدود ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : الطائفة واحد .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وأنزل بالمدينة ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ فلم يسم الله الزاني مؤمناً ولا الزانية مؤمنة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس يمتري فيه أهل العلم أنه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص .

وفيه بإسناده عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ قال : هن نساء مشهورات ورجال مشهورون بالزنا شهروا به وعرفوا به ، والناس اليوم بذلك المنزل فمن أقيم عليه حد الزنا أو متهم بالزنا لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه التوبة .

أقول : ورواه أيضاً بإسناده عن أبي الصباح عنه عليه السلام مثله ، وبإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه : هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورين بالزنا فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء ، والناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيئاً من ذلك أقيم عليه الحد فلا تزوجوه حتى تعرفوا توبته .

وفيه بإسناده عن حكيم بن حكيم عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : إنما ذلك في الجهر ثم قال : لو أن إنساناً زنا ثم تاب تزوج حيث شاء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي والحاكم وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه وأبو داود في ناسخه عن عبد الله بن عمر قال : كانت امرأة يقال لها : أم مهزول ، وكانت تسافح الرجل وتشترط أن تنفق عليه فأراد رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأنزل الله : ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ .

أقول : وروى ما يقرب منه عن عدة من أصحاب الجوامع عن مجاهد .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم ، والمدينة غالية السعر شديدة الجهد ، وفي السوق زوان متعالات من أهل الكتاب ، وأما الأنصار منهم أمية وليدة عبد الله بن أبي ونسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار في بغايا من ولائد الأنصار قد رفعت كل امرأة منهن

علامة على بابها ليعرف أنها زانية وكن من أخصب أهل المدينة وأكثره خيرا .

فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسب للذي هم فيه من الجهد فأشار بعضهم على بعض لئلا تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من بعض أطعماتهم فقال بعضهم : نستأمر رسول الله ﷺ فأتوه فقالوا : يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل ، وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائد هن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن ؟ فإذا وجدنا عنهن غنى تركناهن فأنزل الله : ﴿ الزاني لا ينكح ﴾ الآية ، فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالئات زناهن .

أقول : والروايتان إنما تذكران سبب نزول قوله : ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ دون قوله : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ اختلف في هذه الاستثناء إلى ماذا يرجع على قولين : أحدهما أنه يرجع إلى الفسق خاصة دون قوله : ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ﴾ - إلى أن قال - والآخر أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين فإذا تاب قبلت شهادته حد أم لم يحد عن ابن عباس - إلى أن قال - وقول أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : شهد على المغيرة بن شعبة ثلاثة بالزنا ونكل زياد فحدّ عمر الثلاثة ، وقال لهم : توبوا تقبل شهادتكم فتاب رجلان ولم يتب أبو بكر فكان لا تقبل شهادته ، وكان أبو بكر أخا زياد لأمه فلما كان من أمر زياد ما كان حلف أبو بكر أن لا يكلمه أبداً فلم يكلمه حتى مات .

وفي التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا قذف العبد الحر جلد ثمانين . وقال : هذا من حقوق الناس .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ إلى قوله ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ فإنها نزلت في اللعان فكان سبب ذلك أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك جاء إليه عويمر بن ساعدة العجلاني وكان من الأنصار وقال : يا رسول الله إن امرأتي زنى بها شريك بن السمحاء وهي منه حامل فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد عليه القول فأعرض عنه حتى فعل ذلك أربع مرات .

فدخل رسول الله ﷺ منزله فنزلت عليه آية اللعان فخرج رسول الله ﷺ وصلى بالناس العصر ، وقال لعويمر : أثنتي بأهلك فقد أنزل الله عز وجل فيكما قرآناً فجاء إليها وقال لها : رسول الله يدعوك وكانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة فلما دخلت المسجد قال رسول الله ﷺ لعويمر : تقدم إلى المنبر والتعنا فقال : كيف أصنع ؟ فقال : تقدم وقل : أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميتها به فتقدم وقالها ، فقال رسول الله ﷺ : أعداها فأعادها حتى فعل ذلك أربع مرات فقال له في الخامسة : عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به فقال في الخامسة إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به . ثم قال رسول الله ﷺ : إن اللعنة موجبة إن كنت كاذباً .

ثم قال له : تنح فتحنى ثم قال لزوجته : تشهدين كما شهد ، وإلا أقمت عليك حد الله فنظرت في وجوه قومها فقالت : لا أسود هذه الوجوه في هذه العشية فتقدمت إلى المنبر وقالت : أشهد بالله إن عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رماني ، فقال لها رسول الله ﷺ : أعيدوها فأعادتها حتى أعادتها أربع مرات ، فقال لها رسول الله ﷺ : العني نفسك في الخامسة إن كان من الصادقين فيما رماك به ، فقالت في الخامسة إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك إنها موجبة إن كنت كاذبة .

ثم قال رسول الله ﷺ لزوجها : اذهب فلا تحل لك أبداً . قال : يا رسول الله فمالي الذي أعطيتها . قال : إن كنت كاذباً فهو أبعد لك منه ، وإن كنت صادقاً فهو لها بما استحلتت من فرجها . الحديث .

وفي المجمع في رواية عكرمة عن ابن عباس : قال سعد بن عباد لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجها حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لأتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب ، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة .

فقال النبي ﷺ : يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم ؟ فقالوا : لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، ولا طلق امرأة له فاجترى رجل منا أن يتزوجها ، فقال سعد بن عباد : يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إنني

لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك ، فقال : فإن الله يأبى إلا ذلك ، فقال : صدق الله ورسوله .

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له : هلال بن أمية من حديقة له قد رأى رجلاً مع امرأته فلما أصبح غداً إلى رسول الله ﷺ فقال : إني جئت أهلي عشاء فوجدت معها رجلاً رأيت به عيني وسمعت به أذني ، فكره رسول الله ﷺ حتى رئي الكراهة في وجهه فقال هلال : إني لأرى الكراهة في وجهك والله يعلم إني لصادق ، وإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً فهم رسول الله ﷺ بضربه .

قال : واجتمعت الأنصار وقالوا : ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال ويبطل شهادته ؟ فنزل الوحي وأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل فأنزل الله تعالى : ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ الآيات .

فقال ﷺ : أبشريا هلال فإن الله تعالى قد جعل فرجاً فقال : قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى ، فقال ﷺ : أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما فلما انقضى اللعان فرق بينهما وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها .

ثم قال رسول الله ﷺ : إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس .



إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَتْكُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ
أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ
أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ
الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

(بيان)

الآيات تشير إلى حديث الإفك ، وقد روى أهل السنة أن المقدوفة في قصة الإفك هي أم المؤمنين عائشة ، وروت الشيعة أنها مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي ﷺ ، وكل من الحديثين لا يخلو عن شيء على ما سيجيء في البحث الروائي الآتي .

فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعاً غير أن من المسلم أن الإفك المذكور فيها كان راجعاً إلى بعض أهل النبي ﷺ إما زوجه وإما أم ولده وربما لوح إليه قوله تعالى : ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ وكذا ما يستفاد من الآيات أن الحديث كان قد شاع بينهم وأفاضوا فيه وسائر ما يومي إليه من الآيات .

والمستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبي ﷺ بالفحشاء ، وكان الرامون عصبه من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاك ، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث حباً منهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فأنزل الله الآيات ودافع عن نبيه ﷺ .

قوله تعالى : ﴿إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم﴾ الخ ، الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقاً والأصل في معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه كالاعتقاد المصروف عن الحق إلى الباطل - والفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح ، والقول المصروف عن الصدق إلى الكذب ، وقد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني .

وذكر أيضاً أن العصبة جماعة متعصبة متعاضدة ، وقيل : إنها عشرة إلى أربعين .

والخطاب في الآية وما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق ومن في قلبه مرض ، وأما قول بعضهم : إن المخاطب بالخطابات الأربعة الأول أو الثاني والثالث والرابع النبي ﷺ والمقدوفة والمقدوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الأول وهي نيف وعشرون خطاباً أكثرها لعامة المؤمنين بلا ريب .

وأشوأ حالاً منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساء ذلك من المؤمنين فإنه مضافاً إلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة .

والمعنى : إن الذين أتوا بهذا الكذب - واللام في الإفك للعهد - جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض ، وفي ذلك إشارة إلى أن هناك تواطؤاً منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبي ﷺ ويفضحوه بين الناس . وهذا هو فائدة الخبر في قوله : ﴿إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم﴾ لا تسلية النبي ﷺ أو تسليته وتسلية من ساء هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإن السياق لا يساعد عليه .

وقوله : ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾ مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شراً لهم وإثبات كونه خيراً أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيغ والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم وينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم ، وخاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم ويذكرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم ويتفطنوا لما يهتهم .

والدليل على ما ذكرنا قوله بعد : ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم﴾ فإن الإثم هو الأثر السيئ الذي يبقى للإنسان عن اقتراف المعصية فظاهر الجملة أن أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمهم ويتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبي ﷺ .

وأما قول من قال : إن المراد بكونه خيراً لهم أنهم يثابون بما اتهموهم بالإفك كما أن أهل الإفك يتأثمون به فمبني على كون الخطاب للمتهمين خاصة وقد عرفت فساده .

وقوله : ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ فسروا كبره بمعنى معظمه والضمير للإفك ، والمعنى : والذي تولى معظم الإفك وأصرَّ على إذاعته بين الناس من هؤلاء الأفكين له عذاب عظيم .

قوله تعالى : ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً

وقالوا هذا إفاك مبین ﴿ تویخ لهم إذ لم یردوا الحدیث حینما سمعوه ولم یظنوا بمن رمی به خیراً .

وقوله : ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة ، والأصل « ظننتم بأنفسكم » والوجه فی تبذیل الضمیر وصفاً للدلالة علی علة الحكم فإن صفة الإیمان رادعة بالطبع تردع المتلبس بها عن الفحشاء والمنکر فی القول والفعل فعلى المتلبس بها أن یظن علی المتلبسین بها خیراً ، وأن یجتنب القول فیهم بغير علم فإنهم جمیعاً كنفس واحدة فی التلبس بالإیمان ولوازمه وآثاره .

فالمعنى : ولولا إذ سمعتم الإفاك ظننتم بمن رمی به خیراً فإنكم جمیعاً مؤمنون بعضكم من بعض والمرمی به من أنفسكم وعلى المؤمن أن یظن بالمؤمن خیراً ولا یصفه بما لا علم له به .

وقوله : ﴿ قالوا هذا إفاك مبین ﴾ أي قال المؤمنون والمؤمنات وهم السامعون - أي قلم - هذا إفاك مبین لأن الخبر الذی لا علم لمخبره به والدعوى التي لا بینة لمذعیها علیها محكوم شرعاً بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقاً أو كذباً ، والدلیل علیه قوله فی الآية التالية : ﴿ فإذ لم یأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولولا جاؤا علیه بأربعة شهداء فإذ لم یأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ أي لو كانوا صادقین فیما یقولون یرمون لأقاموا علیه الشهادة وهي فی الزنا بأربعة شهداء فإذ لم یأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعاً بالكذب لأن الدعوى من غیر بینة كذب وإفاك .

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله علیکم ورحمته فی الدنيا والآخرة لمسکم فیما أفضتُم فی عذاب عظیم ﴾ إفاضة القوم فی الحدیث خوضهم فیه .

وقوله : ﴿ ولولا فضل الله ﴾ الخ ، عطف علی قوله : ﴿ ولولا إذ سمعتموه ﴾ الخ ، وفیه کرّة ثانية علی المؤمنین ، وفی تقييد الفضل والرحمة بقوله : ﴿ فی الدنيا والآخرة ﴾ دلالة علی كون العذاب المذكور ذیلاً هو عذاب الدنيا والآخرة .

والمعنى : ولولا فضل الله علیکم ورحمته فی الدنيا والآخرة لوصل إلیکم بسبب ما خضتُم فیه من الإفاك عذاب عظیم فی الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ الخ ، الطرف متعلق بقوله : ﴿أَفْضُتُمْ﴾ وتلقي الإنسان القول أخذه القول الذي ألقاه إليه غيره ، وتقييد التلقي باللسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان إلى لسان من غير تثبيت وتدبر فيه .

وعلى هذا فقوله : ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ من قبيل عطف التفسير ، وتقييده أيضاً بقوله : ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن القول لم يكن عن تثبيت وتبين قلبي ولم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعدها .

والمعنى : أفضتكم وخضتكم فيه إذ تأخذونه وتنقلونه لساناً عن لسان وتلفظون بما لا علم لكم به .

وقوله : ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِيناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي تظنون التلقي بألسنتكم والقول بأفواهكم من غير علم سهلاً وهو عند الله عظيم لأنه بهتان وافتراء ، على أن الأمر مرتبط بالنبي ﷺ وشيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم ويفسد أمر الدعوة الدينية .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ عطف بعد عطف على قوله : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الخ ، وفيه كرة ثالثة على المؤمنين بالتوبيخ ، وقوله : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ اعتراض بالتنزيه لله سبحانه وهو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه .

والبهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه وكونه بهتاناً عظيماً لأنه افتراء في عرض وخاصة إذ كان متعلقاً بالنبي ﷺ وإنما كان بهتاناً لكونه إخباراً من غير علم ودعوى من غير بيّنة كما تقدم في قوله : ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لَمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ إلى آخر الآيتين موعظة بالنهي عن العود لمثله ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخر الآية إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك ومتصلة بما تقدمها وموردها الرمي بالزنا بغير بيّنة كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة وإشاعته في

المؤمنين حباً منهم لشيوع الفاحشة .

فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا والقذف وغير ذلك ، وحب شيوعها ومنها القذف في المؤمنين يستوجب عذاباً أليماً لمحبيه في الدنيا والآخرة .

وعلى هذا فلا موجب لحمل العذاب في الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد ، نعم لو كان اللام في ﴿الفاحشة﴾ للعهد والمراد بها القذف وكان حب الشيوع كناية عن قصد الشيوع بالإفاضة والتلقي بالألسن والنقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه .

على أن الرمي بمجرد تحققه مرة موجب للحد ولا موجب لتقييده بقصد الشيوع ولا نكتة تستدعي ذلك .

وقوله : ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ تأكيد وإعظام لما فيه من سخط الله وغضبه وإن جهله الناس .

قوله تعالى : ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ تكراراً للامتنان ومعناه ظاهر .

قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ تقدم تفسير الآية في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ إلى آخر الآية . رجوع بعد رجوع إلى الامتنان بالفضل والرحمة ، لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلقاً بالنبي ﷺ وليس إلا لكرامته على الله سبحانه .

وقد صرح في هذه المرة الثالثة بجواب لولا وهو قوله : ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ وهذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير والسعادة هو الله سبحانه ، والتعليم القرآني أيضاً يعطيه كما قال تعالى : ﴿بيدك الخير﴾^(١) ، وقال : ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ اضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكي من يشاء فالأمر إلى مشيئته ، ولا يشاء إلا تركية من استعد لها وسأله

بلسان استعدادده ذلك ، وإليه يشير قوله : ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لسؤال من سأله التزكية عليم بحال من استعد لها .

قوله تعالى : ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ الخ ، الايتلاء التقصير والترك والحلف ، وكل من المعاني الثلاثة لا يخلو من مناسبة ، والمعنى لا يقصر أولو الفضل منكم والسعة يعني الأغنياء في إيتاء أولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم - وليعفوا عنهم وليصفحوا - ثم حرصهم بقوله : ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ .

وفي الآية - على تقدير نزولها في جملة الآيات واتصالها بها - دلالة على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتيه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك وحثه على إدامة الإيتاء كما سيجيء .

قوله تعالى : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلاً من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلماً والرامي ظالماً والرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم ، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم ، والآية عامة وإن كان سبب نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصاً .

قوله تعالى : ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ .

والمراد بقوله : ﴿بما كانوا يعملون﴾ كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئة - كما قيل - لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيئات والمعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف والكذب والغيبة ونحوها شهدت عليه الألسنة ، وما كان منها من قبيل الأفعال كالسرقة والمشي للنميمة والسعاية وغيرهما شهدت عليه بقية الأعضاء ، وإذا كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي والأرجل اختصت بالذكر .

وبالحقيقة الشاهد على كل فعل هو العضو الذي صدر منه كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾^(١) ، وقوله : ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان مسؤولاً﴾^(٢) ، وقوله : ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾^(٣) ، وسيأتي الكلام على شهادة الأعضاء يوم القيامة في بحث مستقل في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ المراد بالدين الجزاء كما في قوله : ﴿مالك يوم الدين﴾^(٤) ، وتوفية الشيء بذله تاماً كاملاً ، والمعنى : يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحق إتياء تاماً كاملاً ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

هذا بالنظر إلى اتصال الآية بما قبلها ووقوعها في سياق ما تقدمها ، وأما بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف الملة وهو سنة الحياة ، وهو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للإنسان ، ويكون أكثر مناسبة لقوله : ﴿يعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ .

والآية من غرر الآيات القرآنية تفسر معنى معرفة الله فإن قوله : ﴿يعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ ينبيء أنه تعالى هو الحق لا سترت عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبدع البديهيّات التي لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم ، وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين .

وإلى مثله يشير قوله تعالى : ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ الخ ذيل الآية ﴿أولئك مبرؤون مما يقولون﴾ دليل على أن المراد بالخبثات والخبثين والطيبات والطيبين نساء ورجال متلبسون بالخبائث والطيب

(٥) ق : ٢٢ .

(٣) يس : ٦٥ .

(١) حم السجدة : ٢٠ .

(٤) الحمد : ٤ .

(٢) الإسراء : ٣٦ .

فالآية من تمام آيات الإفك متصلة بها مشاركة لها في سياقها ، وهي عامة لا مخصص لها من جهة اللفظ البتة .

فالمراد بالطيب الذي يوجب كونهم مبرئين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات السابقة هو المعنى الذي يقتضيه تلبسهم بالإيمان والإحصان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحصان طيبون وطيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه ، وهم بحكم الإيمان والإحصان مصونون مبرؤون شرعاً من الرمي بغير بينة ، محكومون من جهة إيمانهم بأن لهم مغفرة كما قال تعالى : ﴿وَأَمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾^(١) ولهم رزق كريم ، وهو الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة كما قال : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) .

والمراد بالخبث في الخبيثين والخبيثات وهم غير المؤمنين هو الحال المستقرة التي يوجبها لهم تلبسهم بالكفر وقد خصت خبيثاتهم بخبيثتهم وخبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسة والمسانخة وليسوا بمبرئين عن التلبس بالفحشاء - نعم هذا ليس حكماً بالتلبس - .

فظهر بما تقدم :

أولاً : أن الآية عامة بحسب اللفظ تصف المؤمنين والمؤمنات بالطيب ولا ينافي ذلك اختصاص سبب نزولها وانطباقها عليه .

وثانياً : أنها تدل على كونهم جميعاً محكومين شرعاً بالبراءة عما يرمون به ما لم تقم عليه بينة .

وثالثاً : أنهم محكومون بالمغفرة والرزق الكريم كل ذلك حكم ظاهري لكرامتهم على الله بإيمانهم ، والكفار على خلاف ذلك .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأتيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب وأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل .

فدونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار^(١) قد انقطع فالتصمت عقدي وحبسي ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه علي بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أنني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما تأكل المرأة العلقة^(٢) من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت به فظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي فينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فممت .

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلى^(٣) فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رأي وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمريت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة واحدة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطى على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك في من هلك .

وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي إنما يدخل علي فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف

(١) ظفار كقطم بلد باليمن قرب صنعاء ، وجزع ظفاري منسوب إليها والجزع الخرز وهو الذي فيه سواد وبياض .

(٢) العلقة من الطعام ما يمسك به الرمق .

(٣) أدلى القوم : ساروا الليل كله أو في آخره .

فذاك الذي يريني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصب^(١) وهي متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا .

فانطلقت أنا وأم مسطح فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد أشرعنا^(٢) من ثيابنا فعثرت أم مسطح في مرطها^(٣) فقالت : تعس مسطح فقلت لها : بش ما قلت أتسبين رجلاً شهد بديراً ؟ قالت : إي هنتاه^(٤) أو لم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ - قلت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - قالت : فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت لأبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها فقلت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي .

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله ، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثيرة وإن تسأل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك ؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله .

(١) المناصب : المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة .

(٢) أي رفعنا ثيابنا .

(٣) المرط - بالكسر - كساء واسع يؤثر به وربما تلقى المرأة على رأسها وتلفع به .

(٤) خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناء .

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله أنا أعذرک منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد : كذبت لعمر الله ما تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لنقتله فإنك منافق تجادل المنافقين ، فتشاورا الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالح كبدني .

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء ، فتشهد حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيروك الله ، وإن كنت أَلَمْتَ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص^(١) دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبني عني رسول الله ﷺ ، قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : إني والله لقد علمت

(١) قلص : اجتمع وانقبض .

أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا حيثُ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيأ يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك ، فقالت أُمي : قومي إليه : فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر الآيات كلها .

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله : ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين﴾ إلى قوله ﴿رحيم﴾ قال أبو بكر : والله إني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : فكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً ، قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت اختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

أقول : والرواية مروية بطرق أخرى عن عائشة أيضاً وعن عمر وابن عباس

وأبي هريرة وأبي اليسر الأنصاري وأم رومان أم عائشة وغيرهم وفيها بعض الاختلاف .

وفيها أن الذين جاءوا بالإفك عبد الله بن أبي بن سلول ومسطح بن أثانة وكان بدرياً من السابقين الأولين من المهاجرين ، وحسان بن ثابت ، وحممة اخت زينب زوج النبي ﷺ .

وفيها أن النبي ﷺ دعاهم بعد ما نزلت آيات الإفك فحدّهم جميعاً غير أنه حدّ عبد الله بن أبي حدّين وإنما حدّه حدّين لأنه من قذف زوج النبي ﷺ كان عليه حدّان .

وفي الروايات على تقاربها في سرد القصة إشكال من وجوه :

أحدها : أن المسلم من سياقها أن النبي ﷺ كان في ريب من أمر عائشة بعد تحقق الإفك كما يدل عليه تغير حاله بالنسبة إليها في المعاملة باللطف أيام اشتكائها وبعدها حتى نزلت الآيات ، ويدل عليه قولها له حين نزلت الآيات وبشرها به : بحمد الله لا بحمدك ، وفي بعض الروايات أنها قالت لأبيها وقد أرسله النبي ﷺ ليبشرها بنزول العذر : بحمد الله لا بحمد صاحبك الذي أرسلك ، تريد به النبي ﷺ ، وفي الرواية الأخرى عنها : أن النبي ﷺ لما وعظها أن تتوب إلى الله إن كان منها شيء وفي الباب امرأة جالسة قالت له عائشة : أما تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ، ومن المعلوم أن هذا النوع من الخطاب المبني على الإهانة والإزراء ما كان يصدر عنها لولا أنها وجدت النبي في ريب من أمرها . كل ذلك مضافاً إلى التصريح به في رواية عمر فففيها : «فكان في قلب النبي مما قالوا» .

وبالجملة دلالة عامة الروايات على كون النبي ﷺ في ريب من أمرها إلى نزول العذر مما لا ريب فيه ، وهذا مما يجلب عنه مقامه ﷺ كيف ؟ وهو سبحانه يقول : ﴿لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ فيؤيخ المؤمنين والمؤمنات على إساءتهم الظن وعدم ردّهم ما سمعوه من الإفك فمن لوازم الإيمان حسن الظن بالمؤمنين ، والنبي ﷺ أحق من يتصف بذلك ويتحرّز من سوء الظن الذي من الإثم وله مقام النبوة والعصمة الإلهية .

على أنه تعالى ينص في كلامه على اتصافه ﷺ بذلك إذ يقول : ﴿ومنهم

الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم^(١) .

على أنا نقول : إن تسرّب الفحشاء إلى أهل النبي ينفر القلوب عنه فمن الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوث الزنا والفحشاء وإلا لغت الدعوة وتثبت بهذه الحجة العقلية عفتهم واقعاً لا ظاهراً. فحسب ، والنبي ﷺ أعرف بهذه الحجة منا فكيف جاز له أن يرتاب في أمر أهله برمي من رام أو شيوع من إفك .

وثانيها : أن الذي تدل عليه الروايات أن حديث الإفك كان جارياً بين الناس منذ بدأ به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدهم أكثر من شهر وقد كان حكم القذف مع عدم قيام الشهادة معلوماً وهو جلد القاذف وتبرئة المقذوف شرعاً فما معنى توقف النبي ﷺ عن حد أصحاب الإفك هذه المدة الطويلة وانتظاره الوحي في أمرها حتى يشيع بين الناس وتلقاه الألسن وتسير به الركبان ويتسع الخرق على الراقق ؟ وما أتى به الوحي من العذر لا يزيد على ما تعينه آية القذف من براءة المقذوف حكماً شرعياً ظاهرياً .

فإن قيل : الذي نزل من العذر براءتها واقعاً وطهارة ذيلها في نفس الأمر وهذا أمر لا تكفي له آية حد القاذف ، ولعل صبره ﷺ هذه المدة الطويلة إنما كان لأجله .

قلت : لا دلالة في شيء من هذه الآيات الست عشرة على ذلك ، وإنما تثبت بالحجة العقلية السابقة الدالة على طهارة بيوت الأنبياء من لوثة الفحشاء .

أما الآيات العشر الأولى التي فيها شائبة الاختصاص فأظهرها في الدلالة على براءتها قوله تعالى : ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ وقد استدل فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشهداء ، ومن الواضح أن عدم إقامة الشهادة إنما هو دليل البراءة الظاهرية أعني الحكم الشرعي بالبراءة دون البراءة الواقعية لوضوح عدم الملازمة .

وأما الآيات الست الأخيرة فقوله : ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ الخ

عام من غير مخصص من جهة اللفظ فالذي تثبته من البراءة مشترك فيه بين جميع المقذوفين من غير قيام بينة من المؤمنين والمؤمنات ، ومن الواضح أن البراءة المناسبة لهذا المعنى هي البراءة الشرعية .

والحق أن لا مناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بأن آية القذف لم تكن نازلة قبل حديث الإفك وإنما نزلت بعده ، وإنما كان سبب توقفه عليه السلام خلو الواقعة عن حكم الله بعد فكان ينتظر في أمر الإفك الحكم السماوي .

ومن أوضح الدليل عليه ما في الرواية من استعذار النبي عليه السلام من القاذف في المسجد وقول سعد بن معاذ ما قال ومجادلة سعد بن عبادة إياه واختلاف الأوس والخزرج بمحضر من النبي عليه السلام وفي رواية عمر بعد ما ذكر اختلاف ابن معاذ وابن عبادة : فقال هذا : يا للأوس وقال هذا : يا للخزرج فاضطربوا بالنعال والحجارة فتلاطموا ، الحديث فلو كانت آية القذف نازلة قبل ذلك وحكم الحد معلوماً لم يجب سعد بن معاذ النبي عليه السلام بأنه يعذره منه بالقتل ولقال هو وسائر الناس : يا رسول الله حكم القذف معلوم ويدك مبسوطة .

وثالثها : أنها تصرح بكون أصحاب الإفك هم عبد الله بن أبي ومسطحاً وحساناً وحمنة ثم تذكر أنه عليه السلام حد عبد الله بن أبي حدين وكلاً من مسطح وحسان وحمنة حداً واحداً ، ثم تعلل حدي عبد الله بن أبي بأن من قذف أزواج النبي عليه السلام فعليه حدان ، وهذا تناقض صريح فإنهم جميعاً كانوا قاذفين بلا فرق بينهم .

نعم تذكر الروايات أن عبد الله بن أبي كان هو الذي تولى كبره منهم لكن لم يقل أحد من الأمة أن هذا الوصف يوجب حدين . ولا أن المراد بالعذاب العظيم في قوله : ﴿الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ هو ثبوت حدين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ الآية فإن العامة روت أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة وأما الخاصة فإنهم رَوَوْا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة .

حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن فضال قال : حدثني عبد الله بن بكير عن زرارة قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : لما هلك إبراهيم بن رسول الله عليه السلام حزن عليه حزناً شديداً فقالت عائشة : ما

الذي يحزنك عليه ؟ ما هو إلا ابن جريح ، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وأمره بقتله .

فذهب علي عليه السلام ومعه السيف وكان جريح القبطي في حائط فضرب علي عليه السلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلما رأى علياً عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان فوثب علي عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريح مدبراً فلما خشي أن يرهقه^(١) صعد في نخلة وصعد علي عليه السلام في أثره فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء .

فانصرف علي عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال له : يا رسول الله إذا بعثني في الأمر أكون كالسمار المحمي في الوبر أم أثبت ؟ قال : لا بل تثبت . قال : والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء ، فقال : الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت .

وفيه في رواية عبيد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك كان رسول الله ﷺ أمر بقتل القبطي وقد علم أنها كذبت عليه أو لم يعلم ؟ وقد دفع الله عن القبطي القتل بثببت علي عليه السلام فقال : بل كان والله علم ، ولو كان عزيمة من رسول الله ﷺ ما انصرف علي عليه السلام حتى يقتله ، ولكن إنما فعل رسول الله ﷺ لترجع عن ذنبها فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم .

أقول : وهناك روايات أخر تدل على مشاركة غيرها معها في هذا الرمي ، وجريح هذا كان خادماً خصياً لمارية أهداه معها مقوقس عظيم مصر لرسول الله ﷺ وأرسله معها ليعخدمها .

وهذه الروايات لا تخلو من نظر .

أما أولاً : فلأن ما فيها من القصة لا يقبل الانطباق على الآيات ولا سيما قوله : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ الآية وقوله : ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ الآية ، وقوله : ﴿تلقونه بالاستكم وتقولون أفواهمكم ما

(١) أرهقه : ادركه .

ليس لكم به علم ﴿ الآية ، فمحصل الآيات أنه كان هناك جماعة مرتبط بـ بعضهم ببعض يذيعون الحديث ليفضحوا النبي ﷺ ، وكان الناس يتداولونه لساناً عن لسان حتى شاع بينهم ومكثوا على ذلك زماناً وهم لا يراعون حرمة النبي ﷺ وكرامته من الله ، وأين مضمون هذه الروايات من ذلك .

اللهم إلا أن تكون الروايات قاصرة في شرحها للقصة .

وأما ثانياً : فقد كان مقتضى القصة وظهور براءتها إجراء الحد ولم يجر ، ولا مناص عن هذه الإشكال إلا بالقول بنزول آية القذف بعد قصة الإفك بزمان .

والذي ينبغي أن يقال بالنظر إلى إشكال الحد الوارد على الصنفين من الروايات جميعاً - كما عرفت - أن آيات الإفك نزلت قبل آية حد القذف ، ولم يشرع بنزول آيات الإفك إلا براءة المقذوف مع عدم قيام الشهادة وتحريم القذف .

ولو كان حد القاذف مشروعاً قبل حديث الإفك لم يكن هناك مجوز لتأخير مده معتداً بها وانتظار الوحي ، ولا نجا منه قاذف منهم ، ولو كان مشروعاً مع نزول آيات الإفك لاشير إليه ، ولا أقل باتصال الآيات بآية القذف ، والعارف بأساليب الكلام لا يرتاب في أن قوله : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ الآيات منقطعة عما قبلها .

ولو كان على من قذف أزواج النبي ﷺ حدان لاشير إلى ذلك في خلال آيات الإفك بما فيها من التشديد واللعن والتهديد بالعذاب على القاذفين .

ويتأكد الإشكال على تقدير نزول آية القذف مع نزول آيات الإفك فإن لازمه أن يقع الابتلاء بحكم الحدين فينزل حكم الحد الواحد .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من قال في مؤمن ما رآته عيناه وسمعتة أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل : ﴿ إن الذين يحبون ﴾ إلى قوله ﴿ والآخرة ﴾ .

أقول : ورواه القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عنه عليه السلام والصدوق في الأمالي بإسناده عن ابن أبي عمير عن محمد بن حمران عنه عليه السلام ، والمفيد في الاختصاص عنه عليه السلام مرسل .

وفيه بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : من أذاع فاحشة كان كمتدثها .

وفي المجمع قيل : إن قوله : ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ الآية ، نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثه وكان ابن خالة أبي بكر ، وكان من المهاجرين ومن جملة البدرين وكان فقيراً ، وكان أبو بكر يجري عليه ويقوم بنفقته فلما خاض في الإفك قطعها وحلف أن لا ينفعه بنفع أبداً فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان ، وقال : والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، والله لا أنزعها عنه أبداً . عن ابن عباس وعائشة وابن زيد .

وفيه وقيل : نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم . عن ابن عباس وغيره .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس .

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ وهم قرابة رسول الله ﷺ والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا يقول : يعفو بعضكم عن بعض ، ويصفح بعضكم بعضاً فإذا فعلتم كانت رحمة الله لكم ، يقول الله عز وجل : ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ .

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ونزل بالمدينة ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ .

فبرأه الله ما كان مقيماً في القرية من أن يسمى بالإيمان ، قال الله عز وجل : ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ وجعله من أولياء إبليس قال : ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وجعله ملعوناً فقال : ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب أليم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ .

وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقت عليه كلمة

العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه ، قال الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ ﴾ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية ، قيل في معناه أقوال - إلى أن قال - الثالث الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، عن أبي مسلم والجبائي وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام . قال : هي مثل قوله : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ إلا أن أناساً هموا أن يتزوجوا منهن فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم .

وفي الخصال عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا طاب قلب المرء طاب جسده ، وإذا خبث القلب خبث الجسد .

وفي الاحتجاج عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث له مع معاوية وأصحابه وقد نالوا من علي عليه السلام : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ هم والله يا معاوية أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ إلى آخر الآية ، هم علي بن أبي طالب وأصحابه وشيعته .



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَذْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا

ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَىٰ الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) .

(بيان)

أحكام وشرائع متناسبة ومناسبة لما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ الخ ، الأنس بالشيء وإليه الإلفة وسكون القلب إليه ، والاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدي إليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله والتحنُّح ونحو ذلك ليتنبَّه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعدُّ لذلك فربما كان في حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطلع عليها مطلع .

ومنه يظهر أن مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس والتحفظ على كرامة الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إرادة الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته ، وأعطاه الأمن من نفسه .

ويؤدي الاستمرار على هذا السيرة الجميلة إلى استحكام الأخوة والإلفة والتعاون العام على إظهار الجميل والستر على القبيح وإليه الإشارة بقوله : ﴿ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون﴾ أي لعلكم بالاستمرار على هذه السيرة تتذكرون ما يجب عليكم رعايته وإحياؤه من سنة الأخوة وتآلف القلوب التي تحتها كل سعادة اجتماعية .

وقيل : إن قوله : ﴿لعلكم تذكرون﴾ تعليل لمحذوف والتقدير قيل لكم كذا لعلكم تتذكرون مواعظ الله فتعملوا بموجبها ، ولا بأس به .

وقيل : إن في قوله : ﴿حتى تستأنسوا وتسلموا﴾ تقديمًا وتأخيرًا والأصل حتى تسلموا وتستأنسوا . وهو كما ترى .

قوله تعالى : ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ . الخ ، أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها - وهو الذي يملك الإذن - فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن ، وليس المراد به أن يتطلع على البيت وينظر فيه فإن لم ير فيه أحداً كف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع في الحقيقة عن النظر والإطلاع على عورات الناس .

وهذه الآية تبين حكم دخول بيت الغير وليس فيه من يملك الإذن ، والآية السابقة تبين حكم الدخول وفيه من يملك الإذن ولا يمنع ، وأما دخوله وفيه من يملك الإذن ويمنع ولا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى : ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم﴾ .

قوله تعالى : ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ الخ ، ظاهر السياق كون قوله : ﴿فيها متاع لكم﴾ صفة بعد صفة لقوله : ﴿بيوتاً﴾ لا جملة مستأنفة معللة لقوله : ﴿ليس عليكم جناح﴾ ، والظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع .

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدة لأنواع الاستمتاع وهي غير مسكونة بالطبع

كالخانات والحمامات والأرحية ونحوها فإن كونها موضوعة للاستمتاع إذن عام في دخولها .

وربما قيل : إن المراد بالمتاع المعنى الاسمي وهو الأثاث والأشياء الموضوعة للبيع والشري كما في بيوت التجارة والحوانيت فإنها مأذونة في دخولها إذناً عاماً ولا يخلو من بعد لقصور اللفظ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ أَلَّهِ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ الغضّ إطباق الجفن على الجفن ، والأبصار جمع بصر وهو العضو الناظر ، ومن هنا يظهر أن ﴿ مِنْ ﴾ في ﴿ مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ لا ابتداء الغاية لا مزيدة ولا للجنس ولا للتبعض كما قال بكل قائل ، والمعنى يأتوا بالغضّ آخذاً من أبصارهم .

فقوله : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ لما كان ﴿ يَغُضُّوا ﴾ مترتباً على قوله : ﴿ قُلْ ﴾ ترتب جواب الشرط عليه دلّ ذلك على كون القول بمعنى الأمر والمعنى مرهم يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ والتقدير مرهم بالغضّ إنك إن تأمرهم به يَغُضُّوا ، والآية أمر بغض الأبصار وإن شئت فقل : نهى عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجني والأجنبية لمكان الإطلاق .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ أي ومرهم يحفظوا فروجهم ، والفرجة والفرج الشق بين الشيتين ، وكُنِيَ به عن السواة ، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن المليء أدباً وخلقاً ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب .

والمقابلة بين قوله : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ و ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ يعطي أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا واللواط كما قيل ، وقد ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام أن كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا إلا هذه الآية فهي من النظر .

وعلى هذا يمكن أن تتقيد أولى الجملتين بشانيتها ويكون مدلول الآية هو النهي عن النظر إلى الفروج والأمر بسترها .

ثم أشار إلى وجه المصلحة في الحكم وحثهم على المراقبة في جنبه بقوله : ﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ أَلَّهِ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن﴾ الخ ، الكلام في قوله : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ نظير ما مر في قوله : ﴿وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ فلا يجوز لهن النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه ويجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي والأجنبية .

وأما قوله : ﴿ولا يبدن زيتتهن إلا ما ظهر منها﴾ فالإبداء الإظهار ، والمراد بزيتتهن مواضع الزينة لأن نفس ما يتزين به كالقرط والسوار لا يحرم إبدائها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن .

وقد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر ، وقد وردت الرواية أن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان والقدمان كما سيجيء إن شاء الله .

وقوله : ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ الخمر بضمين جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وينسدل على صدرها ، والجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون وهو معروف والمراد بالجيوب الصدور ، والمعنى وليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها .

وقوله : ﴿ولا يبدن زيتتهن إلا لبعولتهن﴾ إلى قوله ﴿أو بني أخواتهن﴾ البعولة هم أزواجهن ، والطوائف السبع الأخر محارمهن من جهة النسب والسبب ، وأجداد البعولة حكمهم آبائهم وأبناء أبناء البعولة حكمهم الأبناء .

وقوله : ﴿أو نسائهن﴾ في الإضافة إشارة إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء وقد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ إطلاقه يشمل العبيد والإماء ، وقد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله ، وهذا من موارد استعمال ﴿ما﴾ في أولى العقل .

وقوله : ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ الإربة هي الحاجة ، والمراد به الشهوة التي تحوج إلى الأزواج ، و﴿من الرجال﴾ بيان للتابعين ، والمراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال ولا شهوة لهم .

وقوله : ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ أي جماعة الأطفال

- واللام للاستغراق - الذين لم يقووا ولم يظهروا - من الظهور بمعنى الغلبة - على أمور يسوء التصريح بها من النساء ، وهو - كما قيل - كناية عن البلوغ .

وقوله : ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ ذلك بتصوت أسباب الزينة كالخلخال والعقد والقرط والسوار .

وقوله : ﴿وقوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ المراد بالتوبة - على ما يعطيه السياق - الرجوع إليه تعالى بامثال أوامره والانتهاز عن نواهيه وبالجمله اتباع سبيله .

قوله تعالى : ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ الإنكاح التزويج ، والأيامى جمع أيم بفتح الهمزة وكسر الياء المشددة وهو الذكر الذي لا انثى معه والأنثى التي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيمة ، والمراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال .

وقوله : ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ وعد جميل بالغنى وسعة الرزق وقد أكد بقوله : ﴿والله واسع عليم﴾ والرزق يتبع صلاحية المرزوق بمشية من الله سبحانه ، وسيوافيك إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾^(١) كلام في معنى سعة الرزق .

قوله تعالى : ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ الاستعفاف والتعفف قريباً المعنى ، والمراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على المهر والنفقة ، ومعنى الآية الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح والتحرز عن الوقوع في الزنا حتى يغنيه الله من فضله .

قوله تعالى : ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ الخ المراد بالكتاب المكاتبه ، وابتغاء المكاتبه أن يسأل العبد مولاه أن يكاتبه على إيتائه المولى مالاً على أن يعتقه ، وفي الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا فيهم خيراً وهو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك .

وقوله : ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ إشارة إلى إيتائهم مال المكاتبه من

الزكاة المفروضة فسهم من سهام الزكاة لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الرقاب ﴾^(٢) أو إسقاط شيء من مال المكاتبه .

وفي هذه الآية والآيات السابقة مباحث فقهية جمة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ الفتيات الإماء والولائد ، والبغاء الزنا وهو مفاعلة من البغي ، والتحصن والتعفف والازدواج وابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال ، والمعنى ظاهر .

وإنما اشترط النهي عن الإكراه بإرادة التحصن لأن الإكراه لا يتحقق فيمن لا يريد التحصن ، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله : ﴿ ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ ومعناه ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴾ المثل الصفة ، ومن الممكن أن يكون قوله : ﴿ ولقد أنزلنا ﴾ الخ ، حالاً من فاعل قوله : ﴿ توبوا ﴾ في الآية السابقة أو استينافاً والمعنى واقسم لقد أنزلنا إليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به ، وصفة من السابقين أختيارهم وأشرارهم يتميز بها لكم ما ينبغي أن تأخذوا به مما ينبغي لكم أن تجتنبوا ، وموعظة للمتقين منكم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ قال : الاستيناس وقع النعل والتسليم .

أقول : ورواه الصدوق في معاني الأخبار عن محمد بن الحسن مرفوعاً عن عبد الرحمن عنه عليه السلام .

وفي المجمع عن أبي أيوب الأنصاري قال : قلنا : يا رسول الله ما

الاستيناس ؟ قال يتكلم الرجل بالتسيحة والتحميدة والتكبيره ويتنحج على أهل البيت .

وعن سهل بن سعد قال : اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ ومعه مدري^(١) يحك رأسه : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك إنما الاستيذان من النظر .

وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أستأذن على أمي ؟ فقال : نعم . قال : إنها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال الرجل : لا ، قال : فاستأذن عليها .

وروي أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ فتنحج فقال ﷺ لامرأة يقال لها : روضة : قومي إلى هذا فعلميه وقولي له : قل : السلام عليكم أَدْخُل ؟ فسمعها الرجل فقالها فقال : ادخل .

أقول : وروي في الدر المشثور عن جمع من أصحاب الجوامع الرواية الأولى عن أبي أيوب ، والثانية عن سهل بن سعد والرابعة عن عمرو بن سعد الثقفي .

وفي الدر المشثور أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ سئل عن الاستيذان في البيوت فقال : من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فقد عصى الله ولا إذن له .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، قال : معناه وإن لم تجدوا فيها أحداً يأذن لكم فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .

وفيه في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ قال الصادق ﷺ : هي الحمامات والخانات والأرحية تدخلها بغير إذن .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله ﷺ في حديث يذكر فيه ما فرض الله على الجوارح . قال : وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما

حَرَّمَ اللهُ عليه ، وأن يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له وهو عمله وهو من الإيمان .

فقال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ، ويحفظ فرجه أن ينظر إليه ، وقال : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر إليه .

وقال : كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية فهو من النظر .

أقول : وروى القمي في تفسيره ذيل الحديث عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه عليه السلام ، وروي مثله عن أبي العالية وابن زيد .

وفي الكافي بإسناده عن سعد الإسكاف عن أبي جعفر عليه السلام قال : استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن فنظر إليها وهي مقبلة فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سماه بيني فلان ، وجعل ينظر خلفها ، واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره فقال : والله لآتين رسول الله ﷺ ولاخبرته .

قال : فأتاه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له : ما هذا ؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب مثله ، وظاهر الحديث أن المراد بالأمر بالغض في الآية النهي عن مطلق النظر إلى الأجنبية ، كما أن ظاهر بعض الروايات السابقة أنه نهى عن النظر إلى فرج الغير خاصة .

وفيه بإسناده عن مروك بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : ما يحل أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرماً ؟ قال : الوجه والكفان والقدمان .

أقول : ورواه في الخصال عن بعض أصحابنا عنه عليه السلام ولفظه : الوجه والكفين والقدمين .

وفي قرب الأسناد للحميري عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال : سألت عن الرجل ما يصلح له أن ينظر إليه من المرأة التي لا تحل له ؟ قال : الوجه والكف وموضع السوار .

وفي الكافي بإسناده عن عباد بن صهيب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لا بأس بالنظر إلى رؤوس أهل تهامة والأعراب وأهل السواد والعلوج لأنهم إذا نهوا لا ينتهون ^(١) .

قال : والمجنونة والمغلوبة على عقلها ، ولا بأس بالنظر إلى شعرها وجسدها ما لم يعتمد ذلك .

أقول : كأنه عليه السلام يريد بقوله : ما لم يعتمد ذلك ، الريبة .

وفي الخصال وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام : يا علي أول نظرة لك والثانية عليك لا لك .

أقول : وروى مثله في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن بريدة عنه عليه السلام ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي : لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الأخيرة .

وفي جوامع الجامع عن أم سلمة قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده ميمونة فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب فقال : احتجبا ، فقلنا : يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ؟ فقال : أفعميا وان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟

أقول : ورواه في الدر المنثور عن أبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي عنها .

وفي الفقيه وروى حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا ينبغي للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهودية والنصرانية فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن .

(١) رعاية التذكير لاعتبار الأهل والقوم في مرجع الضمير ، وكان الظاهر أن يقال : لأنهم إذا نهين لا

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ وقيل : معناه العبيد والإماء وروى ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال : سألته عن غير أولي الإربة من الرجال . قال : الأحق المولى عليه الذي لا يأتي النساء .

وفيه بإسناده عن محمد بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء ظنه بالله عز وجل إن الله يقول ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

أقول : وفي المعاني السابقة روايات كثيرة جداً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من أرادها فليراجع كتب الحديث .

وفي الفقيه روى العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال : الخير أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفة .

أقول : وفي معناه روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن العلاء بن فضيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال في قوله عز وجل : ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴿ قال : تضع عنه من نجومه التي لم تكن تريد أن تنقصه ، ولا تزيد فوق ما في نفسك . فقلت : كم ؟ فقال : وضع أبو جعفر عليه السلام عن مملوك ألفاً من ستة آلاف .

أقول : وروى في مجمع البيان وكذا في الدر المنثور عن علي عليه السلام ربع المال ، والمستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعيين مقدار معين ذي نسبة .

وقد تقدمت في ذيل قوله : ﴿وفي الرقاب﴾ ^(١) الجزء التاسع من الكتاب رواية العياشي أن المكاتب يؤتى من سهم الرقاب من الزكاة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَاتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ، قال : كانت العرب وقريش يشترون الإماء ويضعون عليهن الضريبة الثقيلة

ويقولون : اذهبن وازنين واكتسبن فنهاهم الله عن ذلك فقال : ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ إلى قوله ﴿غفور رحيم﴾ أي لا يؤاخذهن الله تعالى بذلك إذا أكرهن عليه .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ قيل : إن عبد الله بن أبي كانت له ست جوار يكرهن على الكسب بالزنا ، فلما نزل تحريم الزنا أتى رسول الله ﷺ فشكون إليه فنزلت الآية .

أقول : أما أنه كان له من الجواري من يكرهن على الزنا فقد وردت فيه روايات رواها في الدر المنثور كما روى هذه الرواية ، وأما كون ذلك بعد نزول تحريم الزنا فيضعفه أن الزنا لم يحرم في المدينة بل في مكة قبل الهجرة بل كانت حرمة من ضروريات الإسلام منذ ظهرت الدعوة الحققة ، وقد تقدم في تفسير سورة الأنعام أن حرمة الفواحش ومنها الزنا من الأحكام العامة التي لا تختص بشريعة دون شريعة .

* * *

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا
اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ
وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ
فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمُ
مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ

شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ
كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَاهَا وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَوَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ
يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا
بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى بَاطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ
أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

(بيان)

تتضمن الآيات مقايسة بين المؤمنين بحقيقة الإيمان والكفار ، تميّز المؤمنين
منهم بأن المؤمنين مهديون بأعمالهم الصالحة إلى نور من ربهم يفيدهم معرفة الله
سبحانه ويسلك بهم إلى أحسن الجزاء والفضل من الله تعالى يوم ينكشف عن قلوبهم
وأبصارهم الغطاء ، والكفار لا تسلك بهم أعمالهم إلا إلى سراب لا حقيقة له ، وهم
في ظلمات بعضها فوق بعض ولم يجعل الله لهم نوراً فما لهم من نور .

وقد بين سبحانه هذه الحقيقة بأن له تعالى نوراً عاماً تستنير به السماوات والأرض
فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه ، فمن البين أن ظهور شيء بشيء

يستدعي كون المظهر ظاهراً بنفسه والظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور فهو تعالى نور السماوات والأرض بإشراقه عليها كما أن الأنوار الحسية تظهر الأجسام الكثيفة للحس بإشراقها عليها غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها وظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسية غير أصل وجودها .

ونوراً خاصاً يستنير به المؤمنون ويهتدون إليه بأعمالهم الصالحة وهو نور المعرفة الذي سيستنير به قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار فيهتدون به إلى سعادتهم الخالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا ، ومثل تعالى هذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة يشتعل من زيت في نهاية الصفاء فتتألأ الزجاجة كأنها كوكب دري فتزيد نوراً على نور ، والمصباح موضوع في بيوت العبادة التي يسبح الله فيها رجال من المؤمنين لا تلهيهم عن ذكر ربهم وعبادته تجارة ولا بيع .

فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقب للسعادة الخالدة ، وحرمة على الكافرين وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، فخص من اشتغل بربه وأعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده ، والله يفعل ما يشاء له الملك وإليه المصير يحكم بما أراد ينزل الودق والبرد من سحب واحد ، ويقلب الليل والنهار ، ويجعل من الحيوان من يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع وقد خلق الكل من ماء .

والآيات غير فاقدة للاتصال بما قبلها لما أن بيان الأحكام والشرائع فيما تقدم انتهى إلى مثل قوله : ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ والبيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهي .

على أن الآيات قرآن وقد سمي سبحانه القرآن في مواضع من كلامه نوراً كقوله : ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ إلى آخر الآية . المشكاة على ما ذكره الراغب وغيره : كوة غير نافذة وهي ما يتخذ في جدار البيت من الكؤلوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه وهو غير الفانوس .

والدريُّ : من الكواكب العظيم الكثير النور ، وهو معدود في السماء ، والإيقاد : الإشعال ، والزيت : الدهن المتخذ من الزيتون .

وقوله : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ النور معروف وهو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر . هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمم لكل ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعُدَّ كل من الحواس نوراً أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع والشم والذوق واللمس . ثم عمم لغير المحسوس فعُدَّ العقل نوراً يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره .

وإذ كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقاً تاماً للنور ، ثم لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود ونور يتصف به الأشياء وهو وجودها ونورها المستعار المأخوذ منه تعالى ووجود ونور قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء .

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ حيث أضيف النور إلى السماوات والأرض ثم حمل على اسم الجلالة ، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال : إن المعنى الله منور السماوات والأرض ، وعمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بها وهو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك وتقدس .

ومن ذلك استفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله ، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين : ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلون له ويسبحونه فهو نظير قوله : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(١) ، وسيوافيك البحث عنه إن شاء الله .

فقد تحصل أن المراد بالنور في قوله : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستنير به كل شيء وهو مساو لوجود كل شيء وظهوره في نفسه ولغيره وهي الرحمة العامة .

وقوله : ﴿مثل نوره﴾ يصف تعالى نوره ، وإضافة النور إلى الضمير الراجع إليه تعالى - وظاهره الإضافة اللامية - دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه ، وليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء وهو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء وتتصف به ، والدليل عليه قوله بعد تميم المثل : ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ إذ لو كان هو النور العام لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقة الإيمان على ما يفيد الكلام .

وقد نسب تعالى في سائر كلامه إلى نفسه نوراً كما في قوله : ﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره﴾^(١) ، وقوله : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾^(٢) وقوله : ﴿يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾^(٣) ، وقوله : ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾^(٤) ، وهذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم إلى ربهم وهو نور الإيمان والمعرفة .

وليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآية تصف حال عامة المؤمنين قبل نزول القرآن وبعده . على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير إليه قوله : ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾^(٥) وقوله : ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾^(٦) ، والقرآن ليس وصفاً لهم وإن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ما قلناه .

وقوله : ﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة﴾ المشبه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاة فيها مصباح المصباح «الخ» لا مجرد المشكاة وإلا فسد المعنى ، وهذا كثير في تمثيلات القرآن .

وقوله : ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ تشبيه الزجاجة بالكوكب الدرّي من جهة

(٤) الزمر : ٢٢ .

(١) الصف : ٨ .

(٥) الحديد : ١٩ .

(٢) الأنعام : ١٢٢ .

(٦) التحريم : ٨ .

(٣) الحديد : ٢٨ .

ازدياد لمعان نور المصباح وشروقه بتركيب الزجاجاة على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكوناً من غير اضطراب بتموج الأهوية وضرب الرياح فهي كالكوكب الدرّي في تلالؤ نورها وثبات شروقتها .

وقوله : ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ خبر بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل أخذاً اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها ، والمراد بكون الشجرة لا شرقية ولا غربية أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي ولا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار وينفيء الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها .

والدليل على هذا المعنى قوله : ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن وكمال استعداده للاشتعال وأن ذلك متفرع على الوصفين : لا شرقية ولا غربية .

وأما قول بعضهم : إن المراد بقوله : ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أنها ليست من شجر الدنيا حتى تنبت إما في شرق أو في غرب ، وكذا قول آخرين : إن المراد أنها ليست من شجر شرق المعمورة ولا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق والغرب وزيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق .

وقوله : ﴿نور على نور﴾ خبر لمبتدأ محذوف وهو ضمير راجع إلى نور الزجاجاة المفهوم من السياق ، والمعنى نور الزجاجاة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمع .

والمراد من كون النور على النور قيل : هو تضاعف النور لا تعدده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ، ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه وهذا التعبير شائع في الكلام .

وهذا معنى لا يخلو من جودة وإن كان إرادة التعدد أيضاً لا تخلو من لطف ودقة فإن للنور الشارق من المصباح نسبة إليه بالأصالة والحقيقة ونسبة إلى الزجاجاة التي عليه بالاستعارة والمجاز ، ويتغاير النور بتغاير النسبتين ويتعدّد بتعددهما وإن لم يكن

بحسب الحقيقة إلا للمصباح والزجاجة صفر الكف منه فللزجاجة بالنظر إلى تعدد النسب نور غير نور المصباح وهو قائم به ومستمد منه .

وهذا الاعتبار جار بعينه في الممثل له فإن نور الإيمان والمعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه .

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين والممثل هو المشبه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقد من زيت جيد صاف وهو موضوع في مشكاة فإن نور المصباح المشرق من الزجاجة والمشكاة تجمععه وتعكسه على المستيرين به يشرق عليهم في نهاية القوة والجودة .

فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة وانعكاسه إلى جو البيت ، واعتبار كون الدهن . من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية للدلالة على صفاء الدهن وجودته المؤثر في صفاء النور المشرق عن اشتعاله وجودة الضياء على ما يدل عليه كون زيتة يكاد يضيء ولو لم تمسه نار ، واعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون الزجاجة مستمدة من نور المصباح في إنارتها .

وقوله : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان والمعرفة وحرمان غيرهم ، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله : ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ القوم الذين ذكرهم بقوله بعد : ﴿رَجُلًا لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الخ ، فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم .

والمعنى : أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر - الذين سيذكرهم بعد - لمجرد مشيئته ، وليس المعنى أن الله يهدي بعض الأفراد إلى نوره دون بعض بمشيئة ذلك حتى يحتاج في تميمه إلى القول بأنه إنما يشاء الهداية إذا استعد المحل إلى الهداية بحسن السريرة والسيرة ، وذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه .

والدليل على ذلك ما سيأتي من قوله : ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات بالبيان الآتي إن شاء الله .

وقوله : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم ، وإنما اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق

والدقائق ويشترك فيه العالم والعامي فيأخذ منه كل ما قسم له ، قال تعالى : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ الإذن في الشيء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله ، والمراد بالرفع رفع القدر والمنزلة وهو التعظيم ، وإذا كانت العظمة والعلو لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب إليه ، وبمقدار ما ينتسب إليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها إليه .

وبذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها ، والسياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى إلى مثل قولنا : «أن يذكر فيها اسمه فيرتفع قدرها بذلك» .

وقوله : ﴿في بيوت﴾ متعلق بقوله في الآية السابقة : ﴿كمشكاة﴾ أو قوله : ﴿يهدي الله﴾ الخ ، والمآل واحد ، ومن المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معدة لذكر اسمه فيها ممحضة لذلك ، وقد قال تعالى : ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ إلى آخر الآية . تسبيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحة قدسه ، والغدو جمع غداة وهو الصبح والآصال جمع أصيل وهو العصر ، والإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه ويهمه ، والتجارة على ما قاله الراغب : التصرف في رأس المال طلباً للربح . قال : وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ . والبيع على ما قال : إعطاء المثلث وأخذ الثمن ، وقلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه إلى وجه ، والتقليب مبالغة فيه والتقلب قبوله فتقلب القلوب والأبصار تحول منها من وجه من الإدراك إلى وجه آخر .

وقوله : ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله : ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ ، وكون التسبيح بالغدو والآصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسبيح مقصور في الوقتين لا يسبح له في غيرهما .

والاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته

(١) العنكبوت : ٤٣ .

(٢) الحج : ٤٠ .

الكمالية لا سترة عليه إذ المفروض أنه نور والنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره وإنما يحتاج خلوص المعرفة إلى نفي النقائص عنه وتنزيهه عما لا يليق به فإذا تمّ التسبيح لم يبق معه غيره وتمّت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء والحمد وبالجملّة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى : ﴿سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين﴾^(١) ، فنزّهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده ، وقد تقدم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى .

وبيان آخر حمده تعالى وهو ثناؤه بصفة الكمال مساوق لحصول نور المعرفة وتسبيحه وهو التنزيه بنفي ما لا يليق به عنه مقدّمة لحصوله ، والآية في مقام بيان خصالهم التي تستدعي هدايتهم إلى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هي المقدمة وهو التسبيح ، فافهم ذلك .

وقوله : ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع﴾ التجارة إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع والشراء والبيع هو العمل الاكتسابي الدفعي فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة والاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منفيّاً بنفيها الدلالة على أنهم لا يلهون عن ربهم في مكاسبهم دائماً ولا في وقت من الأوقات ، وبعبارة أخرى لا تنسيهم ربهم تجارة مستمرة ولا بيع ما من البيوع التي يوقعونها مدة تجارتهم .

وقيل : الوجه في نفي البيع بعد نفي إلهاء التجارة أن الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة التي هي الحرفة ، فعدم إلهاء التجارة لا يستلزم عدم إلهاء البيع الراجح بالفعل ، ولذلك نفي البيع ثانياً بعد نفي إلهاء التجارة ولذلك كرّرت لفظة ﴿ولا﴾ لتذكير النفي وتأكيدده ، وهو وجه حسن .

وقوله : ﴿عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ الإقام هو الإقامة بحذف التاء تخفيفاً .

والمراد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة التي كلف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا ، وإقامة الصلاة ممثلة لإتيان ما للعبد من وظائف

(١) الصافات : ١٦٠ .

العبودية مع الله سبحانه ، وإيتاء الزكاة ممثل لوظائفه مع الخلق وذلك لكون كل منها ركناً في بابه .

والمقابلة بين ذكر الله وبين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما - وخاصة الصلاة - من ذكر الله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذي يقابل النسيان والغفلة وهو ذكر علمي كما أن أمثال الصلاة والزكاة ذكر عملي .

فالمقابلة المذكورة تعطي أن المراد بقوله : ﴿ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم وذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاة والزكاة ، وعند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة والبيع وبين ذكر الله وإقام الصلاة الخ ، لرجوع المعنى إلى أنهم لا يلهيهم مثله مستمر ولا موقت عن الذكر المستمر والموقت ، فافهم ذلك .

وقوله : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ هذا هو يوم القيامة ، والمراد بالقلوب والأبصار ما يعم قلوب المؤمنين والكافرين وأبصارهم لكون القلوب والأبصار جمعاً محلي باللام وهو يفيد العموم .

وأما تقلب القلوب والأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدل على أنه بظهور حقيقة الأمر وانكشاف الغطاء كما قال تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾^(١) ، وقال : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾^(٢) ، إلى غير ذلك من الآيات .

فتنصرف القلوب والأبصار يومئذ عن المشاهدة والرؤية الدنيوية الشاغلة عن الله الساترة للحق والحقيقة إلى سنخ آخر من المشاهدة والرؤية وهو الرؤية بنور الإيمان والمعرفة فيتبصر المؤمن بنور ربه وهو نور الإيمان والمعرفة فينظر إلى كرامة الله ، ويعمى الكافر ولا يجد إلا ما يسوؤه قال تعالى : ﴿ وأشرق الأرض بنور ربها ﴾^(٣) وقال : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾^(٤) ، وقال : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾^(٥) ، وقال : ﴿ وجوه يومئذ

(٤) الحديد : ١٢ .

(٥) الإسراء : ٧٢ .

(١) ق : ٢٢ .

(٢) الزمر : ٤٧ .

(٣) الزمر : ٦٩ .

ناصرة إلى ربها ناظرة ﴿١﴾ ، وقال : ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ ﴿٢﴾ .

وقد تبين بما مر :

أولاً : وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلب القلوب والأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر وذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به إلى هدايته تعالى إلى نوره وهو نور الإيمان والمعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة ويبصر به .

وثانياً : أن المراد بالقلوب والأبصار النفوس وبصائرها .

وثالثاً : أن توصيف اليوم بقوله : ﴿تقلب فيه القلوب والأبصار﴾ لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب والأبصار ، وإنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله والنظر إلى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد وفي الحقيقة يخافون أنفسهم .

قوله تعالى : ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ الظاهر أن لام ﴿ليجزئهم﴾ للغاية ، والذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة والأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله : إنه يجزئهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزئهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب ، ومرجع ذلك إلى أنه تعالى يزكي أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذه في جهات توجب نقصها وانحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن .

ويؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية : ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فإن ظاهرة عدم المدابقة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن .

وقوله : ﴿ويزيدهم من فضله﴾ الفضل العطاء ، وهذا نص في أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة ، وأوضح منه قوله تعالى في موضع آخر : ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ ﴿٣﴾ ، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيئتهم .

(٣) ق : ٣٥ .

(١) القيامة : ٢٣ .

(٢) المطففين : ١٥ .

وقد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاؤون قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) ، وقال : ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جِزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾^(٢) ، وقال : ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) .

فهذا المزيد الذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى وأعظم من أن تتعلق به مشية الإنسان أو يوصل إليه سعيه ، وهذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين ويشرهم به فأجد التدبر فيه .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشية نظير قوله فيما تقدم : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ على ما مر بيانه .

ومحصله أنهم عملوا صالحاً وكان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله : ﴿وَتَوْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾^(٤) ، وما في معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم بكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في باب من غير أن يداق في الحساب فهذه موهبة ثم يرزقهم أمراً هو أعلى وأرفع من أن تتعلق به مشيتهم وهذه أيضاً موهبة ورزق بغير حساب ، والرزق من الله موهبة محضة من غير أن يملك المرزوقون منه شيئاً أو يستحقوه عليه فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء .

غير أنه تعالى وعدهم الرزق وأقسم على إنجازه في قوله : ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾^(٥) ، فملكهم الاستحقاق لأصله وهو الذي يجزيهم به على قدر أعمالهم وأما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشية ، وللكلام تنمة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ إلى آخر الآية . السراب هو ما يلمع في المفازة كالماء ولا حقيقة له ، والقيع والقاع هو المستوي من الأرض ومفرداهما القيع والقاعة كالتينة والتمرة ، والظمآن هو العطشان .

لما ذكر سبحانه المؤمنين ووصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم

(١) الزمر : ٣٤ .

(٤) النحل : ١١١ .

(٢) الفرقان : ١٦ .

(٥) الداريات : ٢٣ .

(٣) النحل : ٣١ .

عنه تجارة ولا بيع ، وأن الله الذي هو نور السماوات والأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقية فلا غاية لها تنتهي إليها ، وتارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها وهي حائزة عن النور ، وهذه الآية هي التي تتضمن الوصف الأول .

فقوله : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ شبه أعمالهم - وهي التي يأتون بها من قرابين وأذكار وغيرهما من عباداتهم يتقربون بها إلى آلهتهم - بسراب بقية يحسبه الإنسان ماء ولا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش وغير ذلك .

وإنما قيل : يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره إليه ولا يسير إليه الظمآن يدفعه إليه ما به من ظمأ ، ولذلك رتب عليه قوله : ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ كأنه قيل : كسراب بقية يتخيله الظمآن ماء فيسير إليه ويقبل نحوه ليرتوي ويرفع عطشه به ، ولا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

والتعبير بقوله : ﴿جاءه﴾ دون أن يقال : بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه ونحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه وينتظره انتظاراً وهو الله سبحانه ، ولذلك أردفه بقوله : ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم وجبلتهم وهو السعادة التي يريدونها كل إنسان بفطرته وجبلته لكن أعمالهم لا توصلهم إليه ، ولا أن الآلهة التي يتغنون بأعمالهم جزاء حسناً منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي إليه أعمالهم ويحيط هو بها ويجزيهم هو الله سبحانه فيوفيهم حسابهم ، وتوفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال وإيصال ما يستحقه صاحب الأعمال .

ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب ، وتشبيههم بالظمآن الذي يريد الماء وعنده عذب الماء لكنه يعرض عنه ولا يصغي إلى مولاه الذي ينصحه ويدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه ويقبل نحوه ، وتشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الأجل وعند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر إلى السراب إذا جاءه وعنده مولاه الذي كان ينصحه ويدعوه إلى شرب الماء .

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربهم والأعمال الصالحة الهادية إلى نوره وفيه سعادتهم

وحسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم ، والأعمال المقربة إليهم وفيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابية واستوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم وشارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئاً مما يؤملونه من أعمالهم ولا أثراً من الوهية آلهتهم فوفاهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

وقوله : ﴿والله سريع الحساب﴾ إنما هو لاحاطة علمه بالقليل والكثير والحقير والخطير والدقيق والجليل والمتقدم والمتأخر على حد سواء .

واعلم أن الآية وإن كان ظاهرها بيان حال الكفار من أهل الملل وخاصة المشركين من الوثنيين لكن البيان جارٍ في غيرهم من منكري الصانع فإن الإنسان كائناً من كان يرى لنفسه سعادة في الحياة ولا يرتاب أن الوسيلة إلى نيلها أعماله التي يأتي بها فإن كان ممن يقول بالصانع ويراه المؤثر في سعادته بوجه من الوجوه توسل بأعماله إلى تحصيل رضاه والفوز بالسعادة التي يقدرها له ، وإن كان ممن ينكره وينهي التأثير إلى غيره توسل بأعماله إلى توجيه ما يقول به من المؤثر كالدهر والطبيعة والمادة نحو سعادة حياته الدنيا التي لا يقول بما وراءها .

فهؤلاء يرون المؤثر الذي بيده سعادة حياتهم غيره تعالى ولا مؤثر غيره ويرون مساعيهم الدنيوية موصلة لهم إلى سعادتهم وليست إلا سراباً لا حقيقة له ولا يزالون يسعون حتى إذا تمَّ ما قدر لهم من الأعمال بحلول ما سمي لهم من الأجل لم يجدوا عندها شيئاً وعابنوا أن ما كانوا يتمنون منها لم يكن إلا طائف خيال أو حلم نائم ، وعند ذلك يوقّهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

قوله تعالى : ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ تشبيه ثانٍ لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة ، وقد تكرر في كلامه تعالى أنهم في الظلمات كقوله : ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾^(١) ، وقوله : ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾^(٢) ، وقوله : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾^(٣) .

(٣) المطففين : ١٥ .

(٢) الأنعام : ١٢٢ .

(١) البقرة : ٢٥٧ .

وقوله : ﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ معطوف على ﴿سراب﴾ في الآية السابقة ، والبحر اللجى هو البحر المتردد أمواجه منسوب إلى لجة البحر وهي تردد أمواجه ، والمعنى : أعمالهم كظلمات كائنة في بحر لجى .

وقوله : ﴿يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه ويحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحاب يحجب عنه جميعاً من الاستضاءة بأضواء الشمس والقمر والنجوم .

وقوله : ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة ، وقد أكد ذلك بقوله : ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه وهو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنه يقربها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده ولم يكد يراها كانت الظلمة بالغة .

فهؤلاء وهم سائرون إلى الله وصائرون إليه من جهة أعمالهم كراكب بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب في ظلمات متراكمة كأشد ما يكون ولا نور هناك يستضيء به فيهتدي إلى ساحل النجاة .

وقوله : ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ نفى للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم ، كيف لا ؟ وجاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء ، فإذا لم يجعل لشيء نوراً لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى .

قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات﴾ إلى آخر الآية ، لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات والأرض وأنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده والذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتاج على ذلك بما في هذه الآية والآيات الأربع التالية لها .

فكونه تعالى نور السماوات والأرض يدلُّ عليه أن ما في السماوات والأرض موجود بوجود ليس من عنده ولا من عند شيء مما فيهما لكونه مثله في الفاقة ، فوجود ما فيهما من موجود من الله الذي ينتهي إليه الحاجات .

فوجود كل شيء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء ويدل على منوره بما أشرق عليه من

النور وأن هناك نوراً يستنير به كل شيء فكل شيء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئاً منزهاً من الظلمة التي غشيت ، والفاقة التي لزمت ، والنقص الذي لا ينفك عنه ، وهذا هو تسبيح ما في السماوات والأرض له سبحانه ، ولازمه نفي الاستقلال عن كل من سواه وسلب أي إله ورب يدبر الأمر دونه تعالى .

وإلى ذلك يشير قوله : ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ وبه يحتج تعالى على كونه نور السماوات والأرض لأن النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره ، وهو تعالى يظهر ويوجد بإظهاره وإيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره ووجوده .

وتزيد الآية بالإشارة إلى لطائف يكمل بها البيان :

منها : اختصاصها من في السماوات والأرض والطير صافات وهم العقلاء وبعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ .

ولعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذي يدل عليه لفظه ﴿من في السماوات والأرض﴾ من عجيب أمر الخلقة الذي يدهش لبّ ذي اللب ، كما أن صفيف الطير الصافات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور وأبدعه .

ويظهر من بعضهم أن المراد بقوله : ﴿من في السماوات﴾ السخ ، جميع الأشياء وإنما عبّر بلفظ أولي العقل لكون التسبيح المنسوب إليها من شؤون أولي العقل أو للتنبيه على قوة تلك الدلالة ووضوح تلك الإشارة تنزيلاً للسان الحال منزلة المقال .

وفيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها في قوله بعد : ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ .

ومنها : تصدير الكلام بقوله : ﴿ألم تر﴾ وفيه دلالة على ظهور تسبيحهم ووضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذوريب فكثيراً ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض﴾^(١) ، والخطاب فيه عام

لكل ذي عقل وإن كان خاصاً بحسب اللفظ .

ومن الممكن أن يكون خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ وقد كان أراه الله تسبيح من في السماوات والأرض والطير صافات فيما أراه من ملكوت السماوات والأرض وليس يبدع منه ﷺ وقد أرى الناس تسبيح الحصة في كفه كما وردت به الأخبار المعتبرة .

ومنها : أن الآية تعمم العلم لكل ما ذكر في السماوات والأرض والطير ، وقد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(١) ، وستجيء تنمة الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله .

وقول بعضهم : إن الضمير في قوله : ﴿قد علم﴾ راجع إليه تعالى ، يدفعه عدم ملائمته للسياق وخاصة لقوله بعده : ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ ونظيره قول آخرين : إن إسناد العلم إلى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوة دلالة على تسبيحه وتنزيهه .

ومنها : تخصيصها بالتسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى وهو التحميد كما تسبحه على ما يدل عليه البرهان ويؤيده قوله : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ولعل الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد ونفي الشركاء وذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من دون الله إلهاً آخر أو يركن إلى غيره نوعاً من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصية وجود ذلك الشيء للإله تعالى ففيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه .

وأما قوله : ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ فصلاته دعاؤه والدعاء توجيه من الداعي للمدعو إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعو في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الشاء والتحميد .

ومنها : أن الآية تنسب التسبيح والعلم به إلى من في السماوات والأرض فيعم المؤمن والكافر ، ويظهر بذلك أن هناك نورين : نور عام يعم الأشياء والمؤمن والكافر فيه سواء ، وإلى ذلك تشير آيات كآية الذر : ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم

(١) الإسراء : ٤٤ .

قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين^(١) ، وقوله : ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾^(٢) إلى غير ذلك ، ونور خاص وهو الذي تذكره الآيات ويختص بأوليائه من المؤمنين .

فالنور الذي ينور تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان : عام وخاص وقد قال تعالى : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾^(٣) ، وقوله : ﴿فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته﴾^(٤) ، وقد جمع بينهما في قوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً﴾^(٥) ، وما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كفلي الرحمة .

وقوله : ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ ومن فعلهم تسبيحهم له سبحانه ، وهذا التسبيح وإن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعدّ فعلاً لهم بهذه العناية .

وفي ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين وشكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك منهم وسيجزئهم جزاء حسناً ، وإيذان بتمام الحجة على الكافرين ، فإن من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال والكتاب المبين التي ثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألستهم .

قوله تعالى : ﴿والله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير﴾ سياق الآية وقد وقعت بين قوله : ﴿ألم تر أن الله يسبح له﴾ الخ ، وهو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء ، وبين قوله : ﴿ألم تر أن الله يزجي﴾ الخ ، وما يتعقبه وهو احتجاج على اختصاص النور الخاص ، يعطي أنها كالمتوسط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتاج بها على كليهما ، فملكه تعالى لكل شيء وكونه مصيراً لها هو دليل على تعميمه نوره العام وتخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

فقوله : ﴿والله ملك السماوات والأرض﴾ يخص الملك ويقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، ولازم قصر الملك فيه

(١) الأعراف : ١٧٢ . (٤) الجاثية : ٣٠ .

(٢) ق : ٢٢ . (٥) الحديد : ٢٨ .

(٣) الأعراف : ١٥٦ .

كونه هو المصير لكل شيء ، وإذ كان لا ملك إلا هو وإليه مرجع كل شيء ومصيره فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ومن هنا يظهر أن المراد - والله أعلم - بقوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ مرجعيته تعالى في الأمور دون المعاد نظير قوله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ ^(١) .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ إلى آخر الآية . الإزجاء هو الدفع ، والركام المتراكم بعضه على بعض ، والودق هو المطر ، والخلال جمع الخلل وهو الفرجة بين الشيئين .

والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع ، والمعنى : ألم تر أنت وكل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحاباً متفرقاً ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكماً بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله وفرجه فينزل على الأرض .

وقوله : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ السماء جهة العلو ، وقوله : ﴿ من جبال فيها ﴾ بيان للسماء ، والجبال جمع جبل وهو معروف ، وقوله : ﴿ من برد ﴾ بيان للجبال ، والبرد قطعات الجمد النازل من السماء ، وكونه جبلاً فيها كناية عن كثرتهم وتراكمهم ، والسنا بالقصر الضوء .

والكلام معطوف على قوله : ﴿ يزجي ﴾ ، والمعنى : ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع والبساتين وربما قتل النفوس والمواشي ويصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار .

والآية - على ما يعطيه السياق - مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره ، والمعنى : أن الأمر في ذلك إلى مشيئته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطراً فيه منافع الناس لنفوسهم ومواشيهم ومزارعهم وبساتينهم ، وإذا شاء نزل برداً فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء .

قوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ بيان

آخر لرجوع الأمر إلى مشيئة تعالى فقط . وتقلب الليل والنهار تصرفهما بتبديل أحدهما من الآخر ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾ بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيئة تعالى محضاً حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات والديدان ، ومنهم من يمشي على رجلين كالأناسي ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع ، واقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثة - وفيهم غير ذلك - إيجازاً لحصول الغرض بهذا المقدار .

وقوله : ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب ، مع وحدة المادة التي خلقت منها يبين أن الأمر إلى مشيئة الله محضاً فله أن يعمم فيضاً من فيوضه على جميع خلقه كالنور العام والرحمة العامة ، وله أن يختص بفيض من فيوضه بعضاً من خلقه دون بعض كالنور الخاص والرحمة الخاصة .

وقوله : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل لقوله : ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ فإن إطلاق القدرة على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونه على أمر وراء مشيئته وإلا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر وهذا خلف . وهذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي .

(بحث فلسفي)

إننا لا نشك في أن ما نجده من الموجودات الممكنة معلولة متتهية إلى الواجب تعالى وأن كثيراً منها - وخاصة في الماديات - تتوقف في وجودها على شروط لا تحقق لها بدونها كالإنسان الذي هو ابن فإن لوجوده توقفاً على وجود الوالدين وعلى شرائط أخرى كثيرة زمانية ومكانية ، وإذا كان من الضروري كون كل مما يتوقف عليه جزء من علته التامة كان الواجب تعالى على هذا جزء علته التامة لا علة تامة وحدها .

نعم هو بالنسبة إلى مجموع العالم علة تامة إذ لا يتوقف على شيء غيره وكذا الصادر الأول الذي تتبعه بقية أجزاء المجموع ، وأما سائر أجزاء العالم فإنه تعالى جزء

علته التامة ضرورة توقفه على ما هو قبله من العلل وما هو معه من الشرائط والمعدات .
هذا إذا اعتبرنا كل واحد من الأجزاء بحياله ثم نسبنا وحده إلى الواجب تعالى .

وههنا نظر آخر أدق وهو أن الارتباط الوجودي الذي لا سبيل إلى إنكاره بين كل شيء وبين علله الممكنة وشروطه ومعداته يقضي بنوع من الاتحاد والاتصال بينها فالواحد من الأجزاء ليس مطلقاً منفصلاً بل هو في وجوده المتعين مقيد بجميع ما يرتبط به متصل الهوية بغيرها .

فالإنسان الابن الذي كنا نعتبره في المثال المتقدم بالنظر السابق موجوداً مستقلاً مطلقاً فنجدته متوقفاً على علل وشروط كثيرة والواجب تعالى أحدها يعود بحسب هذه النظرة هوية مقيدة بجميع ما كان يعتبر توقفه عليه من العلل والشرائط غير الواجب تعالى فحقيقة زيد مثلاً هو الإنسان ابن فلان وفلانة المتولد في زمان وكذا ومكان كذا المتقدم عليه كذا وكذا المقارن لوجوده كذا وكذا من الممكنات .

فهذه هي حقيقة زيد مثلاً ومن الضروري أن ما حقيقته ذلك لا تتوقف على شيء غير الواجب فالواجب هو علته التامة التي لا توقف له على غيره ، ولا حاجة له إلى غير مشيئة ، وقدرته تعالى بالنسبة إليه مطلقة غير مشروطة ولا مقيدة ، وهو قوله تعالى : ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مَبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يريد آية النور وما يتلوها المبينة لصفة نوره تعالى والصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب والضلال إلى من اهتدى إليها كما قال : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين^(١) ، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الحمد .

وتذييل الآية بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الموجب لعدم تقييد قوله : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مَبِينَاتٍ﴾ بلفظة إليكم بخلاف قوله قبل آيات : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مَبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

إذ لو قيل : لقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات والله يهدي . تبادر إلى الذهن أن البيان

اللفظي هداية إلى الصراط المستقيم وأن المخاطبين عامة مهديون إلى الصراط المستقيم وفيهم المنافق والذين في قلوبهم مرض والله العالم .

(بحث روائي)

في التوحيد بإسناده عن العباس بن هلال قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ فقال : هاد لأهل السماوات وهاد لأهل الأرض .

وفي رواية البرقي : هدى من في السماوات وهدى من في الأرض .

أقول : إذ كان المراد بالهداية الهداية الخاصة وهي الهداية إلى السعادة الدينية كان من التفسير بمرتبة من المعنى ، وإن كان المراد بها الهداية العامة وهي إيصال كل شيء إلى كماله انطبق على ما تقدم .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن جرير قال : سألتني امرأة أن أدخلها على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت لها فأذن لها فدخلت ومعها مولاة لها فقالت له : يا أبا عبد الله قول الله : ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ ما عني بهذا ؟ فقال لها : أيتها المرأة إن الله لم يضرب الأمثال للشجر إنما ضرب الأمثال لبني آدم .

وفي تفسير القمي بإسناده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام في هذه الآية ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ قال : بدأ بنور نفسه ﴿مثل نوره﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ والمصباح جوف المؤمن والقنديل قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه .

﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ قال : الشجرة المؤمن ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال : على سواد الجبل لا غربية أي لا شرق لها ، ولا شرقية أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها وإذا غربت غربت عليها ﴿ويكاد زيتها يضيء﴾ يكاد النور الذي في قلبه يضيء وإن لم يتكلم .

﴿نور على نور﴾ فريضة على فريضة ، وسنة على سنة ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ يهدي الله لفرائضه وسنته من يشاء ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ فهذا مثل ضربه الله للمؤمن .

ثم قال : فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور : مدخله نور ، ومخرجه نور ، وعلمه نور ، وكلامه نور ، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور ، قلت لجعفر عليه السلام : إنهم يقولون : مثل نور الرب . قال : سبحان الله ليس لله مثل ، قال الله : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ .

أقول : الحديث يؤيد ما تقدم في تفسير الآية ، وقد اكتفى عليه السلام في تفسير بعض فقرات الآية بذكر بعض المصاديق كالذي ذكره في ذيل قوله : ﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾ وقوله : ﴿ نور على نور ﴾ .

وأما قوله : « سبحان الله ليس لله مثل » فإنما ينفي به أن يكون المثل مثلاً للنور الذي هو اسمه تعالى المحمول عليه فكونه مثلاً له تعالى يؤدي إلى الحلول أو الانقلاب تعالى عن ذلك بل هو مثل لنوره المقاض على السماوات والأرض ، وأما الضمير في قوله : ﴿ مثل نوره ﴾ فلا ضمير في رجوعه إليه تعالى مع الاحتفاظ على المعنى الصحيح .

وفي التوحيد وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ فقال : هو مثل ضربه الله لنا فالنبي والأئمة صلوات الله عليهم من دلالات الله وآياته التي يهتدي بها إلى التوحيد ومصالح الدين وشرائع الإسلام والسنن والفرائض ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أقول : الرواية من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق وهو من أفضل المصاديق وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم والظاهر من أهل بيته عليهم السلام وإلا فالآية تعم بظاهرها غيرهم من الأنبياء عليهم السلام والأوصياء والأولياء .

نعم ليست الآية بعامة لجميع المؤمنين لأخذها في وصفهم صفات لا تعم الجميع كقوله : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ الخ .

وقد وردت عدة من الأخبار من طرق الشيعة في تطبيق مفردات الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وهي من التطبيق دون التفسير ، ومن الدليل على ذلك اختلافها في نحو التطبيق كرواية الكليني في روضة الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام وفيها أن المشكاة قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمصباح النور

الذي فيه العلم ، والزجاجة علي أو قلبه ، والشجرة المباركة الزيتونة التي لا شرقية ولا غربية إبراهيم عليه السلام ما كان يهودياً ولا نصرانياً ، وقوله : ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ الخ ، يكاد أولادهم أن يتكلموا بالنبوة وإن لم ينزل عليهم ملك .

وما رواه في التوحيد بإسناده إلى عيسى بن راشد عن الباقر عليه السلام وفيه أن المشكاة نور العلم في صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، والزجاجة صدر علي عليه السلام ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ ولو لم تمسه نار ﴿يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل﴾ نور على نور ﴿إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في إثر الإمام من آل محمد .

وما في الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني عن الصادق عليه السلام وفيه أن المشكاة فاطمة عليها السلام ، والمصباح الحسن عليه السلام ، والزجاجة الحسين عليه السلام ، والشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام ، ولا شرقية ولا غربية ما كان يهودياً ولا نصرانياً ، ونور على نور إمام بعد إمام ، ويهدي الله لنوره من يشاء يهدي الله للأئمة عليهم السلام من يشاء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال : قلب إبراهيم لا يهودي ولا نصراني .

أقول : وهو من قبيل ذكر بعض المصاديق ، وقد ورد مثله من طرق الشيعة عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام كما تقدم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قالوا : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ فقام إليه رجل فقال : أي بيوت هذه يا رسول الله ؟ قال : بيوت الأنبياء ، فقام إليه أبو بكر فقال : يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة ؟ قال : نعم من أفاضلها .

أقول : ورواه في المجمع عنه صلى الله عليه وسلم مرسلاً ، وروى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه : قال : هي بيوت الأنبياء وبيت علي عليه السلام منها . وهو على أي حال من قبيل ذكر بعض المصاديق على ما تقدم .

وفي نهج البلاغة من كلام له عليه السلام عند تلاوته ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواج عن محارم الله في أسمع الغافلين ،

ويأمرون بالقسط ويأثمرون به وينهون عن المنكر وينتهون عنه .

كأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، وحققت القيامة عليهم عذابها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع﴾ وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : أنهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجراً ممن لم يتجر .

أقول : أي لم يتجر واشتغل بذكر الله كما في روايات أخر .

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ قال : هم الذين يضربون في الأرض يتغنون من فضل الله .

أقول : كأن الرواية غير تامة وتمامها فيما روي عن ابن عباس قال : كانوا رجالاً يتغنون من فضل الله يشتررون ويبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿والله سريع الحساب﴾ وسئل أمير المؤمنين عليه السلام : كيف يحاسبهم في حالة واحدة ؟ فقال : كما يرزقهم في حالة واحدة .

وفي روضة الكافي بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل جعل السحاب غرابيل المطر هي تذيب البرد حتى يصير ماء لكي لا يضر شيئاً يصيبه ، والذي ترون فيه من البرد والصواعق نقمة من الله عز وجل يصيب بها من يشاء من عباده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾ قال : على رجلين الناس ، وعلى بطنه الحيات ، وعلى أربع البهائم ، وقال أبو عبد الله عليه السلام : ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ
يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ
يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ
قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أُمِّرَتْهُمْ لَيَخْرُجَنَّ قُلٌ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) .

(بيان)

تتضمن الآيات افتراض طاعة الرسول ﷺ وأنها لا تفارق طاعة الله تعالى ، ووجوب الرجوع إلى حكمه وقضائه وأن الإعراض عنه آية النفاق ، وتختتم بوعده جميل للصالحين من المؤمنين وإيعاد للكافرين .

قوله تعالى : ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾ الخ ، بيان حال بعض المنافقين حيث أظهرُوا الإيمان والطاعة أولاً ثم تولوا ثانياً فالإيمان بالله هو العقد على توحيدهِ وما شرع من الدين ، والإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولاً مبعوثاً من عند ربه أمره ونهيه نهيهِ وحكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء ، وطاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه ، وطاعة الرسول الائتمار والانتهاز عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه .

فالإيمان بالله وطاعته مورداهما نفس الدين والتشريع به ، والإيمان بالرسول وطاعته مورداهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به وما حكم به وقضى عليه في المنازعات والانقياد له في ذلك كله .

فبين الإيمانيين والطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد وضيقه ، ويشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل : ﴿آمنا بالله وبالرسول﴾ فاشير إلى تعدد الإيمان والطاعة ولم يقل : آمنا بالله والرسول بحذف الباء ، والإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، قال تعالى : ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله﴾ (١) .

فقوله : ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ أي عقدنا القلوب على دين الله وتشريعنا به وعلى أن الرسول لا يخبر إلا بالحق ولا يحكم إلا بالحق .

وقوله : ﴿ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾ أي ثم يعرض طائفة من هؤلاء القائلين : ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك .

وقوله : ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أي ليس أولئك القائلون بالمؤمنون ، والمشار إليه باسم الإشارة القائلون جميعاً لا خصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق

لأن الكرم مسوق لذم الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ يشهد سياق الآية أن الآيات إنما نزلت في بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبي ﷺ في منازعة وقعت بينه وبين غيره فأبى الرجوع إلى النبي ﷺ وفي ذلك نزلت الآيات .

والنبي ﷺ إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (١) . فللحكم نسبة إليه بالمباشرة ونسبة إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته وينصبه النبي ﷺ للحكم والقضاء .

وبذلك يظهر أن المراد بالدعوة إلى الله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع ، وبالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضى عليه بالمباشرة ، وأن الظاهر أن ضمير ﴿ ليحكم ﴾ للرسول ، وإنما أفرد الفاعل ولم يثن إشارة إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى .

والآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالخاص بالنسبة إلى العام فهي تقصّ إعرافاً معيناً منهم والإعراف المذكور في الآية السابقة منهم إعراف مطلق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ الإذعان الانقياد ، وظاهر السياق وخاصة قوله : ﴿ يَأْتُوا إِلَيْهِ ﴾ أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حق لا ينفك عنه ، والمعنى وإن يكن الحق الذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم ، ولازم ذلك أنهم يتبعون الهوى ولا يريدون اتباع الحق .

قوله تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ إلى آخر الآية . الحيف الجور .

وظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ لَنْ لَمْ يَنْتَهَ

(٢) الأحزاب : ٣٢ .

(١) النساء : ١٠٥ .

المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم^(١) ، وغير ذلك من الآيات .

وأما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله في صدر الآيات : ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ فإنه حكم بنفاقهم ، ولا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله : ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ .

وقوله : ﴿أم ارتابوا﴾ ظاهر إطلاق الارتياب وهو الشك أن يكون المراد هو شكهم في دينهم بعد الإيمان دون الشك في صلاحية النبي ﷺ للحكم أو عدله ونحو ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة إلى بيان بنصب قرينة .

وقوله : ﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ أي أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله لكون الشريعة الإلهية التي يتبعها حكم النبي ﷺ مبنية على الجور وإماتة الحقوق الحقة ، أو لكون النبي ﷺ لا يراعي الحق في قضائه .

وقوله : ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ إضراب عن التردد السابق بشقوه الثلاثة وذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا إليه مدعين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم ، وأما الخوف من أن يحيف الله عليهم ورسوله فلا موجب له فالله بري من الحيف ورسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله ورسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون .

والظاهر أن المراد بالظلم التعدي عن طور الإيمان مع الإقرار به قولاً كما قال آنفاً : ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أو خصوص التعدي إلى الحقوق غير المالية ، ولو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة إليه لأنها من مطلق الظلم ويدل عليه أيضاً الآية التالية .

وقد بان بما تقدم أن التردد في أسباب الإعراض على تقدير عدم النفاق بين الأمور الثلاثة حاصر والأقسام متغايرة فإن محصل المعنى أنهم منافقون غير مؤمنين إذ لو

لم يكونوا كذلك كان إعراضهم إما لضعف إيمانهم وإما لزواله بالارتباب وإما للخوف من غير سبب يوجب فإن الخوف من الرجوع إلى حكم الحاكم إنما يكون إذا احتتمل حيفه في حكمه وميله عن الحق إلى الباطل ولا يهتمل ذلك في حكم الله ورسوله .

وقد طال البحث في كلامهم عما في الآية من التردد والإضراب ولعل فيما ذكرناه كفاية ، ومن أراد أزيد من ذلك فليراجع المطولات .

قوله تعالى : ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ إلى آخر الآية سياق قوله : ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾ وقد أخذ فيه ﴿كان﴾ ووصف الإيمان في ﴿المؤمنين﴾ يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعة الإيمان فإن مقتضى الإيمان بالله ورسوله وعقد القلب على اتباع ما حكم به الله ورسوله التلبية للدعوة إلى حكم الله ورسوله دون الرد .

وعلى هذا فالمراد بقوله : ﴿إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ دعوة بعض الناس ممن ينازعهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر إلى التحاكم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، ويدل عليه تصدير الجملة بلفظة ﴿إذا﴾ ولو كان المراد به دعوة الله ورسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازعاتهم إلى حكم الله ورسوله كان ذلك حكماً مؤبداً لا حاجة فيه إلى التقييد بالزمان .

وبذلك يظهر ضعف ما قيل : إن فاعل ﴿دعوا﴾ المحذوف هو الله ورسوله ، والمعنى : إذا دعاهم الله ورسوله . نعم مرجع الدعوة بأخرة إلى دعوة الله ورسوله .

وكيف كان تقصر الآية قول المؤمنين على تقدير الدعوة إلى حكم الله ورسوله في قولهم : سمعنا وأطعنا وهو سمع وطاعة للدعوة الإلهية سواء فرض الداعي هو أحد المتنازعين للآخر أو فرض الداعي هو الله ورسوله أو كان المراد هو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله وإن كان بعيداً .

وانحصار قول المؤمنين عند الدعوة في ﴿سمعنا وأطعنا﴾ يوجب كون الردّ للدعوة ليس من قول المؤمنين فيكون تعدياً عن طور الإيمان ، كما يفيد قوله : ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ على ما تقدم ، فتكون الآية في مقام التعليل للإضراب في ذيل الآية السابقة .

وقد ختمت الآية بقوله : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم في الفلاح .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ورود الآية في سياق الآيات السابقة وانضمامها إلى سابقتها يعطي أنها في مقام التعليل - كالكبرى الكلية - للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة إلى حكم الله ورسوله بالسمع والطاعة بقاء الإيمان كأنه قيل : إنما أفلح من أجاب إلى حكم الله ورسوله وهو مؤمن لأنه مطيع لله ولرسوله وهو مؤمن حقاً في باطنه خشية الله وفي ظاهره تقواه ومن يطع الله ورسوله فيما قضى عليه ويخشى الله ويتقاه فأولئك هم الفائزون ، والفوز هو الفلاح .

وتشمل الآية الداعي إلى حكم الله ورسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع والطاعة ففيها زيادة على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي والمدعو جميعاً .

قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لِيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ إلى آخر الآية ، الجهد الطاقة ، والتقدير في قوله : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم والمراد أقسموا بأغلظ أيمانهم .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿لِيَخْرُجْنَ﴾ الخروج إلى الجهاد على ما وقع في عدة من الآيات كقوله : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾^(١) .

وقوله : ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا﴾ نهي عن الإقسام ، وقوله : ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ خبر لمبتدأ محذوف هو الضمير الراجع إلى الخروج والجملة في مقام التعليل للنهي عن الإقسام ولذا جيء بالفصل ، وقوله : ﴿أَنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من تمام التعليل .

ومعنى الآية : وأقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن قل لهم : لا تقسموا بالخروج إلى الجهاد طاعة معرفة من الدين - وهو واجب لا حاجة إلى إيجابه بيمين مغلظ - وإن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله ورسوله

بذلك فالله خير بما تعملون لا يغره إغلاظكم في الإيمان .

وقيل : المراد بالخروج خروجهم من ديارهم وأموالهم لو حكم الرسول بذلك ، وقوله : ﴿طاعة معروفة﴾ مبتدأ لخبر محذوف ، والتقدير : طاعة معروفة للنبي خير من إقسامكم ، ومعنى الآية : وأقسموا بالله بأغلظ الإيمان لئن أمرتهم وحكمت عليهم في منازعاتهم بالخروج من ديارهم وأموالهم ليخرجن منها قل لهم : لا تقسموا لأن طاعة حسنة منكم للنبي خير من إقسامكم بالله والله خير بما تعملون .

وفيه أن هذا المعنى وإن كان يؤكد اتصال الآية بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنه لا يلائم التصريح السابق بردهم الدعوة إلى الله ورسوله ليحكم بينهم لأنهم إذ كانوا تولوا وأعرضوا عن حكم الله ورسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبي ﷺ لئن أمرهم في حكمه بالخروج من ديارهم وأموالهم ليخرجن وهو ظاهر ، اللهم إلا أن يكون المقسمون فريقاً آخر منهم غير الرادّين للدعوة المعرضين عن الحكم ، وحينئذٍ كان حمل ﴿ليخرجن﴾ على هذا المعنى لا دليل يدل عليه .

قوله تعالى : ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم﴾ إلى آخر الآية ، أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين ، وأمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربهم ويأمرهم به في أمر دينهم ودنياهم ، وتصدير الكلام بقوله : ﴿قل﴾ إشارة إلى أن الطاعة جميعاً لله ، وقد أكد بقوله : ﴿وأطيعوا الرسول﴾ دون أن يقول : وأطيعوني لأن طاعة الرسول بما هو طاعة الرسول طاعة المرسل ، وبذلك تتم الحجة .

ولذلك عقب الكلام :

أولاً بقوله : ﴿فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم﴾ أي فإن تولوا وتعرضوا عن طاعة الرسول لم يضر ذلك الرسول فإنما عليه ما حُمِّل من التكليف ولا يمسكم منه شيء وعليكم ما حُمِّلتم من التكليف ولا يمسّه منه شيء فإن الطاعة جميعاً لله سبحانه .

وثانياً بقوله : ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ أي وإن كان لكل منكم ومنه ما حُمِّل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجيء به إليكم وما يأمركم به من الله وبأمره ، والطاعة لله وفيه الهداية .

وثالثاً بقوله : ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ وهو بمنزلة التعليل لما تقدّمه أي إن ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلغ ، وإذ كان رسولاً لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله وفي طاعة من أرسله وهو الله سبحانه اهتداؤكم .

قوله تعالى : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ إلى آخر الآية .

ظاهر وقوع الآية موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقة من السورة وهي مدنية ولم تنزل بمكة قبل الهجرة على ما يؤيده سياقها وخاصة ذيلها .

فالآية - على هذا - وعد جميل للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً يخص بهم فيستخلفهم في الأرض ويمكن لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً لا يخافون كيد منافق ولا صدّ كافر يعبدونه لا يشركون به شيئاً .

فقوله : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ من فيه تبعيضية لا بيانية والخطاب لعامة المسلمين وفيهم المنافق والمؤمن وفي المؤمنين منهم من يعمل الصالحات ومن لا يعمل الصالحات ، والوعد خاص بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات محضاً .

وقوله : ﴿ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ إن كان المراد بالاستخلاف إعطاء الخلافة الإلهية كما ورد في آدم وداود وسليمان عليهم السلام ، قال تعالى : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(١) ، وقال : ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾^(٢) ، وقال : ﴿وورث سليمان داود﴾^(٣) ، فالمراد بالذين من قبلهم خلفاء الله من أنبيائه وأوليائه ولا يخلو من بعد كما سيأتي .

وإن كان المراد به إراث الأرض وتسليط قوم عليها بعد قوم كما قال : ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾^(٤) ، وقال : ﴿أن الأرض يرثها

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) النمل : ١٦ .

(٤) الأعراف : ١٢٨ .

عبادي الصالحون»^(١)، فالمراد بالذين من قبلهم المؤمنون من أمم الأنبياء الماضين الذين أهلك الله الكافرين والفاسقين منهم ونجى الخالص من مؤمنهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب كما أخبر عن جمعهم في قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لرسلكم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾^(٢)، فهؤلاء الذين أخلصوا لله فنجاهم فعدوا مجتمعاً صالحاً وعاشوا فيه حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

وأما قول من قال : إن المراد بالذين استخلفوا من قبلهم بنو إسرائيل لما أهلك الله فرعون وجنوده فأورثهم أرض مصر والشام ومكنهم فيها كما قال تعالى فيهم : ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض﴾^(٣).

ففيه أن المجتمع الإسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون وجنوده لم يصف من الكفر والنفاق والفسق ولم يخلص للذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا حيناً على ما ينص عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ولا وجه لتشبيه استخلاف الذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم وفيهم الكافر والمنافق والطالح والصالح .

ولو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الذين من قبلهم - وهم بنو إسرائيل - كيفما كان لم يحتج إلى إشخاص المجتمع الإسرائيلي للتشبيه به وفي زمن نزول الآية وقبل ذلك أمم أشد قوة وأكثر منهم كالروم والفارس وكلدة وغيرهم وقد قال تعالى في عاد الأولى وثمود : ﴿إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾^(٤)، وقال : ﴿إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾^(٥)، وقد خاطب بذلك الكفار من هذه الأمة فقال : ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾^(٦)، وقال : ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره﴾^(٧).

(٢) إبراهيم : ١٤ .

(٤) الأعراف : ٦٩ .

(٦) فاطر : ٣٩ .

(١) الأنبياء : ١٠٥ .

(٣) القصص : ٦ .

(٥) الأعراف : ٧٤ .

(٧) الأنعام : ١٦٥ .

فإن قلت : لم لا يجوز أن يكون التشبيه ببني إسرائيل ثم يؤدي حق هذا المجتمع الصالح بما يعقبه من قوله : ﴿وليمكنهم دينهم﴾ إلى آخر الوعد ؟ .

قلت : نعم ولكن لا موجب حينئذٍ لاختصاص استخلاف بني إسرائيل لأن يشبه به وأن يكون المراد بالذين من قبلهم بني إسرائيل فقط كما تقدم .

وقوله : ﴿وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ تمكين الشيء إقراره في مكان وهو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال واضطراب وتزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع ولا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولاً به في المجتمع من غير كفر به واستهانة بأمره ، ومأخوذاً بأصول معارفه من غير اختلاف وتخاصم وقد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أن الاختلاف في الدين من بغى المختلفين كقوله : ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾^(١) .

والمراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام ، وأضاف الدين إليهم تشريفاً لهم ولكونه من مقتضى فطرتهم .

وقوله : ﴿وليدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ هو كقوله : ﴿وليمكنهم﴾ عطف على قوله : ﴿ليستخلفنهم﴾ وأصل المعنى : وليدلن خوفهم أمناً فنسبة التبديل إليهم إما على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدل عليه قوله : ﴿من بعد خوفهم﴾ والتقدير وليدلن خوفهم ، أو كون ﴿أمناً﴾ بمعنى : آمين .

والمراد بالخوف على أي حال ، ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار والمنافقين .

وقوله : ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ الأوفق بالسياق أن يكون حالاً من ضمير ﴿وليدلنهم﴾ أي وليدلن خوفهم أمناً في حال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً .

والالفتات في الكلام من الغيبة إلى التكلم ، وتأکید ﴿يعبدونني﴾ بقوله : ﴿لا يشركون بي شيئاً﴾ ووقوع النكرة - شيئاً - في سياق النفي الدال على نفي الشرك على الإطلاق كل ذلك يقضي بأن المراد عبادتهم لله عبادة خالصة لا يداخلها شرك جلي أو خفي ، وبالجمله يبذل الله مجتمعهم مجتمعاً آمناً لا يعبد فيه إلا الله ولا يتخذ فيه ربّ غيره .

(١) البقرة : ٢١٣ .

وقوله : ﴿ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون﴾ ظاهر السياق كون ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الموعود والأنسب على ذلك كون ﴿كفر﴾ من الكفران مقابل الشكر ، والمعنى : ومن كفر ولم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصي الموبقة فاولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق وهو الخروج عن زي العبودية .

وقد اشتد الخلاف بين المفسرين في الآية .

ف قيل : إنها واردة في أصحاب النبي ﷺ وقد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمناً بما أعز الإسلام بعد رحلة النبي في أيام الخلفاء الراشدين ، والمراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ أو الثلاثة الأول منهم ، ونسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم وهم الأربعة أو الثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض إلى الكل كقولهم : قتل بنو فلان وإنما قتل بعضهم .

وقيل : هي عامة لامة محمد ﷺ ، والمراد باستخلافهم وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمناً بإيراثهم الأرض كما أورثها الله الأمم الذين كانوا قبلهم أو استخلاف الخلفاء بعد النبي ﷺ - على اختلاف التقرير - وتمكين الإسلام وانهزام أعداء الدين وقد أنجز الله وعده بما نصر الإسلام والمسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار وسخروا الأقطار .

وعلى القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أو ان تحققه ولم يكن مرجواً ذلك يومئذ .

وقيل : إنها في المهدي الموعود ﷺ الذي تواترت الأخبار على أنه سيظهر فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وإن المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام .

والذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدم من البحث بالتحرز عن المسامحات التي ربما يرتكبها المفسرون في تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الأمة لا لجميعها ولا لأشخاص خاصة منهم وهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات فالآية نص في ذلك ، ولا قرينة من لفظ أو عقل يدل على كونهم هم الصحابة أو

النبي وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، ولا على أن المراد بالذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات جميع الأمة وإنما صرف الوعد إلى طائفة خاصة منهم تشريفاً لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكّم من غير وجه .

والمراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الأمم الماضين أولي القوة والشوكة ، وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك في الذين من قبلهم ، وأما إرادة الخلافة الإلهية بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام وهي السلطنة الإلهية فمن المستبعد أن يعبر عن أنبيائه الكرام بلفظ ﴿الذين من قبلهم﴾ وقد وقعت هذه اللفظة أو ما يمعناها في أكثر من خمسين موضعاً من كلامه تعالى ولم يقصد ولا في واحد منها الأنبياء الماضون مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن ، نعم ذكرهم الله بلفظ ﴿رسل من قبلك﴾ أو ﴿رسل من قبلي﴾ أو نحوهما بالإضافة إلى الضمير الراجع إلى النبي ﷺ .

والمراد بتمكين دينهم الذي ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلزله اختلافهم في أصوله ، ولا مساهلتهم في إجراء أحكامه ، والعمل بفروعه وخلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه .

والمراد من تبديل خوفهم أمناً انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدواً في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهراً أو مستخفياً على دينهم أو دنياهم .

وقول بعضهم : إن المراد الخوف من العدو الخارج من مجتمعهم كما كان المسلمون يخافون الكفار والمشركين القاصدين إطفاء نور الله وإبطال الدعوة .

تحكّم مدفوع بإطلاق اللفظ من غير قرينة معيّنة للمدّعي . على أن الآية في مقام الامتنان وأي امتنان على قوم لا عدو يقصدهم من خارج وقد أحاط بمجتمعهم الفساد وعمته البليّة لا أمن لهم في نفس ولا عرض ولا مال ، الحرية فيه للقدرة الحاكمة والسبق فيه للفئة الباغية .

والمراد بكونهم يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ما يعطيه حقيقة معنى اللفظ

وهو عموم إخلاص العبادة وانهدام بنيان كل كرامة إلا كرامة التقوى .

والمتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً خالصاً من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامة ولا أعمالهم إلا الدين الحق يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج ، أحراراً من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكم المتحكمين .

وهذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينعقد منذ بُعث النبي ﷺ إلى يومنا هذا ، وإن انطبق فليطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده .

فإن قلت : ما معنى الوعد حينئذ للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وليس المهدي عليه السلام أحد المخاطبين حين النزول ولا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم ؟

قلت : فيه خلط بين الخطابات الفردية والاجتماعية أعني الخطاب المتوجه إلى أشخاص القوم بما هم أشخاص بأعيانهم والخطاب المتوجه إليهم بما هم قوم على نعت كذا فالأول لا يتعدى إلى غير أشخاصهم ولا ما تضمنه من وعد أو وعيد أو غير ذلك يسري إلى غيرهم ، والثاني يتعدى إلى كل من اتصف بما ذكر فيه من الوصف ويسري إليه ما تضمنه من الحكم ، وخطاب الآية من القبيل الثاني على تقدم .

ومن هذا القبيل أغلب الخطابات القرآنية المتوجهة إلى المؤمنين والكفار ، ومنه الخطابات الدائمة لأهل الكتاب وخاصة اليهود بما فعله أسلافهم وللمشركين بما صنع آباؤهم .

ومن هذا القبيل خاصة ما ذكر من الوعد في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم ﴾ ^(١) ، فإن الموعودين لم يعيشوا إلى زمن إنجاز هذا

(١) الإسراء : ٧ .

الوعد ، ونظيره الوعد المذكور في قول ذي القرنين على ما حكاه الله : ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً﴾^(١) ، وكذا وعده تعالى الناس بقيام الساعة وانطواء بساط الحياة الدنيا بنفخ الصور كما قال : ﴿ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾^(٢) ، فوعد الصالحين من المؤمنين بعنوان أنهم مؤمنون صالحون بوعد لا يدركه أشخاص زمان النزول بأعيانهم ولما يوجد أشخاص المجتمع الذي يدرك إنجاز الوعد مما لا ضير فيه البتة .

فالحق أن الآية إن أعطيت حق معناها لم تنطبق إلا على المجتمع الموعود الذي سينعقد بظهور المهدي عليه السلام وإن سُمح في تفسير مفرداتها وجملها وكان المراد باستخلاف الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات استخلاف الأمة بنوع من التغليب ونحوه ، وبتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم كونهم معروفين في الدنيا بالأمة المسلمة وعدّهم الإسلام ديناً لهم وإن تفرّقوا فيه ثلاثاً وسبعين فرقة يكفر بعضهم بعضاً ويستبيح بعضهم دماء بعض وأعراضهم وأموالهم ، وبتبديل خوفهم أمناً يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً عزة الأمة وشوكتها في الدنيا وانبساطها على معظم المعمورة وظواهر ما يأتون به من صلاة وصوم وحج وإن ارتحل الأمن من بينهم أنفسهم وودّعهم الحق والحقيقة ، فالوجه أن الموعود بهذا الوعد الأمة ، والمراد باستخلافهم ما رزقهم الله من العزة والشوكة بعد الهجرة إلى ما بعد الرحلة ولا موجب لقصر ذلك في زمن الخلفاء الراشدين بل يجري فيما بعد ذلك إلى زمن انحطاط الخلافة الإسلامية .

وأما تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأول أو خصوص علي عليه السلام فلا سبيل إليه البتة .

قوله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ مناسبة مضمون الآية لما سيقّت لبيانها الآيات السابقة تعطي أنها من تمامها .

فقوله : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده ، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكليف الراجعة

(١) الكهف : ٩٨ .

(٢) الأعراف : ١٨٧ .

إلى الله تعالى وإلى الخلق ، وقوله : ﴿وأطيعوا الرسول﴾ إنفاذ لولايته ﷺ في القضاء والحكومة .

وقوله : ﴿لعلكم ترحمون﴾ تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة ، والمعنى - على ما يعطيه السياق : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازَه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين وعموم الصلاح والاتفاق على كلمة الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدرّ عليهم بكل خير .

قوله تعالى : ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ من تمام الآيات السابقة ، وفيها تأكيد ما مر من وعد الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل الخوف أمناً .

يخاطب تعالى نبيه ﷺ بعد الوعد - بخطاب مؤكد - أن لا يظن أن الكفار معجزون لله في الأرض فيمنعونهم بما عندهم من القوة والشوكة من أن ينجز وعده ، وهذا في الحقيقة بشرى خاصة بالنبي ﷺ بما أكرم به أمته وأن أعداءه سينهزمون ويغلبون ولذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات .

ولكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضة الدين وأهله عطف عليه قوله : ﴿ومأواهم النار﴾ الخ ، كأنه قيل : هم مقهورون في الدنيا ومسكنهم النار في الآخرة وبئس المصير .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿ويقولون آمنا بالله﴾ الآيات قيل : نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف .

وحكى البلخي أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي فخرجت فيها أحجار وأراد ردها بالعيب فلم يأخذها فقال : بيني وبينك رسول الله ﷺ فقال الحكم بن أبي العاص : إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه إليه فنزلت الآيات ، وهو المروي عن أبي جعفر ﷺ أو قريب منه .

أقول : وفي تفسير روح المعاني عن الضحاك أن النزاع كان بين علي والمغيرة بن وائل وذكر قريباً من القصة .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية : وروي عن أبي جعفر أن المعني بالآية أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ الآية ، أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال : قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم ونبغضهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم .

أقول : وفي معناه بعض روايات أخر مروية فيه لكن ينبغي أن لا يرتاب في أن الإسلام بما فيه من روح إحياء الحق وإماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم وإباحة السكوت وتحمل الضيم والاضطهاد قبال الطغاة والفجرة لمن يجد إلى إصلاح الأمر سبيلاً ، وقد اتضح بالأبحاث الاجتماعية اليوم أن استبداد الولاة برأيهم واتباعهم لأهوائهم في تحكمتهم أعظم خطراً وأخبث أثراً من إثارة الفتن وإقامة الحروب في سبيل إلجائهم إلى الحق والعدل .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ الآية : واختلف في الآية والمروي عن أهل البيت عليهم السلام أنها في المهدي من آل محمد .

قال : وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قرأ الآية وقال : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا وهو مهدي هذه الأمة ، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وبذلك وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدم بيان انطباق الآية على ذلك .

وقال في المجمع بعد نقل الرواية : فعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام انتهى . وقد عرفت أن

المراد به عام والرواية لا تدل على أزيد من ذلك حيث قال ﷺ : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ الآية قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد .

أقول : ظاهره أن المراد بالذين آمنوا الصحابة وقد عرفت أن الآية لا دلالة فيها عليه بوجه بل الدلالة على خلافه .

وفيه أخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضيء في المختارة عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحتون إلا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ الآية .

أقول : هو لا يدل على أزيد من سبب النزول وأما أن المراد بالذين آمنوا من هم ؟ وأن الله متى أنجز أو ينجز هذا الوعد ؟ فلا تعرض له به .

ونظيرته روايته الأخرى : لما نزلت على النبي ﷺ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ الآية قال : بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منكم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب .

فإن تبشير الأمة بالاستخلاف لا يستلزم كون المراد بالذين آمنوا في الآية جميع الأمة أو خصوص الصحابة أو نفراً معدوداً منهم .

وفي نهج البلاغة في كلام له لعمر لما استشاره لانطلاقه لقتال أهل الفارس حين تجمعوا للحرب قال ﷺ : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقله ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزّه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ، ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً .

والله تعالى منجز وعده وناصر جنده ، ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز فإن انقطع النظام تفرق وربّ مفرق لم يجتمع ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً واستدر الرحي بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب فإنك إن إن شخصت من هذه الأرض تنقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك ، وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غداً يقولون : هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشد لكلهم عليك وطمعهم فيك .

فأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة .

أقول : وقد استدلل به في روح المعاني على ما ارتضاه من كون المراد بالاستخلاف في الآية ظهور الإسلام وارتفاع قدره في زمن الخلفاء الراشدين وهو بمعزل عن ذلك بل دليل على خلافه ، فإن ظاهر كلامه أن الوعد الإلهي لم يتم أمر إنجازه بعد وأنهم يومئذ في طريقه حيث يقول : والله منجز وعده ، وأن الدين لم يمكن بعد ولا الخوف بدّل أمناً وكيف لا ؟ وهم بين خوفين خوف من تنقض العرب من داخل وخوف من مهاجمة الأعداء من خارج .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال : كنت جالساً مع حذيفة وابن مسعود فقال حذيفة ذهب النفاق إنما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ ، وإنما هو اليوم الكفر بعد الإيمان فضحك ابن مسعود ثم قال : بئس تقول ؟ قال : بهذه الآية ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ إلى آخر الآية .

أقول : ليت شعري أين ذهب منافقوا عهد النبي ﷺ ؟ وشواهد الكتاب العزيز والتاريخ تدل على أنهم ما كانوا بأقل من ثلث أهل المدينة ومعظمهم بها أصدقوا الإسلام يوم رحلته ﷺ أم تغيرت آراؤهم في تربصهم الدوائر وتقليبهم الأمور ؟ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا

دُعَاءِ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) .

(بيان)

بقية الأحكام المذكورة في السورة وتختتم السورة بآخر الآيات وفيها إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يشرع بعلمه ، وسيظهر وسينكشف لهم حقيقته حين يرجعون إليه .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية . وضع الثياب خلعها وهو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يراهم عليها الأجنبي . والظهيرة وقت الظهر ، والعورة السوءة سُميت بها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار وكأن المراد بها في الآية ما ينبغي ستره .

فقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الخ ، تعقيب لقوله سابقاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا ﴾ الخ ، القاضي بتوقف دخول البيت على الإذن وهو كالاستثناء من عمومه في العبيد والأطفال بأنه يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم .

وقوله : ﴿ لِيَسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي مُروهم أن يستأذنوكم للدخول ، وظاهر الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ العبيد دون الإماء وإن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعناية التغليب ، وبه وردت الرواية كما سيجيء .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ يعني المميزين من الأطفال قبل البلوغ ، والدليل على تقيدهم بالتمييز قوله بعد : ﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ أي كل يوم بدليل تفصيله بقوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ أي وقت الظهر ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ، وقد أشار إلى وجه الحكم بقوله : ﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطلع عليكم فيها غيركم .

وقوله : ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان ولا لهم من أن لا يستأذنوكم في غير هذه الأوقات ، وقد أشار إلى جهة نفي الجناح بقوله : ﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾ أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمة فالاستيذان كلما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث .

ثم قال : ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي أحكام دينه التي هي آيات دالة عليه ﴿والله عليم﴾ يعلم أحوالكم وما تستدعيه من الحكم ﴿حكيم﴾ يراعي مصالحكم في أحكامه .

قوله تعالى : ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا﴾ الخ ، بيان أن حكم الاستيذان ثلاث مرات في الأطفال مغني بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم وهم البالغون من الرجال والنساء الأحرار ﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ .

قوله تعالى : ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ إلى آخر الآية . القواعد جمع قاعدة وهي المرأة التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها ، فتقوله : ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ وصف توضيحي ، وقيل : هي التي يشت من الحيض ، والوصف احترازي .

وفي المجمع : التبرج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، وأصله الظهور ومنه البرج البناء العالي لظهوره .

والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب ، والمعنى : والكباثر المسنة من النساء فلا بأس عليهن أن لا يحتجبن حال كونهن غير متبرجات بزينة .

وقوله : ﴿وأن يستعففن خير لهن﴾ كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب ، وقوله : ﴿والله سميع عليم﴾ تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن إليه من الأحكام .

قوله تعالى : ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إلى قوله ﴿أو صديقكم﴾ ظاهر الآية أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي ائتمنوا عليها أو بيوت

أصدقائهم فهم مأذونون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف وإفساد .

فقوله : ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ إلى قوله ﴿ولا على أنفسكم﴾ في عطف ﴿على أنفسكم﴾ على ما تقدمه دلالة أن عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحياناً وإلا فلا فرق بين الأعمى والأعرج والمريض وغيرهم في ذلك .

وقوله : ﴿من بيوتكم أو بيوت آبائكم﴾ الخ ، في عدّ ﴿بيوتكم﴾ مع بيوت الأقرباء وغيرهم إشارة إلى نفي الفرق في هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم وبيوت أقربائهم وما ملكوا مفاتحه وبيوت أصدقائهم .

على أن ﴿بيوتكم﴾ يشمل بيت الابن والزوج كما وردت به الرواية ، وقوله : ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ المفاتيح جمع مفتاح وهو المخزن ، والمعنى : أو البيت الذي ملكتم أي تسلطتم على مخازنه التي فيها الرزق كما يكون الرجل قيماً على بيت أو وكيلاً أو سُلّم إليه مفاتحه .

وقوله : ﴿أو صديقكم﴾ معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه ، والتقدير أو بيت صديقكم .

قوله تعالى : ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ الأشتات جمع شت وهو مصدر بمعنى التفرق استعمل بمعنى المتفرق مبالغة ثم جمع أو صفة بمعنى المتفرق كالحق ، والمعنى : لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين وبعضكم مع بعض أو متفرقين ، والآية عامة وإن كان نزولها لسبب خاص كما روي .

وللمفسرين في هذا الفصل من الآية وفي الفصل الذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها والغور في البحث عنها أولى ، وما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الذي يعطيه سياقهما .

قوله تعالى : ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة﴾ الخ ، لما تقدم ذكر البيوت فرّع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال : ﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ .

فقوله : ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها وقد بذل من قوله : ﴿على أنفسكم﴾ للدلالة على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان

وقد خلقهم الله من ذكر وأنثى على أنهم مؤمنون والإيمان يجمعهم ويوحدتهم أقوى من الرحم وأي شيء آخر .

وليس بعيد أن يكون المراد بقوله : ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أن يسلم الداخل على أهل البيت ويردوا السلام عليه .

وقوله : ﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أي حال كون السلام تحية من عند الله شرعها الله وأنزل حكمها ليحيي بها المسلمون وهو مبارك ذو خير كثير باق وطيب يلائم النفس فإن حقيقة هذه التحية بسط الأمن والسلامة على المسلم عليه وهو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ وقد مر تفسيره ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل .

قوله تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ ذكر قوله ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ بياناً للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتصافهم بحقيقة المعنى أي إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله بحقيقة الإيمان وأيقنوا بتوحيده تعالى واطمأنن نفوسهم وتعلقت قلوبهم برسوله .

ولذلك عقبه بقوله : ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ والأمر الجامع هو الذي يجمع الناس للتدبر في أطرافه والتشاور والعزم عليه كالحرب ونحوها .

والمعنى : وإذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الأمور العامة لم يذهبوا ولم ينصرفوا من عند الرسول حتى يسأذنوه للذهاب .

ولذلك أيضاً عقبه بقوله : ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ وهو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة وعدم الانفكاك .

وقوله : ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء ولا يأذن لمن لم يشأ .

وقوله : ﴿واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾ أمر له بالاستغفار لهم تطيباً لنفوسهم ورحمة بهم .

قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ إلى آخر الآية ، دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الأمور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، ودعوتهم ليشاورهم في أمر جامع ، ودعوتهم إلى الصلاة جامعة ، وأمرهم بشيء في أمر دنياهم أو آخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه ﷺ .

ويشهد بهذا المعنى قوله ذيلًا : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ وما يتلوه من تهديد مخالف في أمره ﷺ كما لا يخفى . وهو أنسب لسياق الآية السابقة فإنها تمدح الذين يلبون دعوته ويحضرون عنده ولا يفارقونه حتى يستأذنوه وهذه تذكّر وتهذد الذين يدعوه فيتسللون عنه لواذاً غير مهتمين بدعائه ولا معتنين .

ومن هنا يعلم عدم استقامة ما قيل : إن المراد بدعاء النبي ﷺ خطابه فيجب أن يفخم ولا يساوى بينه وبين غيره من الناس فلا يقال له : يا محمد ويا ابن عبد الله ، بل : يا رسول الله .

وكذا ما قيل : إن المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهى عن التعرض لدعائه عليهم بإسقاطه فإن الله تعالى لا يردُّ دعاءه هذا ، وذلك لأن ذيل الآية لا يساعد على شيء من الوجهين .

وقوله : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ التسلل : الخروج من البين برفق واحتيال من سلّ السيف من غمده ، واللواذ : الملاوذة وهو أن يلوذ الإنسان ويلتجئ إلى غيره فيستتر به ، والمعنى : أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس والحال أنهم يلوذون بغيرهم ويستترون به فينصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول ولا يعتنون به .

وقوله : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ظاهر سياق الآية بما تقدم من المعنى أن ضمير ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ للنبي ﷺ وهو دعاؤه ، ففي الآية تحذير لمخالف في أمر النبي ﷺ ودعوته من أن تصيبهم فتنة وهي البلية أو يصيبهم عذاب أليم .

وقيل : ضمير ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ راجع إلى الله سبحانه ، والآية وإن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهيه المذكور بقوله : ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ﴾ الخ ، في معنى أجيئوا دعاء الرسول ، وهو أمر ، وأول الوجهين أوجه .

قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾
اختتام للسورة ناظر إلى قوله في مفتحتها : ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها
آيات بينات﴾ فما في مختتمها كالتعليل لما في مفتحتها .

فقوله : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان لعموم الملك وأن كل
شيء مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما
تحتاج إليه ، والناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله وما يحتاج إليه فالذي يشرعه
لهم من الدين مما يحتاجون إليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشة مما
يحتاجون إليه في بقائهم .

فقوله : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ - أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة -
بمنزلة النتيجة المترتبة على الحاجة أي ملكه لكم ولكل شيء يستلزم علمه بحالكم
وبما يحتاجون إليه من شرائع الدين فيشرعه لكم ويفرضه عليكم .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معطوف
على قوله : ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ويعلم يوماً يرجعون إليه وهو يوم القيامة فيخبرهم
بحقيقة ما عملوا والله بكل شيء عليم .

وفي هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرعه وفرضه من الأحكام
والعمل به من جهة أنه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أن في الصدر حثاً على
القبول من جهة أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها وأنها التي ترفع بها
حاجتهم .

(بحث روائي)

في الدرّ المشهور في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ﴾ الآية ، أخرج
سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس
قال : آية لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لأمر جاريتي هذه - لجارية قصيرة
قائمة على رأسه - أن تستأذن عليّ .

وفي تفسير القمي في الآية قال : إن الله تبارك وتعالى نهى أن يدخل أحد في
هذه الثلاثة الأوقات على أحد لا أب ولا أخت ولا أم ولا خادم إلا بإذن ، والأوقات بعد
طلوع الفجر ونصف النهار وبعد العشاء الآخرة . ثم أطلق بعد هذه الثلاثة الأوقات

فقال : ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ يعني بعد هذه الثلاثة الأوقات ﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾ .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ملكتم أيمانكم﴾ قال : هي خاصة في الرجال دون النساء . قلت : فالنساء يستأذن في هذه الثلاث ساعات ؟ قال : لا ولكن يدخلن ويخرجن ﴿والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾ قال : من أنفسكم ، قال عليكم ^(١) استيذان كاستيذان من قد بلغ في هذه الثلاث ساعات .

أقول : وروى فيه روايات أخرى غيرها في كون المراد بالذين ملكتم أيمانكم المذكور دون الإناث عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

وفي المجمع في الآية : معناه مروا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى موضع خلواتكم عن ابن عباس وقيل : أراد العبيد خاصة عن ابن عمر وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وبهذه الأخبار ويظهر الآية يضعف ما رواه الحاكم عن علي عليه السلام في الآية قال : النساء فإن الرجال يستأذنون .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء وإنما هي في كتاب الله العشاء وإنما يعتم بحلاب الإبل .

أقول : وروى مثله عن عبد الرحمان بن عوف ولفظه : إن رسول الله ﷺ قال : لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم قال الله : ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ وإنما العتمة عتمة الإبل .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ ﴿أن يضعن من ثيابهم﴾ قال : الجلباب والخمار إذا كانت المرأة مسنة .

أقول : وفي معناه أخبار أخر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : كان

أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة في مواكلتهم .

وفيه أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال : خرج الحارث غارياً مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن زيد فخرج أن يأكل من طعامه وكان مجهوداً فنزلت .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكلة ويشاربه فأنزل الله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ .

أقول : وفي معنى هذه الروايات روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه أو صديقكم ﴾ قال : هؤلاء الذين سمى الله عز وجل في هذه الآية يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم وكذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا .

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : أنت ومالك لأبيك ، ثم قال أبو جعفر عليه السلام : وما أحب له أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج إليه مما لا بد له منه إن الله لا يحب الفساد .

وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألت عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال : يأكل منه فأما الأم فلا تأكل منه إلا قرضاً على نفسها .

وفيه بإسناده عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : للمرأة أن تأكل وأن تصدق وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدق .

وفيه بإسناده عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ قال : الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله فيأكل بغير إذنه .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ ، وقيل معناه من بيوت أولادكم ويدل عليه قوله ﷺ : أنت ومالك لأبيك . وقوله ﷺ : إن أطيّب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه .

أقول : وفي هذه المعاني روايات كثيرة أخرى .

وفي المعاني بإسناده عن أبي الصباح قال : سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية فقال : هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم .

أقول : وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ فإنها نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله ﷺ لأمر من الأمور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز وجل عن ذلك .

وفيه في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قال : نزلت في حنظلة بن أبي عياش وذلك أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد فاستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عند أهله فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال فاستشهد ، فقال رسول الله ﷺ : رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض فكان يسمى غسيل الملائكة .

وفيه في قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ قال : لا تدعوا رسول الله ﷺ كما يدعو بعضكم بعضاً ، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله عز وجل : ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ ، يقول : لا تقولوا : يا محمد ولا يا أبا القاسم لكن قولوا : يا نبي الله ويا رسول الله .

أقول : وروي مثله عن ابن عباس ، وقد تقدم أن ذيل الآية لا يلائم هذا المعنى تلك الملازمة .



سورة الفرقان



مكية ، وهي سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) .

(بيان)

غرض السورة بيان أن دعوة النبي ﷺ دعوة حققة عن رسالة من جانب الله تعالى وكتاب نازل من عنده وفيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفار على كون النبي ﷺ رسولا من جانب الله وكون كتابه نازلا من عنده ورجوع إليه كره بعد كره .

وقد استتبع ذلك شيئا من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك وذكر بعض أوصاف يوم القيامة وذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة ، والكلام فيها جار على سياق الإنذار والتخويف دون التبشير .

والسورة مكية على ما يشهد به سياق عامة آياتها نعم ربما استثنى منها ثلاث آيات وهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

ولعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمة الزنا لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آية الخمر من سورة المائدة أن الزنا والخمر كانا معروفين بالتحريم في الإسلام من أول ظهور الدعوة الإسلامية .

ومن العجيب قول بعضهم : إن السورة مدنية كلها إلا ثلاث آيات من أولها ﴿تبارك الذي﴾ إلى قوله ﴿نشوراً﴾ .

قوله تعالى : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ البركة بفتحين ثبوت الخير في الشيء كثبوت الماء في البركة بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض واستقر عليها ، ومنه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير وفي صيغته دلالة على المبالغة على ما قيل ، وهو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندرة .

والفرقان هو الفرق سمي به القرآن لنزول آياته متفرقة أو لتمييزه الحق من الباطل ويؤيد هذا المعنى إطلاق الفرقان في كلامه تعالى على التوراة أيضاً مع نزولها دفعة ، قال الراغب في المفردات : والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل ، وتقديره كتقدير رجل قنعان يقنع به في الحكم ، وهو اسم لا مصدر فيما قيل ، والفرق يستعمل فيه وفي غيره . انتهى .

والعالمون جمع عالم ومعناه الخلق قال في الصحاح : العالم الخلق والجمع العوالم ، والعالمون أصناف الخلق انتهى . واللفظة وإن كانت شاملة لجميع الخلق من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والجن والملك لكن سياق الآية - وقد جعل فيها الإنذار غاية لتنزيل القرآن - يدل على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهم الثقلان : الإنس والجن فيما نعلم .

وبذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم أن الآية تدل على عموم رسالته ﷺ لجميع ما سوى الله فإن فيه غفلة عن وجه التعبير عن الرسالة بالإنذار ونظير الآية قوله تعالى : ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾^(١) ، وقوله : ﴿وفضلناهم على العالمين﴾^(٢) .

(١) آل عمران : ٤٢ .

(٢) الجاثية : ١٦ .

والنذير بمعنى المنذر على ما قيل ، والإنذار قريب المعنى من التخويف .

فقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ أي ثبت وتحقق خير كثير فيمن نزل الفرقان على عبده محمد ﷺ ، وثبوت الخير الكثير العائد إلى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزل على عبده كتاباً فارقاً بين الحق والباطل منقذاً للعالمين من الضلال سائلاً لهم إلى الهدى .

والجمع في الآية بين نزول القرآن من عنده تعالى وكون النبي ﷺ رسولاً منه نذيراً للعالمين مع تسمية القرآن فرقاناً بين الحق والباطل وتوصيف النبي ﷺ بكونه عبداً له نذيراً للعالمين المشعر بكونه مملوكاً مأموراً لا يملك من نفسه شيئاً كل ذلك تمهيد لما سيحكي - عن المشركين من طعنهم في القرآن بأنه افتراء على الله اختلقه النبي ﷺ وأعانه على ذلك قوم آخرون ، ومن طعنهم في النبي ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وسائر ما تفوهوا به - وما يدفع به مطاعنهم .

فالمحصل أنه كتاب يفرق بحجته الباهرة بين الحق والباطل فلا يكون إلا حقاً إذ الباطل لا يفرق بين الحق والباطل وإنما يشبه الباطل بالحق ليلبس على الناس ، وأن الذي جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين ويدعوهم إلى الحق فلا يكون إلا على الحق ولو كان مبطلا لم يدع إلى الحق بل حاد عنه وانحرف على أن الله سبحانه يشهد في كلامه المعجز بصدق رسالته وأن الذي جاء به من الكتاب منزل من عنده .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالفرقان مطلق الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، وبعده عامة الأنبياء عليهم السلام ، ولا يخفى بعده من ظاهر اللفظ .

وقوله تعالى : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ اللام للتعليل وتدل على أن غاية تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذراً لجميع العالمين من الإنس والجن ، والجمع المحلى باللام يفيد الاستغراق ، ولا يخلو الإتيان بصيغة الجمع المحلى باللام من إشارة إلى أن للجميع إلهاً واحداً لا كما يذهب إليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إلهاً غير ما يتخذه الآخرون .

والاكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام في السورة مسوق سوق الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ إلى آخر الآية . الملك بكسر الميم وفتحها قيام شيء بشيء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبة المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر والنهي وأنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته وما في أيديهم ، ويطلق على القسم الثاني الملك بضم الميم .

فالمملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب المملك - بفتح الميم وكسر اللام - هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور ، وذلك يختص بسياسة الناطقين ، ولهذا يقال : ملك الناس ولا يقال : ملك الأشياء - إلى أن قال - فالمملك بالضم - ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم ، والمملك - بالكسر - كالجنس للمملك فكل ملك - بالضم - ملك بالكسر - وليس كل ملك - بالكسر - ملكاً - بالضم - انتهى .

وربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبة ، والملك بالضم بغيره .

فقوله تعالى : ﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ واللام للاختصاص - يفيد أن السماوات والأرض مملوكة له غير مستقلة بنفسها في جهة من جهاتها ولا مستغنية عن التصرف فيها بالحكم وأن الحكم فيها وإدارة رحاها يختص به تعالى فهو المليك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق .

وبذلك يظهر ترتب قوله : ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجة إلى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إدارة رحي جميع أموره ولا يملك تدبيرها جميعاً فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه والله سبحانه يملك كل شيء ويقوى على ما أراد ، وإما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده والله سبحانه يملك كل شيء سرمداً ولا يعتريه فناء وزوال فلا حاجة له إلى اتخاذ الولد البتة وفيه رد على المشركين والنصارى .

وكذا قوله تعالى بعده : ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ فإن الحاجة إلى الشريك إنما هي إذا لم يستوعب الملك الأمور كلها وملكه تعالى عام لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ ، وفيه رد على المشركين .

وقوله تعالى : ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ بيان لرجوع تدبير عامة الأمور إليه تعالى وحده بالخلق والتقدير فهو رب العالمين لا رب سواه .

بيان ذلك أن الخلقة لما كانت بتوسيط الأسباب المتقدمة على الشيء والمقارنة له استلزم ذلك ارتباط وجودات الأشياء بعضها ببعض فيتقَدَّر وجود كل شيء وآثار وجوده حسب ما تقدره العلل والعوامل المتقدمة عليه والمقارنة له فالحوادث الجارية في العالم على النظام المشهود مختلطة بالخلقة تابعة للعلل والعوامل المتقدمة والمقارنة وإذا لا خالق غير الله سبحانه فلا مدبر للأمر غيره فلا رب يملك الأشياء ويدبر أمرها غيره .

فكونه تعالى له ملك السماوات والأرض حاكماً متصرفاً فيها على الإطلاق يستلزم قيام الخلقة به إذ لو قامت بغيره كان الملك لذلك الغير ، وقيام الخلقة به يستلزم قيام التقدير به ، لكون التقدير متفرعاً على الخلقة ، وقيام التقدير به يستلزم قيام التدبير به فله الملك والتدبير فهو الرب عز شأنه .

وملكه تعالى للسماوات والأرض وإن استلزم استناد الخلق والتقدير إليه لكن لما كان الوثنيون مع تسليمهم عموم ملكه يرون أن ملكه للجميع وربوبيته لكل لا ينافي ملك آلهتهم وربوبيتهم للبعض بتفويضه تعالى ذلك إليهم فكل من الآلهة مليك في صقع ألوهيته رب لمربوبيته والله سبحانه ملك الملوك ورب الأرباب وإله الآلهة .

فلذلك لم يكف قوله : ﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ لإثبات اختصاص الربوبية به تعالى قبالهم بل احتج إلى الإتيان بقوله : ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ .

فكان قائلاً يقول : هب أن ملكه للسماوات والأرض يغنيه عن اتخاذ الولد والشريك الموجب لسلب ملكه عن بعض الأشياء لكن لم لا يجوز أن يتخذ بعض خلقه شريكاً لنفسه بتفويض بعض أمور العالم إليه مع كونه مالكاً له ولما فوضه إليه وهذا هو الذي كانت تراه المشركون فقد كانوا يقولون في تلبية الحج : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

فاجيب عنه بأن الخلق له سبحانه والتقدير يلزمه وإذا اجتمعا لزمهما التدبير فله سبحانه تدبير كل شيء فليس مع ملكه ملك ولا مع ربوبيته ربوبية .

فقد تحصل أن قوله : ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم

يكن له شريك في الملك ﴿ مسوق لتوحيد الربوبية ونفي الولد والشريك من طريق إثبات الملك المطلق ، وأن قوله : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ تقرير وبيان لمعنى عموم الملك وأنه ملك متقوّم بالخلق والتقدير موجب لتصديه تعالى لكل حكم وتدبير من غير أن يفوّض شيئاً من الأمر إلى أحد من الخلق .

وفي الآية والتي قبلها لهم أقوال أخر أغمضنا عن إيرادها لخلوها عن الجدوى .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ﴾ الخ ، لما نعت نفسه بأنه خالق كل شيء ومقدره وأن له ملك السماوات والأرض وهكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود ، أشار إلى ضلالة المشركين حيث عبدوا أصناماً ليست بخالقة شيئاً بل هي مخلوقة مصنوعة لهم ولا مالكة شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم .

وضمير ﴿ واتخذوا ﴾ للمشركين على ما يفيد السياق وإن لم يسبق لهم ذكر ومثل هذا التعبير يفيد التحقير والاستهانة .

وقوله : ﴿ من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ﴾ يريد به أصنامهم التي صنعوها بأيديهم بنحت أو نحوه ، وتوصيفها بالآلهة مع تعقيبها بمثل قوله : ﴿ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ﴾ إشارة إلى أن ليس لها من الألوهية إلا اسم سَمَّوها به من غير أن تتحقق من حقيقتها بشيء كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ﴾ (١) .

ووضع النكرة في قوله : ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ في سياق النفي مبالغة في تقريبهم حيث اعرضوا عن الله سبحانه وهو خالق كل شيء وتعلقوا بأصنام لا يخلقون ولا شيئاً من الأشياء بل هم أردأ حالاً من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبادهم مخلوقون لأوامهم ، ونظير الكلام جارٍ في قوله : ﴿ ضراً ولا نفعاً ﴾ وقوله : ﴿ موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ نفي للملك عنهم وهو ضروري في الإله إذ كان عبّادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر ويحلبوا إليهم النفع وإذا كانوا لا يملكون ضراً ولا نفعاً حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خيلاً وضلالاً .

وبذلك يظهر أن في وقوع ﴿لأنفسهم﴾ في السياق زيادة تقريع والكلام في معنى الترقى أي لا يملكون لأنفسهم ضرراً حتى يدفعوه ولا نفعاً حتى يجلبوه فكيف لغيرهم ؟ وقد قُدم الضر على النفع لكون دفع الضرر أهم من جلب النفع .

وقوله : ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ أي لا يملكون موتاً حتى يدفعوه عن عبادهم أو عمن شاءوا ولا حياة حتى يسلبوها عمن شاءوا أو يفيضوها على من شاءوا ولا نشوراً حتى يعيشوا الناس فيجازوهم على أعمالهم ، وملك هذه الأمور من لوازم الألوهية .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن ابن سنان عمن ذكره قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان أو شيء واحد ؟ فقال : القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به .

وفي الاختصاص للمفيد ، في حديث عبد الله بن سلام لرسول الله ﷺ قال : فأخبرني هل أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم ، قال : وأي كتاب هو ، قال : الفرقان ، قال : أولم سماه ربك فرقاناً ؟ قال : لأنه متفرق الآيات والصور أنزل في غير الألواح وغيره من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور أنزلت كلها جملة في الألواح والأوراق . قال : صدقت يا محمد .

أقول : كل من الروایتين نظرة إلى واحد من معني الفرقان المتقدمين .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦) وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا

وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا
لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ
جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ
لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا (١٢)
وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا
الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ
الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ
ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ
دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا
بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا
وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

(بيان)

تحكي الآيات عن المشركين ما طعنوا به في القرآن الكريم في النبي ﷺ وتجب عنه .

قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ الخ في التعبير بمثل قوله : ﴿وقال الذين كفروا﴾ من غير أن يقال :

وقالوا ، مع تقدم ذكر الكفار في قوله : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ تلويح إلى أن القائلين بهذا القول هم كفار العرب دون مطلق المشركين .

والمشار إليه بقولهم : ﴿ إن هذا ﴾ القرآن الكريم ، وإنما اكتفوا بالإشارة دون أن يذكروه باسمه أو بشيء من أوصافه إزراء به وحقاً لقدره .

والإفك هو الكلام المصروف عن وجهه ، ومرادهم بكونه إفكاً افتراء كونه كذباً اختلقه النبي ﷺ ونسبه إلى الله سبحانه .

والسياق لا يخلو من إيماء إلى أن المراد بالقوم الآخرين بعض أهل الكتاب وقد ورد في بعض الآثار أن القوم الآخرين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرؤون التوراة أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم فليل ما قيل .

وقوله : ﴿ فقد جاؤا ظلماً وزوراً ﴾ قال في مجمع البيان : إن جاء وأتى ربما كانا بمعنى فعل فيتعديان مثله فمعنى الآية فقد فعلوا ظلماً وكذباً ، وقيل : إن ظلماً منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد جاؤا بظلم ، وقيل : حال والتقدير فقد جاؤا ظالمين وهو سخي .

وفيه أيضاً : ومتى قيل : كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم ؟ قلنا : لما تقدم التحدي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى ههنا بالتنبيه على ذلك . انتهى والظاهر أن الجواب عن قولهم : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراء ﴾ - الخ ، وقولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ الخ ، جميعاً هو قوله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر ﴾ الخ ، على ما سنبين والجملة أعني قوله : ﴿ فقد جاؤا ظلماً وزوراً ﴾ رد مطلق لقولهم وهو في معنى المنع مع السند وسنده الآيات المشتملة على التحدي .

وبالجملة معنى الآية : وقال الذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلا كلاماً مصروفاً عن وجهه - حيث إنه كلام محمد ﷺ وقد نسبته إلى الله - افتري به على الله وأعانه على هذا الكلام قوم آخرون وهم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الذين كفروا بقولهم هذا ظلماً وكذباً .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ الأساطير جمع أسطورة بمعنى الخبر المكتوب ويغلب استعماله في الأخبار الخرافية

والاكتتاب هو الكتابة ونسبته إليه ﷺ مع كونه أمياً لا يكتب إنما هي بنوع من التجوز ككونه مكتوباً باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت إلى فلان كذا وكذا وإنما كتبه كاتبه بأمره ، والدليل على ذلك قوله بعد : ﴿فهي تملى عليه بكسرة وأصيلاً﴾ إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للإملاء ، وقيل : الاكتتاب بمعنى الاستكتاب .

والإملاء إلقاء الكلام إلى المخاطب بلفظه ليحفظه ويعيه أو إلى الكاتب ليكتبه والمراد به في الآية هو المعنى الأول على ما يعطيه سياق ﴿اكتبها فهي تملى عليه﴾ إذ ظاهره تحقق الاكتتاب دفعة والإملاء تدريجاً على نحو الاستمرار فهي مكتوبة مجموعة عنده تقرأ عليه وقتاً بعد وقت وهو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه وحفظه .

والبكرة والأصيل الغداة والعشي ، وهو كناية عن الوقت بعد الوقت ، وقيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم وآخر النهار بعد دخولهم في منازلهم وهو كناية عن أنها تملى عليه خفية .

والآية بمنزلة التفسير للآية السابقة فكأنهم يوضحون قولهم : إنه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون بأنهم كتبوا له أساطير الأولين ثم يملونها عليه وقتاً بعد وقت بقراءة شيء بعد شيء عليه ، وهو يقرؤها على الناس وينسبها إلى الله سبحانه .

فالآية بتمامها من كلام الذين كفروا ، وربما قيل : إن قوله : ﴿اكتبها فهي تملى عليه﴾ إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تمام كلامهم ، وهو استفهام إنكاري لقولهم : أساطير الأولين ، والسياق لا يساعد عليه .

قوله تعالى : ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ أمر للنبي ﷺ برد قولهم وتكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه وقتاً بعد وقت .

وتوصيفه تعالى بأنه يعلم السر أي خفيات الأمور وبواطنها في السماوات والأرض للإيدان بأن هذا الكتاب الذي أنزله منطوق على أسرار مطوية عن عقول البشر ، وفيه تعريض بمجازاتهم على جنایاتهم التي منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى وأنه من الأساطير وهو مما يعلمه تعالى .

وقوله : ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم وتأخير عقوبتهم على جنایاتهم وتكذيبهم للحق وجرأتهم على الله سبحانه .

والمعنى : قل إن القرآن ليس إفكاً مفترى ولا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمّنه أسرار خفية لا تصل إلى كنهها عقولكم ولا تحيط بها أحلامكم ، ورمىكم إياه بالإفك والأساطير وتكذيبكم لحقائقه جناية عظيمة تستحقون بها العقوبة غير أن الله سبحانه أمهلكم وأخر عقوبة جنائتكم لأنه متصف بالمغفرة والرحمة وذلك يستتبع تأخير العذاب ، هذا ملخص ما ذكره في معنى الآية .

وفيه أن السياق لا يساعد عليه فإن محصل معنى الآية على ما فسّره يرجع إلى رد دعوى الكفار كون القرآن إفكاً مفترى ومن الأساطير بدعوى أنه منزل من عند الله منطوق على أسرار خفية لا سبيل لهم إلى الوقوف عليها لا مساع في مقام المخاصمة لرد الدعوى بدعوى أخرى أو هي أخفى منها .

على أن التعليل بقوله : ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ إنما يناسب انتفاء العقوبة من أصلها دون الإمهال والتأخير وإنما المناسب للإمهال والتأخير من الأسماء هو مثل الحليم والعليم والحكيم دون الغفور الرحيم .

والأوفق لمقام المخاصمة والدفاع بإبانة الحق والتعليل بالمغفرة والرحمة أن يكون قوله : ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ تعليلاً لإنزال الكتاب وقد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيراً وهذه هي النبوة ، ويكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السر في السماوات والأرض للإيماء إلى أن في سرهم ما يستدعي شمول المغفرة والرحمة الإلهيتين لحالهم وهو طلبهم بفطرتهم وجبلتهم للسعادة والعاقبة الحسنى التي ليست حقيقتها إلا السعادة الإنسانية بشمول المغفرة والرحمة وإن أخطأ كثير منهم في تطبيقها على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها الدائرة فيكون حجة برهانية على حقيقة الدعوة النبوية المشتملة عليها القرآن ، وبطلان دعوى كونه إفكاً من أساطير الأولين .

وتقرير الحجة أن الله سبحانه يعلم السر في السماوات والأرض وهو يعلم أن في سرهم المستقر في سرائركم المجبولة عليه فطرتكم حباً للسعادة وطلباً وانتزاعاً للعاقبة الحسنى وحقيقتها فوز الدنيا والآخرة ، وكان سبحانه غفوراً رحيماً ومقتضى ذلك أن يجيبكم إلى ما تسألونه في سرهم وبلسان فطرتكم فيهديكم إلى سبيله التي تضمن لكم السعادة .

وهذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكاً مفتسرى على الله ولا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم وتستدعونه في سرركم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفرة والرحمة وإن توليتم حرمتكم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله ولو لم يكن نازلاً من عنده كما يخبر عنه لم يهد إلى حقيقة السعادة ولم يدع إلى محض الحق ولاختلفت بياناته فدعاكم تارة إلى ما فيه خيركم ونفعكم وهو الذي يجلب إليكم المغفرة والرحمة ، وتارة إلى ما هو شر لكم وضار وهو الذي يثير عليكم السخط الإلهي ويستوجب لكم العقوبة .

قوله تعالى : ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾ هذه حكاية ما طعنوا به في الرسول بعد ما حكى طعنهم في القرآن بقوله : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه﴾ الخ .

وتعبرهم عنه ^{بأنزل الله} بقولهم : ﴿هذا الرسول﴾ مع تكذيبهم برسالته مبني على التهكم والاستهزاء .

وقولهم : ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ استفهام للتعجب والوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب وهو متعلق الوجود بالمادة منغمر في ظلماتها ، ومتلوث بقذاراتها ، ولذا يتوسلون في التوجه إلى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله ويقرّبوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقرّبون عند الله المتصلون بالغيب المعيّنون للرسالة لو كانت هناك رسالة ، وليس للبشر شيء من ذلك .

ومن هنا يظهر معنى قولهم : ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ وأن المراد أن الرسالة لا تجمع أكل الطعام والمشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنها اتصال غيبي لا يجمع التعلقات المادية ، وليست إلا من شؤون الملائكة ولذا قالوا في غير موضع على ما حكاه الله تعالى : ﴿لو شاء لأنزل ملائكة﴾^(١) أو ما في معناه .

(١) المؤمنون : ٢٤ .

ومن هنا يظهر أيضاً أن قولهم : ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ تنزل من المشركين في الاقتراح أي كيف يكون هذا المدعي للرسالة رسولاً وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق والرسول لا يكون إلا ملكاً منزهاً عن هذه الخصال المادية ، فإن تنزلنا وسلمنا رسالته وهو بشر فلينزل إليه ملك يكون معه نذيراً ليتصل الإنذار وتبليغ الرسالة بالغيب بتوسط الملك .

وكذا قولهم : ﴿أو يلقى إليه كنز﴾ تنزل عما قبله من الاقتراح أي إن لم ينزل إليه ملك واستقل بالرسالة وهو بشر فليلق إليه من السماء كنز حتى يصرف منه في وجوه حوائجه المادية ولا يكدر في الأسواق في اكتساب ما يعيش به ، ونزول الكنز إليه أسهل من نزول الملك إليه ليعينه في تبليغ الرسالة .

وكذا قولهم : ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ تنزل عما قبله في الاقتراح ، والمعنى : وإن لم يلق إليه كنز فليكن له جنة يأكل منها ولا يحتاج إلى كسب المعاش وهذا أسهل من إلقاء الكنز إليه .

قوله تعالى : ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر - كما قيل - فهو من وضع الظاهر موضع المضمرة ووصفهم بالظلم للدلالة على بلوغهم في الظلم والاجترار على الله ورسوله .

وقولهم : ﴿إن تتبعون﴾ الخ ، خطاب منهم للمؤمنين تعبيراً لهم وإغواء عن طريق الحق ، ومرادهم بالرجل المسحور النبي ﷺ يريدون أنه مسحور سحره بعض السحرة فصار يخيل إليه أنه رسول يأتيه ملك الوحي بالرسالة والكتاب .

قوله تعالى : ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلاً فلا يستطيعون سبيلاً﴾ الأمثال الأشباه وربما قيل : إن المثل هنا بمعنى الوصف على حدّ قوله تعالى : ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾^(١) ، والمحصّل : انظر كيف وصفوك فضلاً فيك ضلالاً لا يرجى معه اهتداؤهم إلى الحق كقولهم إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة لأن الرسول يجب أن يكون شخصاً غيبياً لا تعلق له بالمادة ولا أقل من عدم احتياجه إلى الأسباب العادية في تحصيل المعاش ، وكقولهم : إنه رجل مسحور .

وقوله : ﴿فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي تفرّع على هذه الأمثال التي ضربوها لك أنهم ضلّوا ضلالاً لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق ولا يرجي لهم معه الاهتداء فإن من أخطأ الطريق ربما أخطأها بانحراف يسير يرجي معه ركوبها ثانياً ، وربما استدبرها فصار كلما أمعن في مسيره زاد منها بعداً ، ومن سمى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل يزد تعتاً ولجاجاً واستهزاء بالحق كيف يرجي اهتداؤه وحاله هذه ؟ .

قوله تعالى : ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ الإشارة في قوله : ﴿من ذلك﴾ إلى ما اقترحوه من قولهم : ﴿أو يكون له جنة يأكل منها﴾ أو إلى مجموع ما ذكروه من الكنز والجنة . والقصور جمع قصر وهو البيت المشيد العالي ، وتنكير ﴿قصوراً﴾ للدلالة على التعظيم والتفخيم .

والآية بمنزلة الجواب عن طعنهم بالنبي ﷺ واقتراحهم أن ينزل إليه ملك أو يُلقى إليه كنز أو يكون له جنة غير أن فيها التفاتاً من التكلم إلى الغيبة فلم يقل : قل إن شاء ربي جعل لي كذا وكذا بل عدل إلى قوله : ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك﴾ الخ .

وفيه تلويح إلى أنهم لا يستحقون جواباً ولا يصلحون لأن يخاطبوا لأنهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبي ﷺ لم يذكر لهم إلا أنه بشر مثلهم يوحى إليه ، ولم يدّع أن له قدرة غيبية وسلطنة إلهية على كل ما يريد أو يراد منه ؛ كما قال تعالى بعدما حكى بعض اقتراحاتهم في سورة الإسراء : ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ (١) .

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عما اقترحوه ، وإنما ذكر لنبيه ﷺ أن ربه الذي اتخذه رسولاً وأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً قادر على أعظم مما يقترحونه فإن شاء جعل له خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل له قصوراً لا يبلغ وصفها واصف وذلك خير من أن يكون له جنة يأكل منها أو يلقي إليه كنز ليصرفه في حوائجه .

وبهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنة ، وأما نزول الملك إليه ليشاركه في الانذار ويعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه ، وقد أجاب تعالى عنه في مواضع من كلامه بأجوبة مختلفة كقوله : ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾^(١) ، وقوله : ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾^(٣) ، وقد تقدم تقرير حجة كل من الآيات في ضمن تفسيرها .

ومن هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات والقصور له عليه السلام جعله في الدنيا على ما يقتضيه مقام المخاصمة ورد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت وكيت وهم يريدون تعجيزك وتبكيك وإن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار «الخ» وهي لا محالة في الدنيا وإلا لم ينقطع به الخصام .

وبذلك يتبين فساد ما نقل عن بعضهم أن المراد جنات الآخرة وقصورها وأفسد منه قول آخرين إن المراد جعل جنات تجري من تحتها الأنهار في الدنيا وجعل القصور في الآخرة ، وربما استونس لذلك بأن التعبير في الجنات بقوله : ﴿إن شاء جعل﴾ وهو صيغة ماضٍ مفيدة للتحقق مناسبة للدنيا ، وفي القصور بقوله : ﴿يجعل﴾ وهو صيغة مستقبل مناسبة للآخرة هذا مع أن الفعل الواقع في حيز الشرط منسلخ عن الزمان ، والاختلاف في التعبير تفنن فيه وتجديد لصورة الكلام والله العالم .

قوله تعالى : ﴿بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ ، اضراب عن طعنهم فيه عليه السلام واعتراضهم عليه بأكل الطعام والمشى في الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أي ما كذبوك وردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق فإنما هو كلام منهم صوري بل السبب الأصلي في إنكارهم نبوتك وطعنهم فيك أنهم كذبوا بالساعة وأنكروا المعاد ، ومن المعلوم أن لا وقع للنبوة مع إنكار الساعة ولا معنى للدين والشرعية لولا المحاسبة والمجازاة .

فالإشارة إلى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض والاقتراح والجواب ههنا نظير ما وقع في سورة الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الأصلي في قوله : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ .

وذكر جمع من المفسرين أن قوله : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ حكاية لبعض آخر من أباطيلهم كما حكى بعضاً آخر منها متعلقاً بالتوحيد والكتاب والرسالة في قوله : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك ﴾ الخ ، وقوله : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل ﴾ الخ .

ثم تشعبوا في نكتة الإضراب ، فذكر بعضهم أن الوجه فيه كون المعاد لا ريب فيه ، وقال بعضهم : إن إنكاره أعظم ، وقال بعضهم : إنه أعجب إلى غير ذلك .

والحق أن السياق لا يساعد عليه فإن السياق المتعرض لطعنهم في الرسول ﷺ والجواب عنه لم يتم بعد بشهادة قوله بعد : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ الخ ، وما يتلوه من الآيات فلا معنى لاعتراض حكاية تكذيبهم بالساعة بين الآيات الحاكية لتكذيبهم بالرسول والمجيبه عنه ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ وضع الموصول والصلة مكان الضمير الراجع للدلالة على أن الجزاء بالسعير ثابت في حق كل من كذب بالساعة هم وغيرهم فيه سواء ، وعلى أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعة .

ووضع الساعة ثانياً موضع ضميرها ليكون أنص وأصرح فهو المناسب لمقام التهديد ، والسعير النار المشتعلة الملتهبة .

قوله تعالى : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ في المفردات : الغيظ أشد غضب - إلى أن قال - والتغيظ هو إظهار الغيظ ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال : ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ انتهى ، وفيه أيضاً : الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه ، انتهى .

والآية تمثل حال النار بالنسبة إليهم إذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا
ظهروا لها كالأسد يزار إذا رأى فريسته .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقَرَّنِينَ دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾
﴿مَكَانًا﴾ منصوب بتقدير في ، والثبور الويل والهلاك .

والتقرين التصفيد بالأغلال والسلاسل وقيل : هو جعلهم مع قرناء الشياطين
وهو بعيد من اللفظ . والمعنى وإذا أُلْقُوا يوم الجزاء في مكان ضيق من النار وهم
مصفدون بالأغلال دعوا هنالك ثبوراً لا يوصف وهو قولهم : واثبوره .

قوله تعالى : ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ الاستغاثة
بالويل والثبور نوع احتيال للتخلص من الشدة وإذا كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا
ينفع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب للتخاص من الشدة وإذا كان اليوم يوم الجزاء
فحسب لا ينفع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب البتة لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلاً
ولذا قال تعالى : ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ﴾ الخ ، فهو كناية عن أن الثبور لا ينفعكم اليوم
سواء استقللتم منه أو استكثرتم . فهو في معنى قوله تعالى : ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ
لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾^(١) ، وقوله حكاية عنهم : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبْرْنَا مَا
لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾^(٢) .

وقيل : المراد أن عذابكم طويل مؤبد لا ينقطع بثبور واحد بل يحتاج إلى
ثبورات كثيرة . وهو بعيد .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ إلى قوله
﴿مُسْتَوَلًا﴾ الإشارة إلى السعير بما له من الوصف ، أمر نبيه ﷺ أن يسألهم أيهما
أرجح السعير أم جنة الخلد ؟ والسؤال سؤال في أمر بديهي لا يتوقف في جوابه
عقل وهو دائر في المناظرة والمخاصمة يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهي
الصحة والآخر بديهي البطلان فيكلف أن يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف
بما كان ينكره ، وإن اختار الباطل افتضح .

وقوله : ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ إضافة إلى الخلد وهو الدوام للدلالة على كونها في

(١) الطور : ١٦ .

(٢) إبراهيم : ٢١ .

نفسها خالدة لا تفنى كما أن قوله بعد : ﴿خالدين﴾ للدلالة على أن أهلها خالدون فيها لا سبيل للفناء إليهم .

وقوله : ﴿وعد المتقون﴾ تقديره وعدّها المتقون لأن وعد يتعدى لمفعولين والمتقون مفعول ثان ناب عن الفاعل .

وقوله : ﴿كانت لهم جزاء ومصيراً﴾ أي جزاء لتقواهم ومنقلباً ينقلبون إليه بما هم متقون كما قال تعالى : ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ إلى أن قال ﴿وما هم منها بمخرجين﴾^(١) ، وهو من الأقضية التي قضاها يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له ، ويتعين به جزاء المتقين ومصيرهم كما تقدم في تفسير سورة الحجر .

وقوله : ﴿لهم فيها ما يشاؤون خالدين﴾ أي إنهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيئتهم ، ولا تتعلق مشيئتهم إلا بما يحبونه ويشتونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم : ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾^(٢) ، ولا يحبون ولا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعاً وهو الذي يحبه الله لهم وهو ما يستحقونه من الخير والسعادة مما يستكملون به ولا يستضرون به لا هم ولا غيرهم فافهم ذلك .

وبهذا البيان يظهر أن لهم إطلاق المشية يعطون ما شاءوا وأرادوا غير أنهم لا يشاؤون إلا ما فيه رضى ربهم ، ويندفع به ما استشكل على الآيات الناطقة بإطلاق المشية كهذه الآية أن لازم إطلاق المشية أن يجوز لهم أن يريدوا بعض المعاصي والقبائح والشنائع واللغو ، وأن يريدوا بعض ما يسوء سائر أهل الجنة ، وأن يريدوا نجاة بعض المخلدين في النار ، وأن يريدوا مقامات الأنبياء والمخلصين من الأولياء ممن هم فوقهم درجة إلى غير ذلك .

كيف ؟ وقد قال تعالى : ﴿يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾^(٣) فهم راضون بما رضى به الله وراضيون لا يريدون إلا ما يرتضيه فلا يريدون معصية ولا قبيحاً ولا شنيعاً ولا لغواً

(١) الحجر : ٤٨ .

(٢) سبأ : ٥٤ .

(٣) الفجر : ٢٧ ، ٣٠ .

ولا كذاباً ، ولا يريدون ما لا يرتضيه غيرهم من أهل الجنة ، ولا يريدون ارتفاع العذاب ممن يريد ربهم عذابه ، ولا يشاؤون ولا يتمنون مقام من هو أرفع درجة منهم لأن الذي خصهم بها هو ربهم وقد رضوا بما فعل وأحبوا ما أحبه .

وقوله تعالى : ﴿ كان على ربك وعداً مستوثلاً ﴾ أي كان هذا الوعد الذي وعده المتقون وعداً على ربك يجب عليه أن يفي به ، وإنما أوجبه هو تعالى على نفسه حيث قضى بذلك أول يوم ، وأخبر عن ذلك بمثل قوله : ﴿ وأن للمتقين لحسن مآب جنات عدن ﴾ إلى أن قال ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ (١) .

ووجه اتصاف هذا الوعد بكونه مستوثلاً أن المتقين سألوا ربهم ذلك بلسان حالهم واستعدادهم ، أو سألوه ذلك في دعائهم ، أو الملائكة سألوا ذلك كما فيم يحكيه الله عنهم : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ - الخ (٢) أو جميع هذه الأسئلة .

وذكر الطبرسي «ره» في الآية أن قوله : ﴿ كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾ حال من ضمير الجنة المقدر في ﴿ وعد المتقون ﴾ ، وأن قوله : ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ حال من ﴿ المتقون ﴾ وهو أقرب إلى الذهن من قول غيره أن الجملتين استينافان في موضع التعليل كالجواب لسؤال مقدر .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ﴾ إلى آخر الآية ضمائر الجمع الأربعة عائدة إلى الكفار ، والمراد بما يعبدون الملائكة والمعبودون من البشر والأصنام إن كان ﴿ ما ﴾ أعم من غير أولي العقل ، وإلا فالأصنام فقط .

والمشار إليهم المعنيون بقوله : ﴿ عبادي هؤلاء ﴾ الكفار ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ الخ ، جواب المعبودين عن قوله : ﴿ ءانتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ الخ ، وقد بدءوا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية في موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك أو ما يوهم ذلك بوجه .

وقوله : ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أي ما صح وما استقام

(١) ص : ٥٣ .

(٢) المؤمن : ٨ .

لنا أن نتجاوزك إلى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء وهم الذين عبدونا واتخذونا أولياء من دونك ، وقوله : ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾ البور جمع بائر وهو الهالك وقيل : الفاسد .

لما نفى المعبودون المسؤولون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال إلى أنفسهم أخذوا في نسبته إلى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذي أضلهم وهو أنهم كانوا قوماً هالكين أو فاسدين وقد متعتهم وآباءهم من أمتعة الحياة الدنيا ونعمها حتى طال عليهم التمتع امتحاناً وابتلاء فتمتعوا منها واشتغلوا بها حتى نسوا الذكر الذي جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد إلى الشرك .

فكونهم قوماً هالكين أو فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا وانهماكهم في الشهوات هو السبب في استغراقهم في التمتع وانصراف همهم إلى الاشتغال بالأسباب وهو السبب لنسيانهم الذكر والعدول عن التوحيد إلى الشرك .

فتبين بذلك أن قوله : ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ من تمام الجواب وأما من جعل الجملة اعتراضاً تذييلياً مقررراً لمضمون ما قبله واستفاد منه أن السبب الأصلي في ضلالهم أنهم كانوا بحسب ذواتهم أشقياء هالكين ، وليس ذلك إلا بقضاء حتم منه تعالى في سابق علمه فهو المضل لهم حقيقة ، وإنما نسب إلى أنفسهم أدباً .

ففيه أولاً : إنه إفساد لمعنى الآية إذ لا موجب حينئذ لإيراد الاستدراك بقوله : ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ لكونه فضلاً لا حاجة إليه .

وثانياً : أن نسبة البوار والشقاء إلى ذوات الأشياء ينافي ما أطبق عليه العقلاء بفطرتهم من تأثير التعليم والتربية ، والحس والتجربة يؤيدان ذلك ، وهو يناقض القول بالاختيار والجبر معاً ، أما مناقضة القول بالاختيار فظاهر ، وأما مناقضة القول بالجبر فلأن الجبري يقصر العلية في الواجب تعالى وينفيه عن غيره ويناقضه نسبة الاقتضاء الضروري إلى ذوات الأشياء وماهياتها .

وثالثاً : أن فيه خلطاً في معنى القضاء من حيث متعلقه فكون القضاء حتماً لا يوجب خروج الفعل الذي تعلق به من الاختيار إلى الإيجاب فإن القضاء إنما تعلق بالفعل بحدوده وهو صدوره عن اختيار الفاعل من حيث إنه صادر عن اختياره فتعلقه يوجب تأكيد كونه اختيارياً لا أنه يزيل عنه وصف الاختيار .

ورابعاً : أن قولهم : إن المضلّ بالحقيقة هو الله وإنما نسبوا الضلال إلى الكفار أنفسهم تأدّباً وبمثله صرّحوا في نسبة المعاصي والأعمال القبيحة الشنيعة والفجائع الفظيعة إلى فواعلها أنها في عين أنها من أفعاله تعالى إنما تنسب إلى غيره تأدّباً كلام متهافت فإن الأدب - كما تقدم تفصيل القول فيه في الجزء السادس من الكتاب - هو الهيئة الحسنة التي ينبغي أن يقع عليها فعل ما ، وبعبارة أخرى ظرافة الفعل ، وإذا كان الحق الصريح في الفعل غير الجميل أنه فعل الله سبحانه ولا يشاركه في فعله غيره بأي وجه فرض كانت نسبته إلى غيره تعالى نسبة باطلة غير حق وكذباً وفرية لا تطابق الواقع فليت شعري أي أدب جميل في إمالة حق صريح وإحياء باطل ؟ وأي ظرافة ولطف في الكذب والفرية بإسناد الفعل إلى غير فاعله ؟ .

والله سبحانه أجلّ من أن يعظم بباطل أو بالستر على بعض أفعاله أو بالكذب والفرية بإسناد بعض ما يفعله إلى غيره ، وإذا كان جميلاً لا يفعل إلا الجميل فما معنى التأدّب بنفي بعض أفعاله عنه ؟ .

قوله تعالى : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون فلا تستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴾ إلى آخر الآية ، كلام له تعالى يلقيه إلى المشركين بعد براءة المعبودين منهم ، وأما كلام المعبودين فقد تمّ في قوله : ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ .

والمعنى : فقد كذبكم المعبودون بما تقولون في حقهم إنهم آلهة من دون الله يصرفون عن عبادتهم سوء وينصرونهم ، وإذا كذبوكم ونفوا عن أنفسهم الألوهية والولاية فلا تستطيعون أنتم أيها العبداء أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم ، ولا تستطيعون نصراً لأنفسكم بسببهم .

والترديد بين الصرف والنصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين في دفع العذاب عنهم وهو الصرف . وعدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب وهو النصر .

وقرأ غير عاصم من طريق حفص « يستطيعون » بالياء المثناة من تحت وهي قراءة حسنة ملائمة لمقتضى السياق ، والمعنى : فقد كذبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهة يصرفون عنكم سوء أو ينصرونكم ويتفرّع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفاً ولا نصراً .

وقوله : ﴿ ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾ المراد بالظلم مطلق الظلم

والمعصية وإن كان مورد الآيات السابقة خصوص الظلم الذي هو الشرك ، فقله : ﴿ومن يظلم منكم﴾ الخ ، من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص ، ولو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال : ونذيقكم بما ظلمتم عذاباً كثيراً لأنهم كلهم ظالمون ظلم الشرك .

والنكتة فيه الإشارة إلى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقب له كأنه قيل : وإن كذبكم المعبودون وما استطاعوا صرفاً ولا نصراً فالحكم العام الإلهي ﴿من يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ على نفوذه وجريانه لا مانع منه ولا معقب له فأنتم ذائقون العذاب البتة .

قوله تعالى : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ إلى آخر الآية . أجاب تعالى عن قولهم : ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ الخ ، أولاً بقوله : ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الخ ، مع ما يلحقه من قوله : ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ الخ ، وهذا جواب ثان محصّله أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل إلى الناس بل أرسل الله قبله جمّاً غفيراً من المرسلين وقد كانوا على العادة البشرية الجارية بين الناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ولم يخلق لهم جنة يأكلون منها ولا ألقي إليهم كنز ولا أنزل معهم ملك ، وهذا الرسول إنما هو كأحدهم ولم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره .

فالآية في معنى قوله : ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾^(١) ، وقريبة المعنى من قوله : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾^(٢) .

فإن قيل : هذا في الحقيقة دفع للاعتراض عنه ﷺ خاصة وتوجيهه إلى عامة الرسل فلهم أن يعترضوا على عامة الرسل كما وجهه سابقهم وقد حكى الله عنهم ذلك قال : ﴿قالوا أبشر يهودوننا﴾^(٣) ، وقال : ﴿قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾^(٤) ، وقال : ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾^(٥) .

(١) الأحقاف : ٩ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

(٤) إبراهيم : ١٠ .

(٥) المؤمنون : ٣٣ .

(٣) التغابن : ٦ .

قلنا : الجواب مطابق للاعتراض فإن قولهم : ﴿ما لهذا الرسول يأكل﴾ الخ ، يعطي الخصوصية بلا إشكال وأما تعميم الاعتراض لو عمّم فيدفعه قوله تعالى : ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ الخ ، وقوله قبل ذلك : ﴿قل أنزل الذي يعلم السر﴾ الخ ، على ما تقدم من التقرير .

ومن عجيب القول ما عن بعض المفسرين أن الآية تسلية للنبي ﷺ كأنه قيل : إن الرسل من قبلك كانوا على الحال التي أنت عليها فلك فيهم أسوة حسنة ، وأما كونه جواباً عن تغنتهم فالنظم لا يساعد عليه إذ قد أجيب عنه بقوله : ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ هذا وهو خطأ .

وقوله تعالى : ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ متمم للجواب السابق بمنزلة التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشرية من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماوية تورث القطع بكونهم حاملين للرسالة الإلهية كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كتز إليهم أو خلق جنة لهم فكأنه قيل : والسبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجري عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان والمتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعة الله وسلوك سبيله .

وبما مر يتبين أولاً : أن المراد بالصبر هو الصبر بأقسامه وهي الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر عند المصائب .

وثانياً : أن قوله : ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ من وضع الحكم العام موضع الخاص ، والمطلوب الإشارة إلى جعل الرسل - وحالهم هذه الحال - فتنة لسائر الناس .

وقوله تعالى : ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي عالماً بالصواب في الأمور فيضع كل أمر في الموضع المناسب له ويجري بذلك أتم النظام فهدف النظام الإنساني كمال كل فرد بقطعه طريق السعادة أو الشقاوة على حسب ما يستعد له ويستحقه ولازمه بسط نظام الامتحان بينهم ولازمه ارتفاع التمايز بين الرسل وغيرهم .

وفي الجملة التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ، والنكته فيه نظيرة ما في

قوله السابق : ﴿تبارك الذي إن شاء﴾ الخ .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية وأميه ابن خلف والعاصي بن وائل ونبيه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك .

قال : فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا له : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك ، وإن كنت تطلب ملكاً ملّكناك .

فقال رسول الله ﷺ : ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عني أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً عرضناه عليك فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك عما تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل . ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً .

فأنزل الله في قولهم ذلك ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ إلى قوله ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ . أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴿أي جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولي فلا تخالفوه لفعلت﴾ .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعداً من بين عيني جهنم . قالوا : يا رسول الله وهل لجهنم من عين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ فَهَلْ تَرَاهُمْ إِلَّا بَعَيْنِينَ ؟ 》 .

أقول : ورواه أيضاً عن رجل من الصحابة ، وفي حجة الخبر خفاء .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا الْقَوَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَنِينَ 》 قال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهون في النار كما يستكره الودد في الحائط .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغُمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) .

(بيان)

تحكي الآيات اعتراضاً آخر من المشركين على رسالة الرسول يردُّون به عليه محصّله أنه لو جاز أن يكون من البشر بما هو بشر رسول تنزل عليه الملائكة بالوحي من الله سبحانه أو يراه تعالى فيكلمه وحيّاً لكان الرسول وسائر البشر سواء في هذه الخصيصة فإن كان ما يدّعيه من الرسالة حقّاً لكنّا أو كان البعض منا يرى ما يدّعي رؤيته ويجد من نفسه ما يجده .

وهذا الاعتراض مما سبقهم إليه أمم الأنبياء الماضين كما حكاها الله : ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾^(١) ، وقد مرّ تقريره مراراً .

وهذا مع ما تقدم من اعتراضهم بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ الخ ، بمنزلة حجة واحدة تلزم الخصم بأحد محذورين ومحصّل تقريره أن الرسالة التي يدّعيها هذا الرسول إن كانت موهبة سماوية واتصالاً غيبياً لا حظ فيها للبشر بما هو بشر فليُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو يجعل له جنة يأكل منها ، وإن كانت خاصة من شأن البشر بما هو بشر أن ينالها يتصف بها فما بالناس لا نجدوها في أنفسنا ؟ فلولاً أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

وقد أجاب الله سبحانه عن الشق الأول بما تقدم تقريره ، وعن الثاني بأنهم سيرون الملائكة لكن في نشأة غير هذه النشأة الدنيوية ، والجواب في معنى قوله : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾^(٢) وسيجيء تقريره ، وفي الآيات إشارة إلى ما بعد الموت ويوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ قال في مجمع البيان : الرجاء ترقيب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه ومثله الطمع والأمل ، واللقاء المصير إلى الشيء من غير حائل ، والعتو الخروج إلى أفحش الظلم . انتهى .

والمراد باللقاء الرجوع إلى الله يوم القيامة سمي به لبروزهم إليه تعالى بحيث لا

(١) إبراهيم : ١٠ .

(٢) الحجر : ٨ .

يبقى في البين حائل جهل أو غفلة العظمة الإلهية كما قال تعالى : ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد وتكذيبهم بالساعة ولم يعبر عنه بتكذيب الساعة ونحوه كما عبر في الآيات السابقة لمكان ذكرهم مشاهدة الملائكة ورؤية الرب تعالى وتقدس ففيه إشارة إلى أنهم إنما قالوا ما قالوا وطلبوا إنزال الملائكة أو رؤية الرب ليأسهم من اللقاء وزعمهم استحالة ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل على زعمهم .

فقولهم : ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ اعتراض منهم على رسالة الرسول أورده في صورة التحضيض كقولهم في موضع آخر : ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾^(١) ، وتقرير الحجة كما تقدمت الإشارة إليه أنه لو كانت الرسالة - وهي نزول الملائكة بالوحي أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهة - مما يتيسر للبشر نيله ونحن بشر أمثال هذا المدعي للرسالة فما بالناس لا ينزل علينا الملائكة ولا نرى ربنا ؟ فهلا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

ويؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكة ورؤية الرب من غير أن يقولوا : لولا أنزل علينا الملائكة فيصدقوك أو نرى ربنا فيصدقك . على أنهم ذكروا في اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيراً وفيه تصديقه .

وفي التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى رباً لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم والله سبحانه رب الأرباب فكأنهم قالوا للنبي ﷺ إنك ترى أن الله ربك وقد حنّ إليك فخصك بالمشافهة والتكليم ، وأنه ربنا ، فليحن إلينا وليشافهنا بالرؤية كما فعل بك .

على أنهم إنما عدلوا عن عبادة أرباب الأصنام وهم الملائكة وروحانيات الكواكب ونحوهم إلى عبادة الأصنام والتمائيل لتكون محسوسة غير غائبة عن المشاهدة عند العبادة والتقرب بالقرايين .

وقوله تعالى : ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ أي أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق وطفخوا طغياناً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ في المفردات : الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى : ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظناً أن ذلك ينفعهم . انتهى .

وعن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول : حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدوه بشر وعن أبي عبيدة : هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة .

فقوله : ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يوم - على ما قيل - ظرف لقوله : ﴿لَا بُشْرَى﴾ وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد له ، والمراد بقوله : ﴿لَا بُشْرَى﴾ نفي للجنس ، والمراد بالمجرمين كل متصف بالإجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرك والمجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء ، وقد تقدم ذكرهم والمعنى : يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا الملائكة لا بشري - على طريق نفي الجنس - يومئذ للمجرمين وهم منهم .

وقوله : ﴿وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ فاعل يقولون هم المشركون أي يقول المشركون يومئذ للملائكة وهم قاصدوهم بالعذاب : حجراً محجوراً أي لنكن في معاذ منكم ، وقيل : ضمير الجميع للملائكة ، والمعنى : ويقول الملائكة للمشركين حراماً محرماً عليكم سماع البشري ، أو حراماً محرماً عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراماً محرماً عليكم أن تتعودوا من العذاب إلى شيء فلا معاذ لكم هذا ، والمعنى الأول أقرب إلى السياق .

والآية في موضع الجواب عن قولهم : ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ وقد أعرضت عن جواب قولهم : ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فإن الرؤية التي كانوا يقصدونها بقولهم هي الرؤية البصرية التي تستلزم التجسم والمادية تعالى عن ذلك ، وأما الرؤية بعين اليقين وهي الرؤية القلبية فلم يكونوا ممن يفقه ذلك وعلى تقديره ما كانوا يقصدونه .

وأما توضيح الجواب عن أمر إنزال الملائكة ورؤيتهم فقد أخذ أصل الرؤية مفروغاً منه مسلماً أن هناك يوماً يرون فيه الملائكة غير أنه وُضع الإخبار عن وصفهم يوم الرؤية موضع الإخبار عن أصل رؤيتهم للإشارة إلى أن طلبهم لرؤية الملائكة ليس

يجري على نفعهم فإنهم لا يرون الملائكة إلا يوم يشافهون عذاب النار وذلك بعد تبدل النشأة الدنيوية من النشأة الأخرى كما أشار إليه في موضع آخر بقوله : ﴿ وما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾^(١) ، فهم في مسألتهم هذه يستعجلون بالعذاب وهم يحسبون أنهم يعجزون الله ورسوله بالحجة .

وأما ما هو هذا اليوم الذي أُشير إليه بقوله : ﴿ يوم يرون الملائكة ﴾ فقد ذكر المفسرون أنه يوم القيامة لكن الذي يعطيه السياق مع ما ينضم إليه من الآيات الواصفة ليوم الموت وما بعده كقوله : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾^(٢) الآية ، وقوله : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات .

أن المراد به الموت وهو المسمى في عرف القرآن برزخاً فإن في الآيات دلالة قاطعة على أنهم يرون الملائكة ويشافهونهم بعد الموت قبل يوم القيامة ، والمتعين - على ما يقتضيه طبع المخاصمة - في جواب من يجحد رؤية الملائكة أن يذكر له أول يوم يراهم بما يسوؤه وهو يوم الموت لا أن يخاصم بذكر رؤيتهم يوم القيامة وقوله لهم : حجراً محجوراً ، وقد رأهم قبل ذلك وعذب بأيديهم أمداً بعيداً وهو ظاهر .

فالظاهر أن الآية والآيتين التاليتين ناظرة إلى حالهم في البرزخ تصف رؤيتهم للملائكة فيه ، وإحباط أعمالهم فيه ، وحال أهل الجنة التي فيه .

قوله تعالى : ﴿ وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ قال الراغب في المفردات : العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد وقد ينسب إلى الجمادات ، والعمل قلما ينسب إلى ذلك ، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلا في قولهم : البقر العوامل . انتهى .

وقال : الهباء دقاق التراب وما انبث في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة . انتهى . والشر التفريق .

(١) الحجر : ٨ .

(٢) الأنعام : ٩٣ .

(٣) النساء : ٩٧ .

والمعنى : وأقبلنا إلى كل عمل عملوه - والعمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت - ففرقناه تفريقاً لا ينتفعون به كالهباء المنثور ، والكلام مبني على التمثيل مثل به استيلاء القهر الإلهي على جميع أعمالهم التي عملوها لسعادة الحياة وإبطالها بحيث لا يؤثر في سعادة حياتهم المؤبدة شيئاً بتشبيهه بسلطان غلب عدوه فحل داره بعد ما ظهر عليه فخرّب الدار وهدم الآثار وأحرق المتاع والأثاث فأفنى منه كل عين وأثر .

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ وبين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحبطت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم وإجرامهم فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما كان خفياً في الدنيا عليهم وقد تقدم كلام مشبع في معنى الحبط في الجزء الثاني من الكتاب فراجع .

قوله تعالى : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ المراد بأصحاب الجنة المتقون فقد تقدم قوله قبل آيات : ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾ والمستقر والمقيل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر ومن القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا - على ما قيل - والجنة لا نوم فيه .

وكلمتا ﴿خير﴾ و ﴿أحسن﴾ منسلخان عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : ﴿وهو أهون عليه﴾^(١) ، وقوله : ﴿ما عند الله خير من اللهو﴾^(٢) ، كذا قيل ، وليس يبعد أن يقال : إن «أفعل» أو ما هو في معناه كخير بناء على ما رجحنا أنه صفة مشبهة تدل على التفضيل بمادته لا بهيئته في مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل والعناية في ذلك أنهم لما اختاروا الشرك والإجرام واستحسنوا ذلك ولازمه النار في الآخرة فقد أثبتوا لها خيرية وحسناً فقبلوا بأن الجنة وما فيها خير وأحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار وأن يختاروا الإيمان على الكفر على أي حال ، وقيل : إن التفضيل مبني على التهكم .

قوله تعالى : ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدر ، والمعنى واذكر يوم كذا وكذا فإنهم يرون الملائكة فيه

(١) الروم : ٢٧ .

(٢) الجمعة : ١١ .

أيضاً وهذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد : ﴿الملك يومئذ الحق للرحمان﴾ ، وقيل في متعلق الظرف وجوه أخر لا فائدة في نقلها .

و ﴿تشقق﴾ أصله تشقق من باب التفعّل من الشق بمعنى الخرم والتشقق التفتح ، والغمام السحاب سمي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر .

والباء في قوله : ﴿تشقق السماء بالغمام﴾ إما للملابسة والمعنى تفتح السماء متلبسة بالغمام أي متغيمة ، وإما بمعنى عن والمعنى تفتح عن الغمام أي من قبل الغمام أو تشققه .

وكيف كان فظاهر الآية أن السماء تنشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها ونزل منها الملائكة الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآية قريبة المعنى من قوله في موضع آخر : ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها﴾^(١) .

وليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضي موطن الإنسان .

وقيل : المراد أن السماء يشقها الغمام وهو الذي يذكره في قوله : ﴿هل ينظرون إلا أن يسأتهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾^(٢) ، وقد مرّ كلام في تفسير الآية .

والتعبير عن الواقعة بالتشقق دون التفتح وما يماثله للتهويل ، وكذا التنوين في قوله : ﴿تنزيلاً﴾ للدلالة على التفخيم .

قوله تعالى : ﴿الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمان وذلك لبطلان الأسباب وزوال ما بينها وبين مسبباتها من الروابط المتنوعة ، وقد تقدم غير مرة أن المراد بذلك في يوم القيامة هو ظهور أن الملك والحكم لله والأمر إليه وحده ، وأن لا استقلال في شيء من الأسباب

(١) الحاقة : ١٧ .

(٢) البقرة : ٢١٠ .

على خلاف ما كان يترأى من ظاهر حالها في نشأة الدنيا قبل قيام الساعة ورجوع كل شيء إليه تعالى .

وقوله : ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ الوجه فيه ركونهم إلى ظواهر الأسباب وإخلادهم إلى الحياة الأرضية البائدة الدائرة وانقطاعهم عن السبب الحقيقي الذي هو مالك الملك بالحقيقة وعن حياتهم الباقية المؤبدة فيصبحون اليوم ولا ملاذ لهم ولا معاذ .

فعلى هذا يكون الملك مبتدأ والحق خبره عَرَفَ لإفادة الحصر، ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ ، وفائدة التقييد الدلالة على ظهور حقيقة الأمر يومئذ فإن حقيقة الملك لله سبحانه دائماً ، وإنما يختلف يوم القيامة مع غيره بزوال الملك الصوري عن الأشياء فيه وثبوته لها في غيره .

وقال بعضهم : الملك بمعنى المالكية ويومئذ متعلق به والحق خبر الملك ، وقيل : يومئذ متعلق بمحذوف هو صفة للحق ، وقيل : المراد بيومئذ هو يوم الله ، وقيل : يومئذ هو الخبر للملك والحق صفة للمبتدأ ، وهذه أقوال ردية لا جدوى لها .

قوله تعالى : ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ قال الراغب في المفردات : العض أزم بالأسنان ، قال تعالى : ﴿عضوا عليكم الأنامل﴾ و﴿ويوم يعض الظالم﴾ وذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك . انتهى . ولذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم : ﴿يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ .

والظاهر أن المراد بالظالم جنسه وهو كل من لم يهتد بهدي الرسول ، وكذا المراد بالرسول جنسه وإن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمي هذه الأمة والرسول على محمد ﷺ .

والمعنى : وأذكر يوم يندم الظالم ندماً شديداً قائلاً من فرط ندمه يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ما إلى الهدى أي سبيل كانت .

قوله تعالى : ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ تنمة تمنى الظالم النادم على ظلمه ، وفلان كناية عن العلم المذكور وفلانة عن العلم المؤنث ، قال

الراغب : فلان وفلانة كناية عن الإنسان ، والفلان والفلانة - باللام - كناية عن الحيوانات . انتهى .

والمعنى : يا ويلتي - يا هلاكي - ليتني لم أتخذ فلاناً - وهو من اتخذه صديقاً يشاوره ويسمع منه ويقلده - خليلاً .

وذكر بعضهم : أن فلاناً في الآية كناية عن الشيطان ، وكأنه نظراً إلى ما في الآية التالية من حديث خذلان الشيطان للإنسان غير أن السياق لا يساعد عليه .

ومن لطيف التعبير قوله في الآية السابقة : ﴿يا ليتني اتخذت﴾ الخ وفي هذه الآية : ﴿يا ويلتي ليتني لم اتخذ﴾ الخ فإن في ذلك تدرجاً لطيفاً في النداء والاستغاثة فحذف المنادي في الآية السابقة يلوح إلى أنه يريد أي منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء وذكر الويل بعد ذلك - في هذه الآية يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شيء قط إلا الهلاك والفناء ، ولذلك نادى الويل .

قوله تعالى : ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ تعليل للتمني السابق ، والمراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماوية وينطبق بحسب المورد على القرآن .

وقوله : ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ من كلامه تعالى ويمكن أن يكون تنمة الكلام الظالم ذكره تأسفاً وتحسراً .

والخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته ، وخذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب ونسي ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهي يوم الموت جزئياً ويوم القيامة كلياً خذله وسلمه إلى الشقاء ، قال تعالى : ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾^(١) ، وقال فيما يحكي عن الشيطان يوم القيامة : ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾^(٢) .

وفي هذه الآيات الثلاثة إشعار بل دلالة على أن السبب العمدة في ضلال أهل الضلال ولاية أهل الأهواء وأولياء الشيطان ، والمشاهدة يؤيد ذلك .

(١) الحشر : ١٦ .

(٢) إبراهيم : ٢٢ .

قوله تعالى : ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾
المراد بالرسول محمد ﷺ بقريظة ذكر القرآن ، وعبر عنه بالرسول تسجيلاً لرسالته
وإرغاماً لأولئك القادحين في رسالته وكتابه والهجر بالفتح فالسكون الترك .

وظاهر السياق أن قوله : ﴿وقال الرسول﴾ الخ معطوف على ﴿يعض الظالم﴾
والقول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث والشكوى ، وعلى هذا
فالتعبير بالماضي بعناية تحقق الوقوع ، والمراد بالقوم عامة العرب بل عامة الأمة
باعتبار كفرتهم وعصاتهم .

وأما كونه استثناءً أو عطفاً على قوله : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وكون
ما وقع بينهما اعتراضاً فبعيد من السياق ، وعليه فلفظه قال على ظاهر معناها والمراد
بالقوم هم القادحون في رسالته الطاعنون في كتابه .

ونظيره في الضعف قول بعضهم : إن المهجور من الهجر بمعنى : الهذيان .
وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً
ونصيراً﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدواً لك كذلك جعلنا لكل نبي عدواً منهم
أي هذه من سنتنا الجارية في الأنبياء واممهم فلا يسوءنك ما تلقى من عداوتهم ،
ولا يشقن عليك ذلك ، ففيه تسلية للنبي ﷺ .

ومعنى : جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم
على قلوبهم فعاندوا الحق وأبغضوا الداعي إليه وهو النبي فلعداوتهم نسبة إليه تعالى
بالمجازاة .

وقوله : ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ ، معناه - على ما يعطيه السياق - لا
يهولنك أمر عنادهم وعداوتهم ولا تخافهم على اهتداء الناس ونفوذ دينك فيهم
وبينهم فحسبك ربك كفى به هادياً يهدي من استحق من الناس الهداية واستعد له
وإن كفر هؤلاء وعتوا فليس اهتداء الناس منوطاً باهتدائهم وكفى به نصيراً ينصرك
وينصر دينك الذي بعثك به وإن هجره هؤلاء ولم ينصروك ولا دينك فالجملة مسوقة
لإظهار الاستغناء عنهم .

فظهر أن صدر الآية مسوق لتسلي النبي ﷺ وذيله للاستغناء عن المجرمين

من قومه ، وفي قوله : ﴿ وكفى بربك ﴾ حيث اخذ بصفة الربوبية مضافة إلى ضمير الخطاب ولم يقل : وكفى بالله تأييد له .

(بيان)

في تفسير البرهان عن كتاب الجنة والنار بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه قبض روح الكافر قال : فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره وقيل : ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ وذلك قوله : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ فيقولون حراماً عليكم الجنة محرماً ^(١) .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفارياي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : الهباء ريح الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء فجعل الله أعمالهم كذلك .

وفيه أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ليجمع يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار .

قال سالم : بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم ، قال كانوا يصلون ويصومون ويأخذون سنة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله تعالى أعمالهم .

وفي الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ قال : أما والله لقد كانت أعمالهم أشدّ بياضاً من القباطي ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه .

أقول : وهذا المعنى مروي فيه وفي غيره عنه وعن أبيه عليهما السلام بغير واحد من الطرق .

وفي الكافي أيضاً بإسناده عن عبد الأعلى وبإسناد آخر عن سويد بن غفلة قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وضع المؤمن في قبره : ثم يفسحان يعني الملكين في قبره مد بصره ثم يفتحان له باباً إلى الجنة ويقولان له : نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإن الله يقول : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ .

أقول : والرواية - كما ترى - تجعل الآية من آيات البرزخ ، وتشير بقوله : ويقال له : نم ﴿الخ﴾ إلى نكتة التعبير في الآية بالمقيل فليتنبه .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم ويعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء .

فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعامه فقال : ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال : أطعم يا ابن أخي . قال : ما أنا بالذي أفعل حتى تقول ، فشهد بذلك وطعم من طعامه .

فبلغ ذلك أبي بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة ؟ - وكان خليله - فقال : لا والله ما صبوت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم ، فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتبه فتبزق في وجهه ففعل عقبة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فاسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً ولم يقتل من الأسارى يومئذ غيره .

أقول : وقد ورد في غير واحد من الروايات في قوله تعالى : ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ أن السبيل هو علي عليه السلام وهو من بطن القرآن أو من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ

بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) .

(بيان)

نقل لطن آخر مما طعنوا به في القرآن وهو أنه لم ينزل جملة واحدة والجواب عنه .

قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ المراد بهم مشركو العرب الرادون لدعوة القرآن كما في قدحهم السابق المحكي بقوله : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه﴾ الخ .

وقوله : ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ قد تقدم أن الإنزال والتنزيل إنما يفترقان في أن الإنزال يفيد الدفعة والتنزيل يفيد التدرج لكن ذكر بعضهم أن التنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التدرج لأدائه إلى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التدرج : لولا فرق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجملية بل المعنى هلاً أنزل القرآن عليه دفعة غير مفرق كما أنزل التوراة والإنجيل والزبور .

لكن ينبغي أن يعلم أن نزول التوراة مثلاً كما هو الظاهر المستفاد من القرآن كانت دفعة في كتاب مكتوب في ألواح والقرآن إنما كان ينزل عليه ﷺ بالتلقي من عند الله بتوسط الروح الأمين كما يتلقى السامع الكلام من المتكلم ، والدفعة في

إيتاء كتاب مكتوب وتلقيه تستلزم المعية بين أوله وآخره لكنه إذا كان بقراءة وسماع لم يناف التدريج بين أجزائه وأبعاضه بل من الضروري أن يؤتاه القارئ ويتلقاه السامع أخذاً من أوله إلى آخره شيئاً فشيئاً .

وهؤلاء إنما كانوا يقترحون نزول القرآن جملة واحدة على ما كانوا يشاهدون أو يسمعون من كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ وهو تلقي الآيات بالفاظها من لسان ملك الوحي فكان اقتراحهم أن الذي يتلوه ملك الوحي على النبي ﷺ سورة بعد سورة وآية بعد آية ويتلقاه هو كذلك فليقرأ جميع ذلك مرة واحدة وليتلقه هو مرة واحدة ولو دامت القراءة والتلقي مدة من الزمان ، وهذا المعنى أوفق بالتنزيل الدال على التدريج .

وأما كون مرادهم من اقتراح نزوله جملة واحدة أن ينزل كتاباً مكتوباً دفعة كما نزلت التوراة وكذا الإنجيل والزبور على ما هو المعروف عندهم فلا دلالة في الكلام المنقول عنهم على ذلك . على أنهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السماوية حتى يسلموا نزولها دفعة .

وكيف كان فقولهم : ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ اعتراض منهم على القرآن من جهة نحو نزوله ، يريدون به أنه ليس بكتاب سماوي نازل من عند الله سبحانه إذ لو كان كتاباً سماوياً متضمناً لدين سماوي يريد به الله من الناس وقد بعث رسولاً يبلغه الناس لكان الدين المضمن فيه المراد من الناس ديناً تامة أجزاؤه معلومة أصوله وفروعه مجموعة فرائضه وسننه وكان الكتاب المشتمل عليه منظمة أجزاؤه ، مركبة بعضه على بعض .

وليس كذلك بل هو أقوال متفرقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشتتة ربما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به يسمي جملها المنضودة آيات إلهية ينسبها إلى الله ويدعي أنها قرآن منزل إليه من عند الله سبحانه وليس إلا أنه يتعمّل حيناً بعد حين عند وقوع وقائع فيخلق قولاً يفتره على الله ، وليس إلا رجلاً صابئاً ضل عن السبيل . هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض والجواب .

قوله تعالى : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا

جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴿ الثبات ضد الزوال ، والإثبات والتثبيت بمعنى واحد والفرق بينهما بالدفعه والتدريج ، والفؤاد القلب والمراد به كما مر غير مرة الأمر المدرك من الإنسان وهو نفسه ، والترتيل - كما قالوا - الترسيل والإتيان بالشيء عقيب الشيء ، والتفسير - كما قال الراغب - المبالغة في إظهار المعنى المعقول كما أن الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول .

وظاهر السياق أن قوله : ﴿ كذلك ﴾ متعلق بفعل مقدر يعلله قوله : ﴿ لنثبت ﴾ ويعطف عليه قوله : ﴿ ورتلناه ﴾ والتقدير نزلناه أي القرآن كذلك أي نجوماً متفرقة لا جملة واحدة لنثبت به فؤادك ، وقول بعضهم : إن ﴿ كذلك ﴾ من تمام قول الذين كفروا سخيف جداً .

فقوله : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوماً متفرقة وبيان ذلك أن تعليم علم من العلوم وخاصة ما كان منها مرتبطاً بالعمل بإلقاء المعلم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلم حتى تتم فصوله وأبوابه إنما يفيد حصولاً ما لصور مسائله عند المتعلم وكونها مذكورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجة إليها ، وأما استقرارها في النفس بحيث تنمو عليها وتترتب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى مسيس الحاجة والإشراف على العمل وحضور وقته .

ففرق بين أن يلقي الطبيب المعلم مسألة طبية إلى متعلم الطب إلقاء فحسب وبين أن يلقيها إليه وعنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل .

ومن هنا يظهر أن إلقاء أي نظرة علمية عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشد استقراراً وأكمل رسوخاً في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي إليها الفطرة فإن الفطرة إنما تستعد للقبول وتتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجة .

ثم إن المعارف التي تتضمنها الدعوة الإسلامية الناطق بها القرآن إنما هي شرائع وأحكام عملية وقوانين فردية واجتماعية تسعد الحياة الإنسانية مبنية على الأخلاق الفاضلة المرتبطة بالمعارف الكلية الإلهية التي تنتهي بالتحليل إلى التوحيد كما أن التوحيد ينتهي بالتركيب إليها ثم إلى الأخلاق والأحكام العملية .

فأحسن التعليم وأكمل التربية أن تلقى هذه المعارف العالية بالتدرج موزعة على الحوادث الواقعة المتضمنة لمساس أنواع الحاجات مبينة لما يرتبط بها من الاعتقاد الحق والخلق الفاضل والحكم العملي المشروع مع ما يتعلق بها من أسباب الاعتبار والإلتعاط بين قصص الماضين وعاقبة أمر المسرفين وعتو الطاغين والمستكبرين .

وهذه سبيل البيانات القرآنية المودعة في آياته النازلة كما قال تعالى : ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا﴾^(١) ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ والله أعلم .

نعم يبقى عليه شيء وهو أن تفرق أجزاء التعليم وإلقاءها إلى المتعلم على التمهّل والتؤدة يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاحق وسقوط الهمة والعزيمة عن ضبط المطالب ففي اتصال أجزاء العلم الواحد بعضها ببعض إمداد للذهن وتهيئة للفهم على التفقه والضبط لا يحصل بدونه البتة .

وقد أجاب تعالى عنه بقوله : ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ فمعناه على ما يعطيه السياق أن هذه التعليمات على نزولها نجومًا متفرقة عقّبنا بعضها ببعض ونزلنا بعضها إثر بعض بحيث لا تبطل الروابط ولا تنقطع آثار الأبعاد فلا يفسد بذلك غرض التعليم بل هي سور وآيات نازلة بعضها أثر بعض مترتبة مرتلة .

على أن هناك أمراً آخر وهو أن القرآن كتاب بيان واحتجاج بحتج على المؤلف والمخالف فيما أشكل عليهم أو استشكلوه على الحق والحقيقة بالتشكيك والاعتراض ، ويبين لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعة في الملل والأديان السابقة وما فسرّها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقد الوثنيون في الله تعالى والملائكة والجن وقديسي البشر وما وقع في العهدين من أخبار الأنبياء وما بثوه من معارف المبدء والمعاد ، إلى ما بيّنه القرآن في ذلك .

وهذا النوع من الاحتجاج والبيان لا يستوفي حقه إلا بالتنزيل التدريجي على حسب ما كان يبدو من شبههم ويرد على النبي ﷺ من مسائلهم تدريجاً ، ويورد على المؤمنين أو على قومهم من تسايلاتهم شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ - والمثل الوصف - أي لا يأتونك بوصف فيك أو في غيرك حادوا به عن الحق أو أساءوا تفسيره إلا جئناك بما هو الحق فيه أو ما هو أحسن الوجوه في تفسيره فإن ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه أو حق محرف عن موضعه فالتفسير يردّه إلى مستواه ويقوّمه .

فتبين بما تقدم أن قوله : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ إلى قوله ﴿وأحسن تفسيراً﴾ جواب عن قولهم : ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ بوجهين : أحدهما : بيان السبب الراجع إلى النبي ﷺ وهو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجي .

وثانيهما : بيان السبب الراجع إلى الناس وهو بيان الحق فيما يوردون على النبي ﷺ من المثل والوصف الباطل ، والتفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغير عن وجهه المحرف عن موضعه .

ويلحق بهذا الجواب قوله تلوأ : ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ فهو كالمتمم للجواب على ما سيجيء بيانه .

وتبين أيضاً أن الآيات الثلاث مسوقة جميعاً لغرض واحد وهو الجواب عما أوردوه من القدح في القرآن هذا ، والمفسرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ جواباً عن قولهم : ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ ، وقوله : ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ خبراً عن ترسيّله في النزول أو في القراءة على النبي ﷺ من غير ارتباط بما تقدمه .

وجعلوا قوله : ﴿ولا يأتونك بمثل﴾ الخ ، كالبيان لقوله : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ وإيضاحاً لكيفية تثبيت فؤاده ﷺ ، وجعله بعضهم ناظراً إلى خصوص المثل الذي ضربوه للنبي ﷺ ، وأن الله بين الحق فيه وجاء بأحسن التفسير وقيل غير ذلك ، وجعلوا قوله : ﴿الذين يحشرون﴾ الآية أجنبياً عن غرض الآيتين السابقتين بالكلية .

والتأمل فيما قدّمناه في توجيه مضمون الآيتين الأوليين وما سيأتي من معنى الآية الثالثة يوضح فساد جميع ذلك ، ويظهر أن الآيات الثلاث جميعاً ذات غرض

واحد وهو الجواب عما أوردوه من الطعن في القرآن من جهة نزوله التدريجي .

وذكروا أيضاً أن الجواب عن قدحهم واقتراحهم بقوله : ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ جواب بذكر بعض ما لتفريق النزول من الفوائد وأن هناك فوائد أخرى غير ما ذكره الله تعالى ، وقد أوردوا فوائد أخرى أضافوها إلى ما وقع في الآية :

منها : أن الكتب السماوية السابقة على القرآن إنما أنزلت جملة واحدة لأنها أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون فنزلت عليهم جملة واحدة مكتوبة والقرآن إنما نزل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولذلك نزل متفرقاً .

ومنها : أن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها ، وأما القرآن فبيّنة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مرّ الدهور المتحقق في كل جزء من أجزائه المقدّر بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدي .

ولا ريب أن مدار الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال ، ومن ضرورة تجدد ما يطابقها .

ومنها : أن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً ولا يتيسر الجمع بينهما لمكان المضادة والمنافاة ، وفيه ما هو جواب لمسائل سألوها النبي ﷺ عنها ، وفيه ما هو إنكار لبعض ما كان ، وفيه ما هو حكاية لبعض ما جرى ، وفيه ما فيه إخبار عما سيأتي في زمن النبي ﷺ كالإخبار عن فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، والإخبار عن غلبة الروم على الفرس إلى غير ذلك من الفوائد فاقتضت الحكمة تنزيله متفرقاً .

وهذه وجوه ضعيفة لا تقتضي امتناع النزول جملة واحدة :

أما الوجه الأول : فكون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب لا يمنع النزول جملة واحدة ، وقد كان معه من يكتبه ويحفظه . على أن الله سبحانه وعده أن يعصمه من النسيان ويحفظ الذكر النازل عليه كما قال : ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾^(١) ، وقال : ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾^(٢) ، وقال : ﴿إنه لكتاب عزيز لا

(١) الأعلى : ٦ .

(٢) الحجر : ٩ .

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿٣﴾ ، وقدرته تعالى على حفظ كتابه مع نزوله دفعة أو تدريجاً سواء .

وأما الوجه الثاني : فكما أن الكلام المفروق يقارنه أحوال تقتضي في نظمه أموراً إن اشتمل عليها الكلام كان بليغاً وإلا فلا ، كذلك الكلام الجملي وإن كان كتاباً يقارنه بحسب فصوله وأجزائه أحوال لها اقتضاءات إن طابقتها كان بليغاً وإلا فلا فالبلاغة غير موقوفة على غير الكتاب النازل دفعة والكلام المجموع جملة واحدة .

وأما الوجه الثالث : فالنسخ ليس إبطالاً للحكم السابق وإنما هو بيان انتهاء أمدّه فمن الممكن الجمع بين الحكمين والمنسوخ والناسخ بالإشارة إلى أن الحكم الأول محدود موقت إن اقتضت المصلحة ذلك .

ومن الممكن أيضاً أن يقدم بيان المسائل التي سيسألون عنها حتى لا يحتاجوا فيها إلى سؤال ولو سألوا عن شيء منها أرجعوا إلى سابق البيان ، وكذا من الممكن أن يقدم ذكر ما هو إنكار لما كان أو حكاية لما جرى أو إخبار عن بعض المغيبيات فشيء من ذلك لا يمتنع تقديمه كما هو ظاهر .

على أن تفريق النزول لبعض هذه الحكم والمصالح من تثبيت الفؤاد فليست هذه الوجوه المذكورة وجوهاً على حدتها .

فالحق أن البيان الواقع في الآية بيان تام جامع لا حاجة معه إلى شيء من هذه الوجوه البتة .

قوله تعالى : ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ اتصال الآية بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطي أن هؤلاء القادحين في القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبي ﷺ فذكروه واصفين له بسوء المكانة وضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى في ضمن ما حكى من قولهم في القرآن صونا لمقام النبوة أن يذكر بسوء ، وإنما أشار إلى ذلك في ما أورد في هذه الآية من الرد عليهم بطريق التكنية .

فقوله : ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ كناية عن الذين كفروا

القادحين في القرآن الواصفين للنبي ﷺ بما وصفوا ، والكناية أبلغ من التصريح .
فالمراد أن هؤلاء القادحين الواصفين لك هم شر مكاناً وأضل سبيلاً لا أنت
فالكلام مبني على قصر القلب ، ولفظنا ﴿شر﴾ و﴿أضل﴾ منسلختان عن معنى
التفضيل أو مفيدتان على التهكم ونحوه .

وقد كنى عنهم بالمحشورين على وجوههم إلى جهنم وهو وصف من أضله
الله من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى : ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن
يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً
وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾^(١) .

ففي هذه التكنية مضافاً إلى كونها أبلغ ، تهديد لهم بشر المكان وأليم
العذاب وأيضاً هي في معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لا ضلال أضل من أن يسير
الإنسان على وجهه وهو لا يشعر بما في قدامه ، وهذا الضلال الذي في حشرهم
على وجوههم إلى جهنم ممثل للضلال الذي كان لهم في الدنيا فكأنه قيل : إن
هؤلاء هم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم ، ولا يتلى بذلك إلا من كان
ضالاً في الدنيا .

وقد اختلفت كلماتهم في وجه اتصال الآية بما قبلها فسكت عنه بعضهم ،
وذكر في مجمع البيان أنهم قالوا لمحمد ﷺ والمؤمنين : إنهم شر خلق الله فقال
الله تعالى : ﴿أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ وذكر بعضهم أنها متصلة بقوله قبل
آيات : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ وقد عرفت ما يلوح من
السياق .

وقد اختلفوا أيضاً في المراد بحشرهم على وجوههم فقيل : وهو على ظاهره
وهو الانتقال مكبواً ، وقيل : هو السحب .

وقيل : هو الانتقال من مكان إلى مكان منكوساً وهو خلاف المشي على
الاستقامة وفيه أن الأولى حينئذ التعبير بالحشر على الرؤوس لا على الوجوه ، وقد
قال تعالى في موضع آخر وهو كتوصيف ما يجري بعد هذا الحشر : ﴿يوم يسحبون
في النار على وجوههم﴾^(٢) .

وقيل : المراد به فرط الذلة والهوان والخزي مجازاً . وفيه أن المجاز إنما يصار إليه إذا لم يمكن حمل اللفظ على الحقيقة .

وقيل : هو من قول العرب : مرّ فلان على وجهه إذا لم يُدرَ أين ذهب ؟ وفيه أن مرجعه إلى الجهل بالمكان المحشور إليه ولا يناسب ذلك تقييد الحشر في الآية بقوله : ﴿إلى جهنم﴾ .

وقيل : الكرم كناية أو استعارة تمثيلية ، والمراد أنهم يحشرون وقلوبهم متعلقة بالسفليات من الدنيا وزخارفها متوجهة وجوههم إليها . وأورد عليه أنهم هناك في شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وتعلق القلوب بها ، ولعل المراد به بقاء آثار ذلك فيهم وعليهم .

وفيه أن مقتضى آيات تجسّم الأعمال كون العذاب ممثلاً للتعلق بالدنيا والتوجه نحوها فهم في الحقيقة لا شغل لهم يومئذٍ إلا ذلك .

قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ استشهاد على رسالة النبي ﷺ ونزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به وبكتابه برسالة موسى وإيتائه الكتاب وإشراك هارون في أمره للتخلص إلى ذكر تعذيب آل فرعون وإهلاكهم ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً﴾ قال في مجمع البيان : التدمير الإهلاك لأمر عجيب ، ومنه التنكيل يقال : دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكره . انتهى .

والمراد بالآيات آيات الآفاق والأنفس الدالة على التوحيد التي كذبوا بها ، وذكر أبو السعود في تفسيره أن الآيات هي المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدي موسى ﷺ ولم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعله استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهب إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكديماً مستمراً فدمرناهم . انتهى . وهو حسن لو تعين حمل الآيات على آيات موسى ﷺ .

ووجه اتصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين في كتاب النبي ﷺ

ورسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب وأرسله مع أخيه إلى قوم فرعون فكذبوه فدمرهم تدميراً .

ولهذه النكتة قدم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما إلى القوم وتدميرهم مع أن التوراة إنما نزلت بعد غرق فرعون وجنوده فلم يكن الغرض من القصة إلا الإشارة إلى إيتاء الكتاب والرسالة لموسى وتدمير القوم بالكذب .

وقيل : الأيتان متصلتان بقوله تعالى قبل : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ وهو بعيد .

قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً ﴾ الظاهر أن قوله : ﴿ قوم نوح ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله : ﴿ أغرقناهم ﴾ .

والمراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحاً فإن تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمة الحق . على أن هؤلاء الأمم كانوا أقواماً وثنيين وهم ينكرون النبوة ويكذبون الرسالة من رأس .

وقوله : ﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ أي لمن بقي بعدهم من ذراريهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ قال في مجمع البيان : الرس البئر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوماً بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله إليهم رسولاً فكذبوا به فأهلكهم الله ، وقيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه وفي روايات الشيعة ما يؤيد ذلك .

وقوله : ﴿ عاداً ﴾ الخ معطوف على ﴿ قوم نوح ﴾ والتقدير : ودمرنا أو أهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرس « الخ » .

وقوله : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ القرن أهل عصر واحد وربما يطلق على نفس العصر والإشارة بذلك إلى من مر ذكرهم من الأقوام أولهم قوم نوح وآخرهم أصحاب الرس أو قوم فرعون ، والمعنى ودمرنا أو أهلكنا عاداً وهم قوم هود ، وثمود وهم قوم صالح ، وأصحاب الرس ، وقروناً كثيراً متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم وهم قوم نوح فمن بعدهم .

قوله تعالى : ﴿وَكَلَّا ضَرْبًا لَّهٗ الْأَمْثَالُ وَكَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ كلا منصوب بفعل يدل عليه قوله : ﴿ضَرْبًا لَّهٗ الْأَمْثَالُ﴾ فإن ضرب الأمثال في معنى التذكير والموعظة والإنذار ، والتبير التفتيت ، ومعنى الآية .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مِنْ السَّيِّئِ فَلَمْ يَكُونُوا بِرُؤْيَاهَا﴾ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ قَرْيَةُ لُوطَ أَمْطَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ وَقَدْ مَرَّ تَفْصِيلُ قَصَصِهِمْ فِي السُّورِ السَّابِقَةِ .

وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُوءْنَهَا﴾ استفهام توبيخي فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز إلى الشام .

وقوله : ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نَشُورًا﴾ أي لا يخافون معاداً أو كانوا آثمين من المعاد ، وهذا كقوله تعالى فيما تقدم : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ والمراد به أن المنشأ الأصل لتكذيبهم بالكتاب والرسالة وعدم اتعاظهم بهذه المواعظ الشافية وعدم اعتبارهم بما يعتبر به المعتبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوة ولا تقع في قلوبهم حكمة ولا موعظة .

(بحث روائي)

في العيون بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن أمير المؤمنين عليهما السلام حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس ، ملخصه أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاه درخت كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها : روشن آب وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر يقال له الرس يسمّين بأسماء : أبان ، آذر ، دي ، بهمن ، اسفندار ، فروردين ، أردي بهشت خرداد ، مرداد ، تير ، مهر ، شهریور ، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم .

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبة . أجروا عليها نهراً من العين التي عند الصنوبرة ، وحرّموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم ومن شرب منه قتلوه ويقولون : إنه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها .

وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً في كل قرية عيداً يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقربون إليها القرابين ويذبحون الذبائح ثم يحرقونها في نار

أضرموها فیسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء ويكون ويتضرعون والشيطان يكلمهم من الشجرة .

وهذا دأبهم في القرى حتى إذا كان يوم عيد قریتهم العظمى التي كان يسكنها ملكهم واسمها إسفندار اجتمع إليها أهل القرى جميعاً وعيدوا اثني عشر يوماً ، وجاءوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين والعبادات للشجرة وكلمهم إبليس وهو يعدهم ويمنيهم أكثر مما كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر .

ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا فدعاهم إلى عبادة الله وترك الشرك برهة فلم يؤمنوا فدعا على الشجرة فبيست فلما رأوا ذلك ساءهم فقال بعضهم : إن هذا الرجل سحر آلهتنا ، وقال آخرون : إن آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب عليه لآلهتنا .

فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها وشدوا رأسها فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكتهم عن آخرهم .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام : أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وهشام وحفص عن أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهن عن السحق فقال : حدها حد الزاني فقالت المرأة : ما ذكره الله عز وجل في القرآن ، فقال : بلى ، فقالت : وأين هو ؟ قال : هن الرس .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاحي والبيهقي وابن عساكر عن جعفر بن محمد بن علي أن امرأتين سألتاه : هل تجد غشيان المرأة المرأة محرماً في كتاب الله ؟ قال : نعم هن اللواتي كن على عهد تبع ، وهن صواحب الرس ، وكل نهر وبئر رس .

قال : يقطع لهم جلاب من نار ، ودرع من نار ، ونطاق من نار ، وتاج من نار ، وخفان من نار ، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف متن من نار . قال جعفر : علموا هذا نساءكم .

أقول : وروى القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير ، عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام ما في معناه .

وفي تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا﴾ يعني «كُسِّرْنَا تَكْسِيرًا» قال : هي لفظة بالنبطية .

وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : وأما القرية التي أمطرت مطر السوء فهي سدوم قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل يعني من طين .

* * *

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنَّ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُخَيِّ بِه بَلَدَةً مَيَّاتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْعَامِي كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ

هَذَا عَذَابٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً
 مَحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً
 وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا
 يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً
 وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى
 رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ
 وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْأَلُ بِهِ
 خَبِيراً (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ
 أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ
 بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) .

(بيان)

تذكر الآيات بعض صفات أولئك الكفار القادحين في الكتاب والرسالة والمنكرين
 للتوحيد والمعاد مما يناسب سنخ اعتراضاتهم واقتراحاتهم كاستهزائهم الرسول ﷺ
 واتباعهم الهوى وعبادتهم لما لا ينفعهم ولا يضرهم واستكبارهم عن السجود لله
 سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾
 ضمير الجمع للذين كفروا السابق ذكرهم ، والهزؤ الاستهزاء والسخرية فالمصدر
 بمعنى المفعول ، والمعنى : وإذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا مهزواً به .

وقوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء

قوله تعالى : ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الخ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ، والإضلال كأنه مضمن معنى الصرف ولذا عدّي بعن ، وجواب لولا محذوف يدل عليه ما تقدمه ، والمعنى أنه قرب أن يصرفنا عن آلِهتنا مضلاً لنا لولا أن صبرنا على آلِهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها .

وقوله : ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا﴾ توعّد وتهديد منه تعالى لهم وتنبه أنهم على غفلة مما سيستقبلهم من معاناة العذاب واليقين بالضللال والغي .

قوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الهوى ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل ، والمراد باتخاذ الهوى إلهاً طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذم اتباع الهوى وعدّ طاعة الشيء عبادة له في قوله : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾^(١) .

وقوله : ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ استفهام إنكاري أي لست أنت وكيلاً عليه قائماً على نفسه وبأموره حتى تهديه إلى سبيل الرشد فليس في مقدرتك ذلك وقد أضله الله وقطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٣) ، والآية كالإجمال للتفصيل الذي في قوله : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ قَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾^(٤) .

ويظهر مما تقدم من المعنى أن قوله : ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ على نظمه الطبيعي أي إن ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل متعدّ إلى مفعولين و﴿إِلَهَهُ﴾ مفعوله الأول و﴿هَوَاهُ﴾ مفعول ثان له فهذا هو الذي يلائم السياق وذلك أن الكلام حول شرك المشركين وعدولهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ، وإعراضهم عن طاعة الحق التي هي طاعة الله إلى طاعة الهوى الذي يزين لهم الشرك ، وهؤلاء يسلّمون أن لهم إلهاً مطاعاً وقد أصابوا في ذلك ،

(١) يس : ٦١ .

(٢) القصص : ٥٦ .

(٣) فاطر : ٢٢ .

(٤) الجاثية : ٢٣ .

لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعاً بدلاً من أن يتخذوا الحق مطاعاً فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم .

ومن هنا يظهر ما في قول عدة من المفسرين أن ﴿هواه﴾ مفعول أول لقوله ﴿اتخذ﴾ و ﴿إلهه﴾ مفعول ثانٍ مقدم ، وإنما قدم للاعتناء به من حيث إنه الذي يدور عليه أمر التعجيب في قوله : ﴿أرأيت من اتخذ﴾ الخ ، كما قاله بعضهم ، أو إنما قدم للحصر على ما قاله آخرون ، ولهم في ذلك مباحثات طويلة أغمضنا عن إيرادها وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ أم منقطعة ، والحسبان بمعنى الظن وضمائر الجمع راجعة إلى الموصول في الآية السابقة باعتبار المعنى . والترديد بين السمع والعقل من جهة أن وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين إما أن يستقل بالتعقل فيعقل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله وينصحه فيتبعه إن لم يستقل بالتعقل فالطريق إلى الرشd سمع أو عقل فالآية في معنى قوله : ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (١) .

والمعنى : بل أظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجوا هتداءهم فتبالغ في دعوتهم .

وقوله : ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ بيان للجملة السابقة فإنه في معنى : أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون فتنبه أنهم ليسوا إلا كالأنعام والبهاائم في أنها لا تعقل ولا تسمع إلا اللفظ دون المعنى .

وقوله : ﴿بل هم أضل سبيلاً﴾ أي من الأنعام وذلك أن الأنعام لا تقتحم على ما يضرها وهؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم ، وأيضاً الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز في خلقها بما يهديها إليه وهؤلاء مجهزون وقد ضلوا .

واستدل بعضهم بالآية على أن الأنعام لا علم لها بربها . وفيه أن الآية لا تنفي عنها ولا عن الكفار أصل العلم بالله وإنما تنفي عن الكفار اتباع الحق الذي يهدي إليه

عقل الإنسان الفطري لاحتجابه باتباع الهوى ، وتشبههم في ذلك بالأنعام التي لم تجهز بهذا النوع من الإدراك .

وأما ما أجاب به بعضهم أن الكلام خارج مخرج الظاهر فقول لا سبيل إلى إثباته بالاستدلال .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ هاتان الآيتان وما بعدهما إلى تمام تسع آيات في معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقة من أن الله سبحانه جعل رسالة الرسول لهداية الناس إلى سبيل الرشيد وإنقاذهم من الضلال فيهدي بها بعضهم ممن شاء الله وأما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع ولا يعقل فليس في وسع أحد أن يهديهم من بعد الله .

فهي تبين أن ليس هذا ببدع من الله سبحانه ففي عجائب صنعه وبيّنات آياته نظائر لذلك ففعله متشابه وهو على صراط مستقيم ، وذلك كمد الظل وجعل الشمس دليلاً عليه تنسخه ، وكجعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً ، وكجعل الرياح بشراً وإنزال المطر وإحياء الأرض الميتة وإرواء الأنعام والأناسي به .

ثم ما مثل المؤمن والكافر في اهتداء هذا وضلال ذاك - وهم جميعاً عباد الله يعيشون في أرض واحدة - إلا كمثل المائتين العذب الفرات والملح الاجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ، وكالماء خلق الله سبحانه منه بشراً ثم جعله نسباً وصهرراً فاختلف بذلك المواليد وكان ربك قديراً .

هذا ما يهدي إليه التدبر في مضامين الآيات وخصوصيات نظمها ، وبه يظهر وجه اتصالها بما تقدمها ، وأما ما ذكره من أن الآيات مسوقة لبيان بعض أدلة التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم فالسياق لا يساعد عليه وسنزيد ذلك إيضاحاً .

فقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ تنظير - كما تقدمت الإشارة إليه - لشمول الجهل والضلال للناس ورفعته تعالى ذلك بالرسالة والدعوة الحقّة كما يشاء ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهو الليل ، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكناً .

وقوله : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ والدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلاً وبانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدد الظل شيئاً فشيئاً ولولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعاني من بعض تحوّل الأحوال المختلفة عليه من فقدان ووجدان فإذا فقد شيئاً كان يجده تنبّه لوجوده وإذا وجد ما كان يفقده تنبّه لعدمه ، وأما الأمر الثابت الذي لا تتحول عليه الحال فليس إلى تصوّره بالتنبه سبيل .

وقوله : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي أزلنا الظل بإشراق الشمس وارتفاعها شيئاً فشيئاً حتى ينسخ بالكلية ، وفي التعبير عن الإزالة والنسخ بالقبض ، وكونه إليه ، وتوصيفه باليسير دلالة على كمال القدرة الإلهية وأنها لا يشق عليها فعل ، وأن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام والبطلان بل بالرجوع إليه تعالى .

وما تقدم من تفسير مد الظل بتمديد الفيء بعد زوال الشمس وإن كان معنى لم يذكره المفسرون لكن السياق - على ما أشرنا إليه - لا يلائم غيره مما ذكره المفسرون كقول بعضهم : إن المراد بالظل الممدود ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وقول بعض : ما بين غروب الشمس وطلوعها ، وقول بعض : ما يحدث من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس بعد طلوعها ، وقول بعض - وهو أسخف الأقوال - هو ما كان يوم خلق الله السماء وجعلها كالقبة ثم دحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها .

وفي الآية أعني قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ الخ ، التفات من سياق التكلم بالغير في الآيات السابقة إلى الغيبة ، والنكته فيه أن المراد بالآية وما يتلوها من الآيات بيان أن أمر الهداية إلى الله سبحانه وليس للنبي ﷺ من الأمر شيء وهو تعالى لا يربد هدايتهم وأن الرسالة والدعوة الحقّة في مقابلتها للضلال المنبسط على أهل الضلال ونسخها ما تنسخ منه من شعب السنة العامة الإلهية في بسط الرحمة على خلقه نظير إطلاع الشمس على الأرض ونسخ السظل الممدود فيها بها ، ومن المعلوم أن الخطاب المتضمن لهذه الحقيقة مما ينبغي أن يختص به ﷺ وخاصة من جهة سلب القدرة على الهداية عنه ، وأما الكفار المتخذون إلههم هواهم وهم لا يسمعون ولا يعقلون فلا نصيب لهم فيه .

وفي قوله : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ رجوع إلى السياق السابق ، وفي ذلك مع ذلك من إظهار العظمة والدلالة على الكبرياء ما لا يخفى .

والكلام في قوله الآتي : ﴿وهو الذي جعل لكم الليل﴾ الخ ، وقوله : ﴿وهو الذي أرسل الرياح﴾ ، وقوله : ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ ، وقوله : ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ ، كالكلام في قوله : ﴿ألم تر إلى ربك﴾ ، والكلام في قوله : ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ الخ ، وقوله : ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾ ، وقوله : ﴿ولو شئنا لبعثناه﴾ ، كالكلام في قوله : ﴿ثم جعلنا الشمس﴾ .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ كون الليل لباساً إنما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمة كما يستر اللباس لابس .
وقوله : ﴿والنوم سباتاً﴾ أي قطعاً للعمل ، وقوله : ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي جعل فيه الانتشار وطلب الرزق على ما ذكره الراغب في معنى اللفظتين .

وحال ستره تعالى الناس بلباس الليل وقطعهم به عن العمل والحركة ثم نشرهم للعمل والسعي بإظهار النهار وبسط النور كحال مد الظل ثم جعل الشمس عليه دليلاً وقبض الظل بها إليه .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ البشر بالضم فالسكون مخفف بشر بضمين جمع بشور بمعنى مبشر أي هو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهي المطر .

وقوله : ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ أي من جهة العلو وهي جو الأرض ماء طهوراً أي بالغاً في طهارته فهو طاهر في نفسه مطهر لغيره بزيل الأوساخ ويذهب بالأرجاس والأحداث - فالطهور على ما قيل صيغة مبالغة - .

قوله تعالى : ﴿لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ ، البلدة معروفة قيل : وأريد بها المكان كما في قوله : ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾^(١) ، ولذا اتصف بالميت وهو مذكر والمكان الميت ما لا نبات فيه وإحياءه إنباته ، والأناسي جمع إنسان ، ومعنى الآية ظاهر .

وحال شمول الموت للأرض والحاجة إلى الشرب والري للأنعام والأناسي ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهوراً ليحيي به بلدة ميتاً ويسقيه أنعاماً وأناسي كثيراً من

خلقه كحال مد الظل ثم الدلالة عليه بالشمس ونسخه بها كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ ظاهر اتصال الآية بما قبلها أن ضمير ﴿صرفناه﴾ للماء وتصريفه بينهم صرفه عن قوم إلى غيرهم تارة وعن غيرهم إليهم أخرى فلا يدوم في نزوله على قوم فيهلكوا ولا ينقطع عن قوم دائماً فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحة ، وقيل : المراد بالتصريف التحويل من مكان إلى مكان .

وقوله : ﴿ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ تعليل للتصريف أي وأقسم لقد صرفنا الماء بتقسيمه بينهم ليتذكروا فيشكروا فأبى وامتنع أكثر الناس إلا كفران النعمة .

قوله تعالى : ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية نذيراً ينذرهم ورسولاً يبلغهم رسالاتنا لبعثنا ولكن بعثناك إلى القرى كلها نذيراً ورسولاً لعظيم منزلتك عندنا . هكذا فسرت الآية ولا تخلو الآية التالية من تأييد لذلك ، وهذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب .

أو أن المراد أنا قادرون على أن نبعث في كل قرية رسولاً وإنما اخترناك لمصلحة في اختيارك .

قوله تعالى : ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ متفرع على معنى الآية السابقة ، وضمير ﴿به﴾ للقرآن بشهادة سياق الآيات ، والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة في مدافعة العدو وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم وبيان حقائقه لهم وإتمام حججه عليهم .

فمحصل مضمون الآية أنه إذا كان مثل الرسالة الإلهية في رفع حجاب الجهل والغفلة المضروب على قلوب الناس بإظهار الحق لهم وإتمام الحجة عليهم مثل الشمس في الدلالة على الظل الممدود ونسخه بأمر الله ، ومثل النهار بالنسبة إلى الليل وسبته ، ومثل المطر بالنسبة إلى الأرض الميتة والأنعام والأناسي الظامئة ، وقد بعثناك لتكون نذيراً لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهداية . وابدل مبلغ جهدك ووسعك في تبليغ رسالتك وإتمام حجتك بالقرآن المشتمل على الدعوة الحققة وجاهدهم به مجاهدة كبيرة .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل

بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴿المرج الخلط ومنه أمر مريج أي مختلط ، والعذب من الماء ما طاب طعمه ، والفرات منه ما كثر عذوبته ، والملح هو الماء المتغير طعمه . والاجاج شديد الملوحة ، والبرزخ هو الحد الحاجز بين شيئين ، وحجراً محجوراً أي حراماً محرماً أن يختلط أحد المائين بالآخر .

وقوله : ﴿وجعل بينهما﴾ الخ قرينة على أن المراد بمرج البحرين إرسال المائين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض .

والكلام معطوف على ما عطف عليه قوله : ﴿وهو الذي أرسل الرياح﴾ الخ ، وفيه تنظير لامر الرسالة من حيث تأديتها إلى تمييز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحدة مختلطين وهما مع ذلك غير متمازجين كما تقدمت الإشارة إليه في أول الآيات التسع .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ الصهر على ما نقل عن الخليل الختني وأهل بيت المرأة فالنسب هو التحرم من جهة الرجل والصهر هو التحرم من جهة المرأة - كما قيل - ويؤيده المقابلة بين النسب والصهر .

وقد قيل : إن كلاً من النسب والصهر بتقدير مضاف والتقدير فجعله ذا نسب وصهر ، والضمير للبشر ، والمراد بالماء النطفة ، وربما احتمل أن يكون المراد به مطلق الماء الذي خلق الله منه الأشياء الحية كما قال : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾^(١) .

والمعنى : وهو الذي خلق من النطفة - وهي ماء واحد - بشراً فقسّمه قسمين ذا نسب وذا صهر يعني الرجل والمرأة وهذا تنظير آخر يفيد ما تفيد الآية السابقة أن الله سبحانه أن يحفظ الكثرة في عين الوحدة والتفرق في عين الاتحاد وهكذا يحفظ اختلاف النفوس والآراء بالإيمان والكفر مع اتحاد المجتمع البشري بما يعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذي من شأنه غشيانه لولا الدعوة الحقّة .

وقوله : ﴿وكان ربك قديراً﴾ في إضافة الرب إلى ضمير الخطاب من النكتة نظير ما تقدم في قوله : ﴿ألم تر إلى ربك﴾ .

قوله تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ معطوف على قوله : ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً﴾ . والظهير بمعنى المظاهر على ما قيل والمظاهرة المعاونة .

والمعنى : ويعبدون - هؤلاء الكافر المشركون - من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العبادة ولا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العبادة وكان الكافر معاوناً للشيطان على ربه .

وكون هؤلاء المعبودين وهم الأصنام ظاهراً لا ينفعون ولا يضررون لا ينافي كون عبادتهم مضرة فلا يستلزم نفي الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرّون على شيء نفي الضرر عن عبادتهم المضرة المؤدية للإنسان إلى شقاء لازم وعذاب دائم .

قوله تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي لم نجعل لك في رسالتك إلا التبشير والإنذار وليس لك وراء ذلك من الأمر شيء فلا عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله وما يمكرون إلا بأنفسهم ، هذا هو الذي يعطيه السياق .

وعليه فقوله : ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ هذا الفصل من الكلام نظير قوله : ﴿أفأنت تكون عليهم وكيلاً﴾ في الفصل السابق .

ومنه يظهر أن أخذ بعضهم الآية تسليّة منه تعالى لنبيه ﷺ حيث قال والمراد ما أرسلناك إلا مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم . غير سديد .

قوله تعالى : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ ضمير ﴿عليه﴾ للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبليغ للرسالة كما قال تعالى : ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾^(١)^(٢) ، وقال : ﴿قل ما أسألكم عليه أجراً وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين﴾^(٣) .

(١) المزمل : ١٩ .

(٢) الدھر : ٢٩ .

(٣) ص : ٨٧ .

وقوله : ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ استثناء منقطع في معنى المتصل فإنه في معنى إلا أن يتخذ إلى ربه سبيلاً من شاء ذلك على حد قوله تعالى : ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾^(١) ، أي إلا أن يأتي الله بقلب سليم من أتاه به .

ففيه وضع الفاعل وهو من اتخذ السبيل موضع فعله وهو اتخاذ السبيل شكراً له ففي الكلام عدّ اتخاذهم سبيلاً إلى الله سبحانه باستجابة الدعوة أجراً لنفسه ففيه تلويح إلى نهاية استغنائه عن أجر مالي أو جاهي منهم ، وأنه لا يريد منهم وراء استجابتهم للدعوة واتباعهم للحق شيئاً آخر من مال أو جاه أو أي أجر مفروض فليطوبوا نفساً ولا يهتموه في نصيحته .

وقد علّق اتخاذ السبيل على مشيئتهم للدلالة على حرّيتهم الكاملة عن قبله صلى الله عليه وآله فلا إكراه ولا إجبار إذ لا وظيفة له عن قبل ربه وراء التبشير والإنذار وليس عليهم بوكيل بل الأمر إلى الله يحكم فيهم ما يشاء .

فقوله : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ﴾ الخ بعد ما سجل لنبيه ﷺ أن ليس له إلا الرسالة بالتبشير والإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا أن يستجيبوا له ويتخذوا إلى ربهم سبيلاً من غير غرض زائد من الأجر أياً ما كان ، وأن لهم الخيرة في أمرهم من غير أي إجبار وإكراه فهم والدعوة إن شاءوا فليؤمنوا وإن شاءوا فليكفروا .

هذا ما يرجع إليه ﷺ وهو تبليغ الرسالة فحسب من غير طمع في أجر ولا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال ، وأما ما وراء ذلك فهو الله فليرجعه إليه وليتوكل عليه كما أشار في الآية التالية : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ .

وذكر جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع ، والمعنى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً أي الإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والإنفاق في سبيل الله فليفعل ، وهو ضعيف لا دليل عليه لا من جهة لفظ الجملة ولا من جهة السياق .

وقال بعضهم : إنه متصل والكلام بحذف مضاف والتقدير إلا فعل من شاء أن

يتخذ إلى ربه سبيلاً بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما . وفيه أخذ استجابتهم له أجراً لنفسه وقطعاً لشائبة الطمع بالكلية وتطيباً لأنفسهم ، ويرجع هذا الوجه بحسب المعنى إلى ما قدمناه ويمتاز منه بتقدير مضاف والتقدير خلاف الأصل .

وقال آخرون : إنه متصل بتقدير مضاف والتقدير لا أسألكم عليه من أجر إلا أجر من شاء «الخ» أي إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله . وفيه أن مقتضى هذا المعنى أن يقال : إلا من اتخذ إلى ربه سبيلاً فلا حاجة إلى تعليق الاتخاذ بالمشيئة والأجر إنما يترتب على العمل دون مشيئته .

قوله تعالى : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ لما سجل على نبيه ﷺ أن ليس له من أمرهم شيء إلا الرسالة وأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا الاستجابة لها وأنهم على خيرة من أمرهم إن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا تتم ذلك بأمره ﷺ أن يتخذه تعالى وكيلاً في أمرهم فهو تعالى عليهم وعلى كل شيء وكيل وبذنوب عباده خبير .

فقوله : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي اتخذه وكيلاً في أمرهم يحكم فيهم ما يشاء ويفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم وعلى كل شيء وقد عدل عن تعليق التوكل بالله إلى تعليقه بالحي الذي لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذي لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون وكيلاً .

وقوله : ﴿وسبح بحمده﴾ أي نزهه عن العجز والجهل وكل ما لا يليق بساحة قدسه مقارناً ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم واستدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك ولا عن جهل بذنوبهم وإن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته وباستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه وبحمده .

وقوله : ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ مسوق للدلالة على توحيده في فعله وصفته فهو الوكيل المتصرف في أمور عباده وحده وهو خبير بذنوبهم وحاكم فيهم وحده من غير حاجة إلى من يعينه في علمه أو في حكمه .

ومن هنا يظهر أن الآية التالية : ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ متممة لقوله : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ الخ ، لاشتمالها على توحيده في ملكه

وتصرفه كما يشتمل قوله : ﴿وكفى به﴾ الخ على علمه وخبرته وبالحياة والملك والعلم معاً يتم معنى الوكالة وسنشير إليه .

قوله تعالى : ﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ ظاهر السياق أن الموصول صفة لقوله في الآية السابقة : ﴿الحي الذي لا يموت﴾ وبهذه الآية تم البيان في قوله : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ فإن الوكالة كما تتوقف على حياة الوكيل تتوقف على العلم ، وقد ذكره في قوله : ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ وتتوقف على السلطنة على الحكم والتصرف وهو الذي يتضمنه هذه الآية بما فيها من حديث خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش .

وقد تقدم تفسير صدر الآية في مواضع من السور السابقة ، وأما قوله : ﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ فالذي يعطيه السياق ويهدي إليه النظم أن يكون الرحمن خبيراً لمبتدأ محذوف والتقدير هو الرحمن ، وقوله : ﴿فاسأل﴾ متفرعاً عليه والفاء للتفريع ، والباء في قوله : ﴿به﴾ للتعدية مع تضمين السؤال معنى الاعتناء . وقوله : ﴿خبيراً﴾ حال من الضمير .

والمعنى : هو الرحمن - الذي استوى على عرش الملك والذي برحمته وإفاضته يقوم الخلق والأمر ومنه يتبدى كل شيء وإليه يرجع - فاسأله عن حقيقة الحال يخبرك بها فإنه خبير .

فقوله : ﴿فاسأل به خبيراً﴾ كناية عن أن الذي أخبر به حقيقة الأمر التي لا معدل عنها وهذا كما يقول من سئل عن أمر : سلني أجيبك إن كذا وكذا ومن هذا الباب قولهم : على الخير سقطت .

ولهم في قوله : ﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ أقوال أخرى كثيرة : فقل : إن الرحمن مرفوع على القطع للمدح ، وقيل : مبتدأ خبره قوله : ﴿فاسأل به﴾ ، وقيل : خبر مبتدؤه ﴿الذي﴾ في صدر الآية ، وقيل : بدل من الضمير المستكن في ﴿استوى﴾ .

وقيل في ﴿فاسأل به﴾ إنه خبر للرحمن كما تقدم والفاء فصيحة ، وقيل : جملة مستقلة متفرعة على ما قبلها والفاء للتفريع ثم الباء في ﴿به﴾ للصلة أو بمعنى

عن والضمير راجع إليه تعالى أو إلى ما تقدم من الخلق والاستواء .

وقيل : ﴿خبيراً﴾ حال عن الضمير وهو راجع إليه تعالى ، والمعنى فاسأل الله حال كونه خبيراً ، وقيل : مفعول فاسأل والباء بمعنى عن والمعنى فاسأل عن الرحمن أو عن حديث الخلق والاستواء خبيراً ، والمراد بالخبير هو الله سبحانه ، وقيل جبريل وقيل : محمد ﷺ ، وقيل : من قرأ الكتب السماوية القديمة ووقف على صفاته وأفعاله تعالى وكيفية الخلق والإيجاد ، وقيل : كل من كان له وقوف على هذه الحقائق .

وهذه الوجوه المتشعبة جلها أو كلها لا تلائم ما يعطيه سياق الآيات الكريمة ولا موجب للتكلم عليها والغور فيها .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نفوراً﴾ هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول ودعوته الحقبة يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا إليه ونفورهم منه وللآية اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها وقد وصف في الآية السابقة بما وصف ولعل اللام فيه للعهد .

فقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ الضمير للكفار ، والقائل هو النبي صلى الله عليه وآله بدليل قوله بعد : ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ ولم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم إلى الله سبحانه وحده .

وقوله : ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ سؤال منهم عن هويته ومائيته مبالغة منهم في التجاهل به استكباراً منهم على الله ولولا ذلك لقالوا : ومن الرحمن ، وهذا كقول فرعون لموسى لما دعاه إلى رب العالمين : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ، وقول إبراهيم لقومه : ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾^(٢) ، ومراد السائل في مثل هذا السؤال أنه لا معرفة له من المسؤول عنه بشيء أزيد من اسمه كقول هود لقومه : ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾^(٣) .

(٢) الأنبياء : ٥٢ .

(٣) الأعراف : ٧١ .

وقوله حكاية عنهم : ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ في تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار ، والتعبير عن طلبه عنهم السجدة بالأمر لا يخلو من تهكم واستهزاء .

وقوله : ﴿وزادهم نفوراً﴾ معطوف على جواب إذا والمعنى : وإذا قيل لهم اسجدوا استكبروا وزادهم ذلك نفوراً ففاعل (زادهم) ضمير راجع إلى القول المفهوم من سابق الكلام .

وقول بعضهم : إن الفاعل ضمير راجع إلى السجود بناء على ما رووا أنه ﷺ وأصحابه سجدوا فتباعدا عنهم مستهزئين ليس بسديد فإن وقوع واقعة ما لا يؤثر في دلالة اللفظ ما لم يتعرض له لفظاً . ولا تعرض في الآية لهذه القصة أصلاً .

قوله تعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء أو الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله : ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾^(١) ، وإنما خصت بالذكر في الآية للإشارة إلى الحفظ والرجم المذكورين .

والمراد بالسراج الشمس بدليل قوله : ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾^(٢) .

وقد قرروا الآية أنها احتجاج بوحدة التدبير العجيب السماوي والأرضي على وحدة المدبر فيجب التوجه بالعبادات إليه وصرف الوجه عن غيره .

والتدبر في اتصال الآيتين بما قبلهما وسياق الآيات لا يساعد عليه لأن مضمون الآية السابقة من استكبارهم على الرحمان إذا أمروا بالسجود له واستهزائهم بالرسول لا نسبة كافية بينه وبين الاحتجاج على توحيد الربوبية حتى يعقب به ، وإنما المناسب لهذا المعنى إظهار العزة والغنى وأنهم غير معجزين لله بفعالهم هذا ولا خارجون عن ملكه وسلطانه .

(١) الحجر : ١٧ .

(٢) نوح : ١٦ .

والذي يعطيه التدبر أن قوله : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا﴾ الخ ، مسوق سوق التعزز والاستغناء ، وأنهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضرة قربه والصعود إلى سماء جواره والمعارف الإلهية مضيئة مع ذلك لأهله وعباده بما نورها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة .

وعلى هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظة الراجمة للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة وجعل الشمس المضيئة والقمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس ، وأشار بذلك إلى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصر به عباده ، كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات ودفع أولياء الشياطين عن الصعود إليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوظة راجمة .

هذا ما يعطيه السياق وعلى هذا النمط من البيان سقت هذه الآيات والتي قبلها كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله : ﴿ألم تر إلى ربك كيف مّد الظل﴾ فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها .

قوله تعالى : ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ الخلفة هي الشيء يسدّ مسدّ شيء آخر وبالعكس وكأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل والنهار خلفة أن كلا منهما يخلف الآخر ، وتقييد الخلفة بقوله : ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ للدلالة على نيابة كل منهما عن الآخر في التذكر والشكر .

والمقابلة بين التذكر والشكر يعطي أن المراد بالتذكر الرجوع إلى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الدالة على توحيد ربه وما يليق به تعالى من الصفات والأسماء وغايته الإيمان بالله ، وبالشكور القول أو الفعل الذي يُنبئ عن الشاء عليه بجميل ما أنعم ، وينطبق على عبادته وما يلحق بها من صالح العمل .

وعلى هذا فالآية اعتزاز أو امتنان بجعله تعالى الليل والنهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به في هذه البرهة من الزمان تداركه في البرهة الأخرى منه ، ومن لم يوفق لعبادة أو لأي عمل صالح في شيء منهما أتى به في الآخر .

هذا ما تفيده الآية ولها مع ذلك ارتباط بقوله في الآية السابقة : ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ ففيه إشارة إلى أن الله سبحانه وإن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود إلى ساحة قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب إليه والاستضاءة بنوره فجعل نهاراً ذا شمس طالعة وليلاً ذا قمر منير وهما ذوا خلفه من فاته ذكر أو شكر في أحدهما أتى به في الآخر .

وفسر بعضهم التذكر بصلاة الفريضة والشكور بالنافلة والآية تقبل الانطباق على ذلك وإن لم يتعين حملها عليه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواً﴾ أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل﴾ فقال : الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿وهو الذي خلق من الماء﴾ الآية ، قال ابن سيرين : نزلت في النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب زوج فاطمة عليها فهو ابن عمه وزوج ابنته فكان نسباً وصهرًا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ يعني أبا الحكم الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام .

أقول : والروايتان بالجري والتطبيق أشبه .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تبارك وتعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ فالبروج الكواكب والبروج التي للربيع والصيف الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة ، وبروج الخريف والشتاء : الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهي اثنا عشر برجاً .

وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام : كلما فاتك بالليل فاقضه بالنهار قال الله تبارك وتعالى : ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾
يعني أن يقضي الرجل ما فاتته بالليل بالنهار وما فاتته بالنهار بالليل .

* * *

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) .

(بيان)

تذكر الآيات من محاسن خصال المؤمنين ما يقابل ما وصف من صفات الكفار السيئة ويجمعها أنهم يدعون ربهم ويصدقون رسوله والكتاب النازل عليه قبال تكذيب الكفار لذلك وإعراضهم عنه إلى اتباع الهوى ، ولذلك تختتم الآيات بقوله : ﴿ قل ما يعزّبكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً ﴾ وبه تختتم السورة .

قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ لما ذكر في الآية السابقة استكبارهم على الله سبحانه وإهانتهم بالاسم الكريم : الرحمن ، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين وسماهم عباداً وأضافهم إلى نفسه متسمياً باسم الرحمن الذي كان يحيد عنه الكفار وينفرون .

وقد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم :

أحدهما : ما اشتمل عليه قوله : ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ والهون على ما ذكره الراغب التذلل ، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم فهم في أنفسهم متذللون لربهم ومتواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حق ، وأما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزة الوهمية فحاشاهم وإن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر وتبخر .

وثانيهما : ما اشتمل عليه قوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والإثم ، قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾^(١) ، ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل .

وهذه - كما قيل - صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس وأما صفة ليلهم فهي التي تصفها الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ البيوتة إدراك الليل سواء نام أم لا ، و ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله : ﴿سُجَّدًا﴾ والسجد والقيام جمعاً ساجد وقائم ، والمراد عبادتهم له تعالى بالخروج على الأرض والقيام على السوق ، ومن مصاديقه الصلاة .

والمعنى : وهم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم وقائمين يتراوحن سجوداً وقِيَاماً ، ويمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ الغرام ما ينوب الإنسان من شدة أو مصيبة فيلزمه ولا يفارقه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ الضمير لجهنم والمستقر والمقام اسما مكان من الاستقرار والإقامة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ، الإنفاق بذل المال وصرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره ، والإسراف الخروج عن الحد ولا يكون إلا في جانب الزيادة ، وهو في الإنفاق التعدي عما ينبغي الوقوف عليه في بذل المال ، والقتل بالفتح فالسكون التقليل في الإنفاق وهو بإزاء الإسراف على ما ذكره الراغب ، والقتل والاقتار والتقتير بمعنى .

والقوام بالفتح الواسط العدل ، وبالكسر ما يقوم به الشيء وقوله : ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ متعلق بالقوام ، والمعنى : وكان إنفاقهم وسطاً عدلاً بين ما ذكر من الإسراف والقتل فقوله : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ تنصيص على ما استفاد من قوله : ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ ، فصدر الآية ينفي طرفي الإفراط والتفريط في الإنفاق ، وذيلها يثبت الوسط .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى آخر الآية هذا هو الشرك وأصول الوثنية لا تجيز دعاءه تعالى وعبادته أصلاً لا وحده ولا مع آلهتهم وإنما توجب دعاء آلهتهم وعبادتهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده .

فالمراد بدعائهم مع الله آلهاً آخر إما التلويح إلى أنه تعالى إله مدعو بالفطرة على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه وإن لم يذكر الله .

أو أنه تعالى ثابت في نفسه سواء دعي غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده وبعبارة أخرى تعديه إلى غيره .

أو إشارة إلى ما كان يفعله جهلة مشركي العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما ينفعهم في البر وأما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاءه تعالى في مورد كما عند شدائد البحر من طوفان ونحوه ودعاء غيره معه في مورد وهو البر ، وأحسن الوجوه أوسطها .

وقوله : ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها في حال من الأحوال إلا حال تلبس القتل بالحق كقتلها قصاصاً وحداً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي لا يطؤون الفرج الحرام وقد كان شائعاً بين العرب في الجاهلية ، وكان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا والخمر من أول ما ظهرت دعوته .

وقوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ الإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره وهو الشرك وقتل النفس المحترمة بغير حق والزنا ، والأثام الإثم وهو وبال الخطيئة وهو الجزاء بالعذاب الذي سيلقاه يوم القيامة المذكور في الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ بيان للقاء الأثام ، وقوله : ﴿وَيَخْلُدْ فِيهَا مُهَانًا﴾ أي يخلد في العذاب وقد وقعت عليه الإهانة .

والخلود في العذاب في الشرك لا ريب فيه ، وأما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمة والزنا وهما من الكبائر وقد صرح القرآن بذلك فيهما وكذا في أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعم من المنقطع والمؤبد أو يحمل قوله : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ على فعل جميع الثلاثة لأن الآيات في الحقيقة تنزه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به وهو الجميع دون البعض .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴿ استثناء من لقي الأثام والخلود فيه ، وقد أخذ في المستثنى التوبة والإيمان وإتيان العمل الصالح ، أما التوبة وهي الرجوع عن المعصية وأقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيماً عليها ، وأما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبة وبه تكون نصوحاً .

وأما أخذ الإيمان فيدلُّ على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآية بمن أشرك وقتل وزنا أو بمن أشرك سواء أتى معه بشيء من القتل المذكور والزنا أو لم يأت ، وأما من أتى بشيء من القتل والزنا من غير شرك فالتكفل لبيان حكم توبته الآية التالية .

وقوله : ﴿ فاولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات ﴾ تفريع على التوبة والإيمان والعمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر وهو أن الله يبذل سيئاتهم حسنات .

وقد قيل في معنى ذلك أن الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم فيبذل الكفر إيماناً والقتل بغير حق جهاداً وقتلاً بالحق والزنا عفة وإحصاناً .

وقيل : المراد بالسيئات والحسنات ملكاتهما لا نفسيهما فيبذل ملكة السيئة ملكة الحسنة .

وقيل : المراد بهما العقاب والثواب عليهما لا نفسيهما فيبذل عقاب القتل والزنا مثلاً ثواب القتل بالحق والإحصان .

وأنت خير بأن هذه الوجوه من صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل يدلُّ عليه .

والذي يفيد ظاهر قوله : ﴿ يبذل الله سيئاتهم حسنات ﴾ وقد ذُيِّلَ بقوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أن كل سيئة منهم نفسها تتبدل حسنة ، وليست السيئة هي متن الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصة مشتركة بين السيئة والحسنة كعمل الواقعة مثلاً المشترك بين الزنا والنكاح ، والأكل المشترك بين أكل المال غصباً وبإذن من مالكة بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلاً من حيث إنه يتأثر به الإنسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرفة متقضية فانية وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائه .

وهذه الآثار السيئة التي يتبعها العقاب أعني السيئات لازمة للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر .

ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيء إذ الذات السعيدة الطاهرة من كل وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة فالأعمال السيئة إنما تلحق ذاتاً شقية خبيثة بذاتها أو ذاتاً فيها شوب من شقاء وخباثة .

ولازم ذلك إذا تطهرت بالتوبة وطابت بالإيمان والعمل الصالح فتبدلت ذاتاً سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمة التي كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً .

والى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله : ﴿فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

قوله تعالى : ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ المتاب مصدر ميمي للتوبة ، وسياق الآية يعطي أنها مسوقة لرفع استغراب تبدل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنها رجوع خاص إلى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدل السيئات حسنات وهو الله يفعل ما يشاء .

وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم فارقت ، والآية السابقة - كما تقدمت إليه - كانت خفية الدلالة على حال المعاصي إذا تجردت من الشرك .

قوله تعالى : ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ قال في مجمع البيان : أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق . انتهى . فيشمل الكذب وكل لهو باطل كالغناء والفحش والخناء بوجه ، وقال أيضاً : يقال : تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه منه انتهى .

فقوله : ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان المراد اللغو الباطل كالغناء ونحوه كان مفعولاً به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل ، وذيل الآية يناسب ثاني المعنيين .

وقوله : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ اللغو ما لا يعتد به من الأفعال والأقوال

لعدم اشتماله على غرض عقلائي ويعم - كما قيل - جميع المعاصي ، والمراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو وهم مشتغلون به .

والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو وهم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم .

قوله تعالى : ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ الخروا على الأرض السقوط عليها وكأنها في الآية كناية عن لزوم الشيء والانكباب عليه .

والمعنى : والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم من حكمة أو موعظة حسنة من قرآن أو وحي لم يسقطوا عليه وهم صم لا يسمعون وعميان لا يبصرون بل تفكروا فيها وتعقلوها فأخذوا بها عن بصيرة فأمنوا بحكمتها واتعظوا بموعظتها وكانوا على بصيرة من أمرهم وبيّنة من ربهم .

قوله تعالى : ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾ قال الراغب في المفردات : قرت عينه تقرأ سُرت قال تعالى : ﴿كي تقرأ عينها﴾ وقيل لمن يسر به قررة عين قال : ﴿قررة عين لي ولك﴾ وقوله تعالى : ﴿هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين﴾ قيل : أصله من القرأي البرد فقرت عينه قيل : معناه بردت فصحت ، وقيل : بل لأن للسرور دمة باردة قارة وللحزن دمة حارة ولذلك يقال فيمن يدعى عليه : أسخن الله عينه ، وقيل : هو من القرار والمعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح إلى غيره انتهى .

ومرادهم بكون أزواجهم وذرياتهم قررة أعين لهم أن يسروهم بطاعة الله والتجنب عن معصيته فلا حاجة لهم في غير ذلك ولا إربة وهم أهل حق لا يتبعون الهوى .

وقوله : ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ أي متسابقين إلى الخيرات سابقين إلى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى : ﴿فاستبقوا الخيرات﴾^(١) ، وقال : ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾^(٢) ، وقال : ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾^(٣) .

(١) البقرة : ١٤٨ .

(٢) الحديد : ٢١ .

(٣) الواقعة : ١١ .

وكان المراد أن يكونوا صفاء واحداً متقدماً على غيرهم من المتقين ولذا جيء بالإمام بلفظ الأفراد .

وقال بعضهم : إن الإمام مما يطلق على الواحد والجمع ، وقيل : إن إمام جمع أم بمعنى القاصد كصيام جمع صائم ، والمعنى : اجعلنا قاصدين للمتقين متقيدين بهم ، وفي قراءة أهل البيت ﴿ واجعل لنا من المتقين إماماً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ الغرفة - كما قيل - البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت ، وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة ، والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران في الآيات السابقة لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب والشدائد .

والمعنى : أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعة من الجنة يلقون فيها أي يتلقاهم الملائكة بالتحية وهو ما يقدم للإنسان مما يسره وبالسلام وهو كل ما ليس فيه ما يخافه ويحذره ، وفي تنكير التحية والسلام دلالة على التفخيم والتعظيم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتمْ فسوف يكون لزاماً ﴾ قال في المفردات : ما عبأت به أي لم أبال به ، وأصله من العبء أي الثقل كأنه قال : ما أرى له وزناً وقدرًا ، قال تعالى : ﴿ قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ وقيل : من عبأت الطيب كأنه قيل : ما يبيحكم لولا دعاؤكم . انتهى .

قيل : ﴿ دعاؤكم ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وفاعله ضمير راجع إلى ﴿ ربي ﴾ وعلى هذا فقوله : ﴿ فقد كذبتمْ ﴾ من تفريع السبب على المسبب بمعنى انكشافه بمسببه ، وقوله : ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي سوف يكون تكذيبكم ملازماً لكم أشد الملازمة فتجزون بشقاء لازم وعذاب دائم .

والمعنى : قل لا قدر ولا منزلة لكم عند ربي فوجودكم وعدمكم عنده سواء لأنكم كذبتمْ فلا خير يرجي فيكم فسوف يكون هذا التكذيب ملازماً لكم أشد الملازمة ، إلا أن الله يدعوكم ليتم الحجة عليكم أو يدعوكم لعلكم ترجعون عن تكذيبكم . وهذا معنى حسن .

وقيل : ﴿دَعَاؤُكُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل ، والمراد به عبادتهم لله سبحانه والمعنى : ما يبالي بكم ربي أو ما يقيقكم ربي لولا عبادتكم له .

وفيه أن هذا المعنى لا يلائم تفرّع قوله : ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ عليه وكان عليه من حق الكلام أن يُقال : وقد كذَّبْتُمْ ! على أن المصدر المضاف إلى فاعله يدل على تحقق الفعل منه وتلبّسه به وهم غير متلبّسين بدعائه وعبادته تعالى فكان من حق الكلام على هذا التقدير أن يُقال لولا أن تدعوه فافهم .

والآية خاتمة السورة وتنعطف على غرض السورة ومحصل القول فيه وهو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول وعلى القرآن النازل عليه وتكذيبهما .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال أبو عبد الله عليه السلام : هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال : الدائم .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يقول : ملازماً لا ينفك . وقوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ والإسراف الإنفاق في المعصية في غير حق ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ لم ييخلوا في حق الله عز وجل ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ القوام العدل والإنفاق فيما أمر الله به .

وفي الكافي : أحمد بن محمد بن علي عن محمد بن سنان عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ قال : القوام هو المعروف على الموسع قدره وعلى المقتر قدره على قدر عياله ومؤونتهم التي هي صلاح له ولهم لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها .

وفي المجمع روي عن معاذ أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : من أعطى في غير حق فقد أسرف ، ومن منع من حق فقد قتر .

أقول : والأخبار في هذه المعاني كثيرة جداً .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : سئل النبي ﷺ : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ .

أقول : لعل المراد الانطباق دون سبب النزول .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن علي بن الحسين ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ قال : في الآخرة ، وقال الحسن : في الدنيا .

وفيه أخرج أحمد وهناد ومسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا وهو مقر ليس ينكر وهو مشفق من الكبار أن تجيء فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة .

أقول : هو من أخبار تبديل السيئات حسنات يوم القيامة وهي كثيرة مستفيضة من طرق أهل السنة والشيعة مروية عن النبي والباقر والصادق والرضا عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وفي روضة الواعظين قال ﷺ : ما جلس قوم يذكرون الله إلا نادى بهم مناد من السماء قوموا فقد بدل الله سيئاتكم حسنات وغفر لكم جميعاً .

وفي الكافي بإسناده عن أبي الصباح عن أبي عبد الله ﷺ في قوله عز وجل : ﴿لا يشهدون الزور﴾ قال : الغناء .

أقول : وفي المجمع أنه مروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ورواه القمي مسنداً ومرسلاً .

وفي العيون بإسناده إلى محمد بن أبي عباد وكان مشتهراً بالسمع ويشرب النبيذ قال : سألت الرضا ﷺ عن السماع فقال : لأهل الحجاز رأي فيه وهو في حيز الباطل واللهو أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعِمْيَانًا﴾ قال : مستبصرين ليسوا بشكّاء .

وفي جوامع الجامع عن الصادق عليه السلام في قوله : ﴿واجعلنا للمتقين إمامًا﴾ قال : إيانا عني .

أقول : وهناك روايات في هذا المعنى وأخرى تتضمن قراءتهم عليهم السلام : «واجعل لنا من المتقين إمامًا» .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر في قوله : ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ قال : على الفقر في الدنيا .

وفي المجمع روى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي : قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء ؟ قال : كثرة الدعاء أفضل وقرأ هذه الآية .

أقول : وفي انطباق الآية على ما في الرواية إبهام .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : ﴿قل ما يعبؤكم ربي لولا دعاؤكم﴾ يقول : ما يفعل ربي بكم فقد كذبتهم فسوف يكون لزاماً .

سورة الشعراء

مكية ، وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَغْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) .

(بيان)

غرض السورة تسلية النبي ﷺ قبال ما كذبه قومه وكذبوا بكتابه النازل عليه
من ربه - على ما يلوح إليه صدر السورة : تلك آيات الكتاب المبين - وقد رموه تارة
بأنه مجنون واخرى بأنه شاعر ، وفيها تهديدهم مشفعا ذلك بإيراد قصص جمع من

الأنبياء وهم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وما انتهت إليه عاقبة تكذيبهم لتسلى به نفس النبي ﷺ ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه وليعتبر المكذبون .

والسورة من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً وقد اشتملت على قوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ . وربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآية في هذه السورة ووقوع قوله : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ في سورة الحجر وقياس مضمونيهما كل مع الأخرى أن هذه السورة أقدم نزولاً من سورة الحجر وظاهر سياق آيات السورة أنها جميعاً مكية واستثنى بعضهم الآيات الخمس التي في آخرها ، وبعض آخر قوله : ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ وسيجيء الكلام فيهما .

قوله تعالى : ﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين﴾ الإشارة بتلك إلى آيات الكتاب مما سينزل ، بنزول السورة وما نزل قبل ، وتخصيصها بالإشارة البعيدة للدلالة على علو قدرها ورفعة مكانتها ، والمبين من أبان بمعنى ظهر وانجلي .

والمعنى : تلك الآيات العالية قدراً الرفيعة مكاناً آيات الكتاب الظاهر الجلي كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمة الإعجاز وإن كذب به هؤلاء المشركون المعاندون ورموه تارة بأنه من إلقاء شياطين الجن وأخرى بأنه من الشعر .

قوله تعالى : ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ البخوع هو إهلاك النفس عن وجد ، وقوله : ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ تعليل للبخوع ، والمعنى : يرجى منك أن تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك .

والكلام مسوق سوق الإنكار والغرض منه تسلية النبي ﷺ .

قوله تعالى : ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ متعلق المشية محذوف لدلالة الجزاء عليه ، وقوله : ﴿فظلت﴾ الخ ، ظل فعل ناقص اسمه ﴿أعناقهم﴾ وخبره ﴿خاضعين﴾ ونسب الخضوع إلى أعناقهم وهو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حيث يطأطئ رأسه تخضعاً فهو من المجاز العقلي .

والمعنى : إن نشأ أن ننزل عليهم آية تخضعهم وتلجئهم إلى القبول

وتضطرهم إلى الإيمان ننزل عليهم آية كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعاً بيناً بانحناء أعناقهم .

وقيل : المراد بالأعناق الجماعات وقيل : الرؤساء والمقدمون منهم ، وقيل : هو على تقدير مضاف والتقدير فظلت أصحاب أعناقهم خاضعين لها . وهو أسخف الوجوه .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله وتمكن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن ودعوا إليه دفعه بالإعراض .

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر ويقبلون إلى قديمه وفي ذكر صفة الرحمن إشارة إلى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفة الرحمة العامة التي بها صلاح دنياهم وآخرهم .

وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع .

قوله تعالى : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن ﴾ تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم ، وقوله : ﴿ فسيأتيهم ﴾ الخ تفريع على التفريع والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الخطير ، والمعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم وثبت عليهم أنهم كذبوا ، وإذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن من آيات الله ، وتلك الأنباء العقوبات العاجلة والآجلة التي ستحقق بهم .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي والجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام والتقدير أصروا واستمروا على الإعراض وكذبوا بالآيات ولم ينظروا إلى هذه الأزواج الكريمة من النباتات التي أنبتناها في الأرض .

فالرؤية في قوله : ﴿ أولم يروا ﴾ مضمنة معنى النظر ولذا عدت بآلى ، والظاهر أن المراد بالزوج الكريم . وهو الحسن على ما قيل : النوع من النبات وقد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجاً ، وقيل : المراد بالزوج الكريم الذي أنبته الله يعم الحيوان وخاصة الإنسان بدليل قوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ الإشارة بذلك إلى ما

ذكر في الآية السابقة من إنبات كل زوج كريم حيث إن فيه إيجاداً لكل زوج منه وتتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر وسوقهما إلى الغاية المقصودة من وجودهما وفيه هداية كل إلى سعادته الأخيرة ومن كانت هذه سته فكيف يهمل أمر الإنسان ولا يهديه إلى سعادته ولا يدعوه إلى ما فيه خير دنياه وآخرته . هذا ما تدل عليه آية النبات .

وقوله : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكة الاعراض وبطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآية نظير ظاهر قوله : ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾^(١) . وتعليل الكفر والفسوق بفسوخ الملكات الرذيلة واستحكام الفساد في السريرة من قبل في كلامه تعالى أكثر من أن تحصى .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم : إن المراد ما كان في علم الله أن لا يؤمنوا غير سديد لأنه مضافاً إلى كونه خلاف المتبادر من الجملة ، مما لا دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلالة على أن ملكة الاعراض راسخة لم تنزل في نفوسهم .

وعن سيوية أن ﴿كان﴾ في قوله : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ صلة زائدة والمعنى : وما أكثرهم مؤمنين . وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق .

قوله تعالى : ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ فهو تعالى لكونه عزيزاً غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها ويجازيهم بالعقوبات العاجلة والآجلة ، ولكونه رحيماً ينزل عليهم الذكر ليهديهم ويغفر للمؤمنين به ويمهل الكافرين .

(بحث عقلي متعلق بالعلم)

قال في روح المعاني في قوله تعالى : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ قيل : أي وما كان في علم الله تعالى ذلك ، واعترض - بناء على أنه يفهم من السياق العلية - بأن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس .

ورد بأن معنى كون علمه تعالى تابِعاً للمعلوم أن علمه سبحانه في الأزل بمعلوم معين حادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصية العلم وامتيازَه عن سائر العلوم باعتبار أنه علم بهذه الماهية ، وأما وجود الماهية فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزلي التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها في الأزل على هذه الخصوصية لزم أن يتحقق ويوجد فيما لا يزال كذلك نفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزلي ووقوعه تابع له . انتهى .

وهذه حجة كثيرة الورود في كلام المجبرة وخاصة الإمام الرازي في تفسيره الكبير يستدلون بها على إثبات الجبر ونفي الاختيار ومحصلها أن الحوادث ومنها أفعال الإنسان معلومة لله سبحانه في الأزل فهي ضرورية الوقوع وإلا كان علمه جهلاً - تعالى عن ذلك - فالإنسان مجبر عليها غير مختار . واعترض عليه بأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس وأجيب بما ذكره من أن علمه في الأزل تابع لماهية المعلوم لكن المعلوم تابع في وجوده للعلم .

والحجة مضافاً إلى فساد مقدماتها بناء ومبنى مغالطة بيّنة . ففيها :

أولاً : أن فرض ثبوت ما للماهية في الأزل ووجودها فيها لا يزال يقضي بتقدم الماهية على الوجود وأنى للماهية هذه الأصالة والتقدم ؟

ثانياً : أن مبنى الحجة وكذا الاعتراض والجواب على كون علمه تعالى بالأشياء علماً حصولياً نظير علومنا الحصولية المتعلقة بالمفاهيم وقد أقيم البرهان في محله على بطلانه وأن الأشياء معلومة له تعالى علماً حضورياً وعلمه علماً : علم حضوري بالأشياء قبل الإيجاد وهو عين الذات وعلم حضوري بها بعد الإيجاد وهو عين وجود الأشياء . وتفصيل الكلام في محله .

ثالثاً : أن العلم الأزلي بمعلومه فيما لا يزال إنما يكون علماً بحقيقة معنى العلم إذا تعلق به على ما هو عليه أي بجميع قيوده ومشخصاته وخصوصياته الوجودية ، ومن خصوصيات وجود الفعل أنه حركات خاصة إرادية اختيارية صادرة عن فاعله الخاص مخالفة لسائر الحركات الاضطرارية القائمة بوجوده .

وإذا كان كذلك كانت الضرورة اللاحقة للفعل من جهة تعلق العلم به صفة للفعل الخاص الاختياري بما هو فعل خاص اختياري لا صفة للفعل المطلق إذ لا وجود له

أي كان من الواجب أن يصدر الفعل عن إرادة فاعله واختياره وإلا تخلف المعلوم عن العلم لا أن يتعلق العلم بالفعل الاختياري ثم يدفع صفة الاختيار عن متعلقه ويقيم مقامها صفة الضرورة والإجبار .

فقد وضع في الحجة الفعل المطلق مكان الفعل الخاص فعدَّ ضرورياً مع أن الضروري تحقق الفعل بوصف الاختيار نظير الممكن بالذات الواجب بالغير ففي الحجة مغالطة بالخلط بين الفعل المطلق والفعل المقيد بالاختيار .

ومن هنا يتبين عدم استقامة تعليل ضرورة عدم إيمانهم بتعلق العلم الأزلي به فإن تعلق العلم الأزلي بفعل إنما يوجب ضرورة وقوعه بالوصف الذي هو عليه فإن كان اختياريًا وجب تحققه اختياريًا وإن كان غير اختياري وجب تحققه كذلك .

على أنه لو كان معنى قوله : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ امتناع إيمانهم لتعلق العلم الأزلي بعدمه لاتخاذوه حجة على النبي ﷺ وعدّوه عذراً لأنفسهم في استنكافهم عن الإيمان كما اعترف به بعض المجبرة .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ حدثني أبي عن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : تخضع رقابهم يعني بني أمية وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر .

أقول : وهذا المعنى رواه الكليني في روضة الكافي والصدوق في كمال الدين والمفيد في الإرشاد والشيخ في الغيبة ، والظاهر أنه من قبيل الجري دون التفسير لعدم مساعدة سياق الآية عليه .



وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ
 فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢)
 وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ
 عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ
 مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ
 أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا
 مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ
 لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)
 وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدَتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا
 رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
 مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
 آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ
 لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنْ آتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنْ
 الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أُولُو جُثَّتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢)
 وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا
 لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْسُنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى

مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .

(بيان)

شروع في ذكر قصص عدّة من أقوام الأنبياء الماضين موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ليظهر أن قوم النبي ﷺ سائرون مسيرهم وسيردون موردّهم ، لا يؤمن أكثرهم فيؤاخذهم الله تعالى بعقوبة العاجل والأجل ، والدليل على ذلك ختم كل واحدة من القصص بقوله : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ كما ختم به الكلام الحاكي لإعراض قوم النبي ﷺ في أول السورة ، وليس ذلك إلا لتطبيق القصة على القصة .

كل ذلك ليتسلى النبي ﷺ ولا يضيق صدره ويعلم أنه ليس بدعاً من الرسل ولا المتوقع من قومه غير ما عامل به الأمم الماضون رسلهم ، وفيه تهديد ضماني لقومه ويؤيده تصدير قصة إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ .

قوله تعالى : ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ إلى قوله ﴿ألا يتقون﴾ أي واذكر وقتاً نادى فيه ربك موسى وبعثه بالرسالة إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل على ما فصله في سورة طه وغيرها .

وقوله : ﴿أن ات القوم الظالمين﴾ نوع تفسير للنداء ، وتوصيفهم أولاً بالظالمين ثم بيانه ثانياً بقوم فرعون للإشارة إلى حكمة الإرسال وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب بني إسرائيل كما في سورة طه من قوله : ﴿أذهبوا إلى فرعون إنه طغى﴾ إلى أن قال ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾^(١) .

وقوله : ﴿ألا يتقون﴾ بصيغة الغيبة ، وهو توبيخ غيايبي منه تعالى لهم وإيراده في

مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام في معنى قولنا : قل لهم إن ربي يوبخكم على ترك التقوى ويقول : ألا تتقون .

قوله تعالى : ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون﴾ إلى قوله ﴿فأرسل إلى هارون﴾ ، قال في مجمع البيان : الخوف انزعاج النفس بتوقع الضر ونقيضه الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع ، انتهى . وأكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدي إلى الإلتقاء عملاً وإن لم تضطرب النفس ، والخشية على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب والقلق ، ولذا نفى الله الخشية من غيره عن أنبيائه وربما أثبت الخوف فقال : ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾^(١) ، وقال : ﴿وإما تخافن منهم خيانة﴾^(٢) .

وقوله : ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ أي ينسبني قوم فرعون إلى الكذب ، وقوله : ﴿ويضيق صدري ولا ينطق لساني﴾ الفعلان مرفوعان وهما معطوفان على قوله : ﴿أخاف﴾ فالذي اعتل به أمور ثلاث : خوف التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، وفي قراءة يعقوب وغيره يضيق وينطلق بالنصب عطفاً على ﴿يكذبون﴾ وهو أوفق بطبع المعنى ، وعليه فالعلة واحدة وهي خوف التكذيب الذي يترتب عليه ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، ويطلق ما سيحيى من آية القصص من ذكر علة واحدة هي خوف التكذيب .

وقوله : ﴿فأرسل إلى هارون﴾ أي أرسل ملك الوحي إلى هارون ليكون معيناً لي على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبة أو أشكل عليه أمر : أرسل إلى فلان أي استمد منه واتخذة عوناً لك .

فالجمله أعني قوله : ﴿فأرسل إلى هارون﴾ متفرعة على قوله : ﴿إني أخاف﴾ الخ ، وذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان توطئة وتقدمة لذكرها وسؤال موهبة الرسالة لهارون .

وإنما اعتل بما اعتل به وسأل الرسالة لأخيه ليكون شريكاً له في أمره ، معيناً

(١) الأحزاب : ٣٩ .

(٢) الأنفال : ٥٨ .

مصدقاً له في التبليغ لا فراراً عن تحمل أعباء الرسالة ، واستعفاءً منها ، قال في روح المعاني : ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع ﴿فأرسل﴾ بين الأوائل وبين الرابعة أعني قوله : ﴿ولهم عليّ ذنب﴾ الخ ، فأذن بتعلقه بها ولو كان تعللاً لأخر ، انتهى .

وهو حسن وأوضح منه قوله تعالى في سورة القصص في القصة : ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ قال الراغب في المفردات : الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء يقال : ذنبته أصبت ذنبه ، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته . انتهى .

وفي الآية إشارة إلى قصة قتله ﷺ ، وكونه ذنباً لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوي المذكور آنفاً ، وأما كونه ذنباً بمعنى معصية الله تعالى فلا دليل عليه وسيوافيك فيه كلام عند تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾ كلا للردع وهو متعلق بما ذكره من خوف القتل ، ففيه تأمين له وتطبيب لنفسه أنهم لا يصلون إليه ، وأما سؤاله الإرسال إلى هارون فلم يذكر ما أجيب به عنه ، غير أن قوله : ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ دليل على إجابة مسؤوله .

وقوله : ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ متفرع على الردع فيفيد أن اذهبا إليه بآياتنا ولا تخافا ، وقد علل ذلك بقوله : ﴿إنا معكم مستمعون﴾ والمراد بضمير الجمع موسى وهارون والقوم الذين أرسلوا إليهم ، ولا يعبأ بقول من قال : إن المراد به موسى وهارون بناء على كون أقل الجمع اثنين فإنه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنية قبله وبعده كما قيل .

والاستماع هو الإصغاء إلى الكلام والحديث وهو كناية عن الحضور وكمال

العناية بما يجري بينهما وبين فرعون وقومه عند تبليغ الرسالة كما قال في القصة من سورة طه : ﴿ لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ (١) .

ومحصل المعنى : كلا لا يقدران على قتلك فاذهبا إليهم بآياتنا ولا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجري بينكم .

قوله تعالى : ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ بيان لقوله في الآية السابقة : ﴿ فاذهبا إليهم بآياتنا ﴾ .

وقوله : ﴿ فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ تفريع على إتيان فرعون ، والتعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كل واحد منهما أو باعتبار كون رسالتهما واحدة وهي قولهما : ﴿ أن أرسل ﴾ الخ ، أو باعتبار أن الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع ، والتقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أي ذوا رسالته كما قيل .

وقوله : ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ تفسير للرسالة المفهومة من السياق والمراد بإرسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وهي أرض آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام سمي إطلاقهم ليعودوا إليها إرسالاً منه لهم إليها .

قوله تعالى : ﴿ قال ألم نريك فينا وليداً ولبث فينا من عمرك سنين ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، و ﴿ نريك ﴾ من التربية ، والوليد الصبي .

لما أقبل فرعون على موسى وهارون وسمع كلامهما عرف موسى وخصه بالخطاب قائلاً ألم نريك الخ ، ومراده الاعتراض عليه أولاً من جهة دعواه الرسالة يقول : أنت الذي ربيناك وأنت وليد ولبث فينا من عمرك سنين عديدة نعرفك باسمك ونعتك ولم ننس شيئاً من أحوالك فمن أين لك هذه الرسالة وأنت من نعرفك ولا نجهل أصلك ؟ .

قوله تعالى : ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ الفعلة بفتح

الفاء بناء مرة من الفعل ، وتوصيف الفعل بقوله : ﴿التي فعلت﴾ للدلالة على عظم خطره وكثرة شناعته وفضاعته نظير ما في قوله : ﴿فغشيه من اليم ما غشيه﴾^(١) ، ومراده بهذه الفعل قتله ﷺ القبطي .

وقوله : ﴿وأنت من الكافرين﴾ ظاهر السياق على ما سيأتي الإشارة إليه أن مراده بالكفر كفران النعمة وأن قتله القبطي وإفساده في أرضه كفران لنعمة عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعة حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بني إسرائيل ورباه في بيته بل لأنه من بني إسرائيل وهو يراهم عبيداً لنفسه ويرى نفسه رباً منعماً عليهم فقتل الواحد منهم رجلاً من قومه وإفساده في الأرض خروج من طور العبودية وكفر بنعمته .

فمحصل اعتراضه المشار إليه في الآيتين أنك الذي ربيناك صغيراً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وأفسدت في الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتي وأنت من عبيدي الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرسالة ؟ وكيف تكون رسولاً وأنت هذا الذي نعرفك ؟ .

وبذلك يظهر عدم استقامة تفسير بعضهم الكفر بالكفر المقابل للإيمان ، وأن المعنى وأنت من الكافرين بالوهيتي أو أنت من الكافرين بالله على زعمك حيث خالطتنا سنين وأنت في ملتنا ، وكذا قول بعضهم : إن المراد وأنت من الكافرين بنعمتي عليك خاصة .

قوله تعالى : ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ ضمير ﴿فعلتها﴾ راجع إلى الفعل ، والظاهر أن ﴿إذا﴾ مقطوع عن الجواب والجزاء ويفيد معنى حينئذ كما قيل ، وعبدته تعبيداً وأعبدته إعباداً إذا اتخذته عبداً لنفسه .

والآيات الثلاث جواب موسى ﷺ عما اعترض به فرعون ، والتطبيق بين جوابه ﷺ وما اعترض به فرعون يعطي أنه ﷺ حلل كلام فرعون إلى القدح في دعواه الرسالة من ثلاثة أوجه : أحدها استغراب رسالته واستبعادها وهو الذي يعلم حاله

وقد أشار إليه بقوله : ﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ والثاني استقبح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله : ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ والثالث المن عليه بأنه من عبده ويستفاد من قوله : ﴿وأنت من الكافرين﴾ وقد اقتضى طبع ما يذكره في الجواب أن يغير الترتيب في الجواب فيجيب أولاً عن اعتراضه الثاني ثم عن الأول ثم عن الثالث .

فقوله : ﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ جواب عن اعتراضه بقتل القبطي وقد استعظمه حيث لم يصرح باسمه بل كنى عنه بالفعل التي فعلت صوتاً للأسماع أن تقرع باسمه فتألم .

والتدبر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أن قوله : ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً﴾ من تمام الجواب عن القتل فيقابل الحكم والضلال ويتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحق في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه ، وهذا هو الذي كان يؤتاه الأنبياء ، قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ .

فالمراد أنني فعلتها حينئذ والحوال أنني في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه والحق الذي يجب أن يتبع هناك فأقدمت على الدفاع عمن استنصرني ولم أعلم أنه يؤدي إلى قتل الرجل ويؤدي ذلك إلى عاقبة وخيمة تحوجني إلى خروجي من مصر وفراري إلى مدين والتغرب عن الوطن سنين .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالضلال الجهل بمعنى الإقدام على الفعل من غير مبالاة بالعواقب كما في قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكذا قول بعض آخر : إن المراد بالضلال المحبة كما فسره قول بني يعقوب لأبيهم : ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي في محبتك القديمة ليوسف ، فالمعنى : فعلتها حينئذ وأنا من المحبين لله لا ألوي عن محبته إلى شيء .

أما الوجه الأول ففيه أنه اعتراف بالجرم والمعصية ، وآيات سورة القصص ناصة

على أن الله سبحانه آتاه حكماً وعِلماً قبل واقعة القتل وهذا لا يجامع الضلال بهذا المعنى من الجهل .

وأما الوجه الثاني ففيه مضافاً إلى عدم مساعدة السياق : أن من الممتنع من أدب القرآن أن يسمى محبة الله سبحانه ضلالاً .

وأما قول القائل : إن المراد بالضلال الجهل بمعنى عدم التعمُّد وأنه إنما فعل ذلك جاهلاً به غير متعمد إياه فإنه ^{لذلك} إنما تعمَّد وكز القبطي للتأديب فأدَّى إلى ما أدَّى .

وكذا قول القائل : إن المراد بالضلال بالشرائع كما فسَّر به بعضهم قوله : ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ .

وكذا قول القائل : إن المراد بالضلال النسيان كما فسَّر به قوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(١) . وأن المعنى فعلتها ناسياً حرمتها أو ناسياً أن الوكز مما يفضي إلى القتل عادة .

فوجه يمكن أن يوجه كل منها بما يرجع به إلى ما قدمناه .

وقوله : ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوہب لي ربي حكماً﴾ متفرع على قصة القتل ، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب﴾^(٢) .

وأما الحكم فالمراد به - كما استظهرناه - إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به .

فإن قلت : صريح الآية أن موهبة الحكم كانت بعد واقعة القتل ومفاد آيات سورة القصص أنه ^{لذلك} أعطي الحكم قبلها ، قال تعالى : ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة﴾^(٣) الخ ، ثم ساق القصة وذكر القتل والفرار .

قلت : إنما ورد لفظ الحكم ههنا وفي سورة القصص منكرأ وهو مشعر بمغايرة كل منهما الآخر وقد ورد في خصوص التوراة أنها متضمنة للحكم ، قال تعالى : ﴿وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾^(١) ، وقد نزلت التوراة بعد غرق فرعون وإنجاء بني إسرائيل .

فمن الممكن أن يقال : إن موسى ﷺ أعطي مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطي وبعد الفرار قبل العود إلى مصر وبعد غرق فرعون ، وقد خصه الله في كل مرة بمرتبة من الحكم حتى تمت له الحكمة بنزول التوراة ، وهذا بحسب التمثيل نظير ما يرزق بعض الناس أوان صباح سلامة في فطرته قلما يميل معها طبعه إلى الشر والفساد ثم إذا نشأ يعطى اعتدالاً في التعقل وجودة في التدبير فينبعث إلى اكتساب الفضائل فيرزق ملكة التقوى والصفات الثلاث في الحقيقة سنخ واحد ينمو ويزيد حالاً بعد حال .

ويظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم الحكم بالنبوة لعدم دليل عليه من جهة اللفظ ولا المقام .

على أن الله سبحانه ذكر الحكم والنبوة في مواضع من كلامه وفرق بينهما كقوله : ﴿أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾^(٢) ، وقوله : ﴿اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة﴾^(٤) إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿وجعلني من المرسلين﴾ جواب عن الاعتراض الأول وهو استغراب رسالته واستبعادها وهم يعرفونه ، وقد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربونه فيهم وليداً ولبت فيهم من عمره سنين ، وتقريره أن استغرابهم واستبعادهم رسالته استناداً إلى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمراً اكتسابياً يمكن أن يحدث به أو يتوقع حصوله بحصول مقدماته الاختيارية ، وليس الأمر كذلك بل هي أمر وهبي

(١) المائدة : ٤٣ .

(٢) آل عمران : ٧٩ .

(٣) الأنعام : ٨٩ .

(٤) الجاثية : ١٦ .

لا تأثير للأسباب العادية فيها وقد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر في السياق .

وأما ما ذكره من أن قوله : ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ الخ ، مسوق للمن على موسى عليه السلام دون الاستغراب والاستبعاد كما ذكرناه ، فالآية في نفسها وإن لم تأب الحمل على ذلك لكن سياق مجموع الجواب لا يساعد عليه ، وذلك أن فيه إفساد السياق من حيث يتعين أن يجعل قوله : ﴿وتلك نعمة تمنّ عليّ﴾ الخ ، جواباً عن المن وهو لا ينطبق عليه ، ويجعل قوله : ﴿فعلتها إذا﴾ الخ ، جواباً عن الاعتراض بالقتل ، ويبقى قوله : ﴿وجعلني من المرسلين﴾ فضلاً لا حاجة إليه فافهم ذلك .

وقوله : ﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل﴾ جواب عن منه عليه وتقريعه بأنه من عبّده وقد كفر نعمته وتقدير الجواب أن هذا الذي تعدّه نعمة وتقرّعني بكفرانها سلطة ظلم وتغلب إذ عبّدت بني إسرائيل والتعبيد ظلماً وتغلباً ليس من النعمة في شيء .

فالجملّة استفهامية مسوقة للإنكار و ﴿أن عبّدت بني إسرائيل﴾ بيان لما أشير إليه بقوله : ﴿تلك﴾ والمحصّل أن الذي تشير إليه بقولك : ﴿وأنت من الكافرين﴾ من أن لك عليّ نعمة كفرتها إذ كنت وليّ نعمتي وسائر بني إسرائيل - أو إذ كنت وليّ نعمتنا معشر بني إسرائيل - ليس بحق إذ كونك ولياً منعماً ليس إلا استناداً إلى التعبيد ، والتعبيد ظلم والولاية المستندة إليه أيضاً ظلم وحاشا أن يكون الظالم ولياً منعماً له على من عبّده نعمة وإلا كان التعبيد نعمة وليس نعمة ، ففي قوله : ﴿أن عبّدت بني إسرائيل﴾ وضع السبب موضع المسبب .

والقوم حلّلوا كلام فرعون : ﴿ألم نربك﴾ الخ ، إلى اعتراضين - كما أشرنا إليه - المن عليه بتربيته وليداً وكفرانه النعمة وإفساده في الأرض بقتل القبطي فأشكل عليهم الأمر من جهتين - كما أشرنا إليه .

إحدهما صيرورة قوله : ﴿وجعلني من المرسلين﴾ فضلاً لا حاجة إليه في سوق الجواب .

والثانية : عدم صلاحية قوله : ﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل﴾ جواباً عن منه على موسى عليه السلام بتربيته في بيته وليداً .

وقد ذكروا في توجيهه وجوهاً :

منها : أنه مسوق للاعتراف بأن تربيته لموسى كانت نعمة عليه وإنكار أن يكون ترك استعباده نعمة وهمزة الإنكار مقدرة فكأنه يقول : أو تلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني هذا ، وأنت ترى أن فيه تقديراً لما لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا إشارة .

ومنها : إنه إنكار لأصل النعمة عليه لمكان تعبيده بني إسرائيل كأنه يقول : إن تربيتك لي ليست نعمة يمن بها عليّ لأنك عبدت قومي فأحبطت به عملك فقلوه : ﴿أن عبدت﴾ الخ في مقام التعليل للإنكار هذا ، وهذا الوجه وإن كان أقرب إلى الذهن من سابقه لكن هذا الجواب غير تام معني فإن تعبيده لبني إسرائيل لا يغير حقيقة ما له من الصنيعة عند موسى في تربيته وليداً .

ومنها : أن المعنى أن هذه النعمة التي تمن بها عليّ من التربية إنما سببه ظلمك بني إسرائيل بتعبيدهم فاضطرت أُمي لذلك أن ألقيني في اليم فأخذتني فربيتني فإذا كانت هذه التربية مسببة عن ظلمك بالتعبيد فليست بنعمة هذا والشأن في استفادة هذا المعنى من لفظ الآية .

ومنها : أن الذي رباني أُمي وغيرها من بني إسرائيل حيث استعبدتهم فأمرتهم فربوني فليست هذه التربية نعمة منك تمنها عليّ لانتهائها إلى التعبيد ظلماً هذا ، وهذا الوجه أبعد من سابقه من لفظ الآية .

ومنها : أن ذلك اعتراف منه ﷺ بنعمة فرعون عليه والمعنى وتلك التربية نعمة منك تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل وتركت تعبيدي هذا وأنت خير بأن لا دليل على ما قدره من قوله : وتركت تعبيدي .

قوله تعالى : ﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ إلى قوله ﴿من المسجونين﴾ لما كلم فرعون موسى ﷺ في معنى رسالته قادحاً فيها فتلقى الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلمه في خصوص مرسله وقد أخبره أن الذي أرسله هو رب العالمين فراجع فيه واستوضحه بقوله : ﴿وما رب العالمين﴾ ؟ إلى تمام سبع آيات .

واتضح المراد منها يتوقف على تذكر أصول مذاهب الوثنية في أمر الربوبية وقد تقدمت الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كراراً .

فهؤلاء يرون أن وجود الأشياء ينتهي إلى موجد واجب الوجود هو واحد لا شريك له في وجوب وجوده هو أجل من أن يحده حد في وجوده وأعظم من أن يحيط به فهم أو يناله إدراك ، ولذلك لا يجوز عبادته لأن العبادة نوع توجه إلى المعبود والتوجه إدراك .

ولذلك بعينه عدلوا عن عبادته والتقرب إليه إلى التقرب إلى أشياء من خلقه ذوي وجودات شريفة نورية أو نارية ، هي مقربة إليه فانية فيه من الملائكة والجن والقديسين من البشر المتخلصين من ألوث المادة الفانية في اللاهوت الباقي بها ومنهم الملوك العظام أو بعضهم عند قدماء الوثنية وكان من جملتهم فرعون وموسى وبالجملة كانوا يعبدونهم بعبادة أصنامهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم بمعنى أن يفيضوا إليهم من الخير الذي يفيض عنهم كما في الملائكة أو لا يصيبوهم بالشر الذي يترشح عنهم كما في الجن فإن كلا من هؤلاء المعبودين يرجع إليه تدبير أمر من أمور العالم الكلية كالحب والبغض والسلم والحرب والرفاهية وغيرها أو صقع من أصقاعه كالسما والارض والإنسان ونحوها .

فهنالك أرباب وآلهة يتصرف كل منهم في العالم الذي يرجع إليه تدبيره كإله عالم الأرض وإله عالم السماء وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسو البشر ، وإله عالم الآلهة وهو الله سبحانه فهو إله الآلهة ورب الأرباب .

إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن لا معنى صحيحاً لقولنا: رب العالمين عند الوثنيين نظراً إلى أصولهم إذ لو أريد به بعض هذه الموجودات الشريفة الممكنة بأعيانهم فهو رب عالم من عوالم الخلقة وهو العالم الذي يباشر التصرف فيه كعالم السماء وعالم الأرض مثلاً ولو أريد به الله سبحانه فهو رب عالم الأرباب وإله عالم الآلهة فقط دون جميع العالمين ولو أريد غير الطائفتين من الرب الواجب الوجود والأرباب الممكنة الوجود فلا مصداق له معقولاً .

فقوله : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ سؤال منه عن حقيقة رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثناً يعبد الأصنام وهو مع ذلك يدعي الألوهية ، أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى : ﴿ ويدرك وآلهتك ﴾ ^(١) ، وأما دعواه الألوهية فللآية المذكورة

ولقوله تعالى : ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ (١) .

ولا منافاة عند الوثنية بين كون الشيء إلهاً رباً وبين كونه مربوباً لرب آخر لأن الربوبية هو الاستقلال في تدبير شيء من العالم وهو لا ينافي الإمكان والمربوبية لشيء آخر وكل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه وإله الآلهة لا إله له .

وكان المُلْك عند الوثنية ظهوراً من اللاهوت في بعض النفوس البشرية بالسلطة ونفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام وكذلك رؤساء البيوت في بيوتهم ، وكان فرعون وثناً يعبد الآلهة وهو ملك القبط يعبد قومه كسائر الآلهة .

فلما سمع من موسى وهارون قولهما : ﴿إنا رسول رب العالمين﴾ تعجب منه إذ لم يعقل له معنى محصلاً إذ لو أريد به الواجب وهو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين ولو أريد به بعض الممكنات الشريفة من الآلهة كبعض الملائكة وغيرهم فهو أيضاً عنده رب عالم من عوالم الخلقة دون جميع العالمين فما معنى رب العالمين .

ولذلك قال : ﴿وما رب العالمين﴾ فسأل عن حقيقة الموصوف بهذه الصفة بما هو موصوف بهذه الصفة ولم يسأل عن حقيقة الله سبحانه فإنه لوثنيته كان معتقداً بوجوده مدعياً له وهو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل إلى إدراك حقيقته كيف ؟ وهو أساس مذهبهم الذي يبنون عليه عبادة سائر الآلهة والأرباب كما سمعت .

وقوله : ﴿قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ جواب موسى ^{عليه السلام} عن سؤاله : ﴿وما رب العالمين﴾ وهو خبر لمبتدأ محذوف ، ومحصل المعنى على ما يعطيه المطابقة بين السؤال والجواب : هو رب السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بوجود التدبير فيها وكونه تدبيراً واحداً متصلاً مرتبطاً على أن لها مدبراً - رباً - واحداً على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان والوجدان .

وبتعبير آخر مرادي بالعالمين السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بالتدبير الواحد الذي فيها على أن لها رباً مديراً واحداً ، ومرادي برب العالمين ذلك الرب الواحد الذي تدل عليه وهذه دلالة يقينية يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان والوجدان .

فإن قلت : لم يطلب فرعون من موسى ﷺ إلا أن يعرفه ما هذا الذي يسميه رب العالمين ؟ وما حقيقته ؟ لكونه غير معقول عنده فلم يسأل إلا التصور فما معنى قوله : ﴿إن كنتم موقنين﴾ واليقين علم تصديقي لا توقف للتصور عليه أصلاً .

على أنه ﷺ لم يأت في جواب فرعون بشيء غير أنه وضع لفظ السماوات والأرض وما بينهما موضع لفظ العالمين فكان تفسيراً للفظ الجمع بأسماء آحاده كتفسير الرجال بزيد وعمرو وبكر فلم يفد بالآخرة إلا التصور الأول ولا تأثير لليقين في ذلك .

قلت : كون فرعون يسأله أن يصور له ﴿رب العالمين﴾ تصويراً مسلم لا شك فيه لكن موسى بذل القول بوضع ﴿السماوات والأرض وما بينهما﴾ مكان العالمين وهو يدل على ارتباط بعض الأجزاء ببعض والاتصال بينها بحيث يؤدي إلى وحدة التدبير الواقع فيها والنظام الجاري عليها ثم قيده بقوله : ﴿إن كنتم موقنين﴾ ليدل على أن أهل اليقين يصدقون من ذلك بوجود مدبر واحد لجميع العالمين .

فكأنه قيل له : ما تريد برب العالمين ؟ فقال : أريد به ما يريده أهل اليقين إذ يستدلون بارتباط التدبير واتصاله في عوالم السماوات والأرض وما بينهما على أن لجميع هذه العوالم مديراً واحداً ورباً لا شريك له في ربوبيته لها وإذا كانوا يصدقون بوجود رب واحد للعالمين فهم يتصورونه بوجه تصوراً إذ لا معنى للتصديق بلا تصور .

وبعبارة موجزة : رب العالمين هو الذي يوقن الموقنون بربوبيته لجميع السماوات والأرض وما بينهما إذا نظروا إليها وشاهدوا وحدة التدبير الذي فيها .

والاحتجاج بتحقيق التصديق على تحقق التصور قبله أقوى ما يمكن أن يحتج به على أنه تعالى مدرك بوجه ومتصور تصوراً صحيحاً وإن استحال أن يدرك بكنهه ولا يحيطون به علماً .

وقد ظهر بذلك كله أولاً : أن الجواب إنما هو بإحالة في مسؤوله إلى ما يتصوره منه الموقنون إذ يصدقون بوجوده .

وثانياً : أن الذي أُشير إليه من الحجة في الآية هو البرهان على توحيد الربوبية المأخوذ من وحدة التدبير إذ هو الذي يمسّه الحاجة قبال الوثنية المدّعين للشركاء في الربوبية .

وبذلك يظهر فساد ما ذكروا أن العلم بحقيقة الذات لما كان ممتنعاً عدل موسى عليه السلام عن تعريف الحقيقة بالحد إلى تعريفه تعالى بصفاته فقال : رب السماوات والأرض وما بينهما وأشار بقوله : ﴿إن كنتم موقنين﴾ إلى دلالتها بحدوثها على أن محدثها ذات واحدة واجبة الوجود لا يشاركها في وجوب وجودها شيء غيرها .

وجه الفساد ما عرفت أن الوثنية قائلون باستحالة العلم بحقيقة الذات وكنهها ، وأن الموجد ذات واجبة الوجود لا يشاركها في وجوب وجودها غيره ، وأن الآلهة من دون الله موجودات ممكنة الوجود كل منها مدبر لجهة من جهات العالم وهي جميعاً مخلوقة لله فما قرّروه في معنى الآية لا يجدي في مقام المخاصمة معهم شيئاً .

وقوله : ﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾ أي ألا تصغون إلى ما يقول موسى ؟ والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا إليه فيتعجبوا من قوله حيث يدّعي رسالة رب العالمين وإذا سئل ما رب العالمين ؟ أعاد الكلمة ثانياً ولم يزد على ما بدأ به شيئاً .

وهذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذي لاح من كلام موسى عليه السلام فإنه إنما قال : إن جميع العالمين تدلّ بوحدة التدبير الذي يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها رباً مدبراً واحداً هو الذي تسألني عنه ، وهو يفسر كلامه أنه يقول : أنا رسول رب العالمين ، فإذا سألته ما رب العالمين ؟ يجيبني بأنه رب العالمين .

وبما تقدم بان عدم سداد قولهم في تفسير هذا التعجيب إن مراده أنني سألته عن الذات فأجاب بالصفة وذلك أن السؤال إنما هو عن الذات من حيث صفته على ما تقدم بيانه ، ولم يفسر موسى الذات بالوصف بل غير قوله : رب العالمين إلى قوله : ﴿رب السماوات والأرض﴾ فوضع ثانياً قوله : ﴿السماوات والأرض﴾ مكان قوله أولاً : ﴿العالمين﴾ كأنه يومي إلى أن فرعون لم يفهم معنى العالمين .

وقوله : ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ جواب موسى ^{عليه السلام} ثانياً فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله وقد كان أجاب عن سؤاله ﴿وما رب العالمين﴾ بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانياً إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمي الإنسانية فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء فعالم الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال : ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ .

فإن فرعون ما كان يدافع في الحقيقة إلا عن نفسه لما كان يدعي الألوهية فكان يحتال في أن يبطل تعلق ربوبية الرب به في ضمن تعلقه بالعالمين لاستلزام ذلك بطلان ربوبية الأرباب وهو من جملتهم وإن كان يرى أنه أعلاهم وأهمهم كما حكى الله تعالى عنه : ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾^(١) . ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾^(٢) .

فكأنه كان يقول : إن أردت برب العالمين الله تعالى فهو رب الأرباب لا غير وإن أردت غيره من الآلهة فكل منهم رب عالم خاص فما معنى رب العالمين ؟ فأجاب موسى بما حاصله أن ليس في الوجود إلا رب واحد فيكون رب العالمين فهو ربكم وقد أرسلني إليكم .

وكان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانياً بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمي الإنسانية من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته .

وقوله : ﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ قول فرعون ثانياً وقد سمى موسى رسولا تهكماً واستهزاء وأضافه إلى من حوله ترفعاً من أن يكون رسولاً إليه ، وقد رماه بالمجنون مستنداً إلى قوله ^{عليه السلام} : ﴿ربكم ورب آبائكم﴾ الخ .

كأنه يقول : إنه لمجنون لما في كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال في تعقله يدعي رسالة رب العالمين فأسأله ما رب العالمين ؟ فيكرر اللفظ تقريباً أولاً ثم يفسره بأنه ربكم ورب آبائكم الأولين .

(١) النازعات : ٢٤ .

(٢) القصص : ٣٨ .

وقوله : ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس وسائر الأجرام النيرة السماوية وطلوعها وبالمغرب الجهة التي تغرب فيها بحسب الحس ، وبما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود ويساوي السماوات والأرض وما بينهما .

فيكون إعادة لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر وهو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكتة اتصال التدبير واتحاده فإن للشروق ارتباطاً بالغروب والمشرق والمغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما ، كما أن للسماء أرضاً ولهما أمر بينهما وهذا النوع من الاتحاد لا يقبل إلا تدبيراً متصلاً واحداً ، وكما أن كل أمة حاضرة لها ارتباط وجودي بالأمم الماضية ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد والتدبير واحد فالمدبر واحد .

وقد بدّل قوله في الجواب الأول : ﴿إن كنتم موقنين﴾ من قوله ههنا : ﴿إن كنتم تعقلون﴾ تعريضاً له حيث قال لمن حوله : ﴿ألا تستمعون﴾ استهزاء به وإهانة له ، ثم رماه ثانياً بالجنون واختلال الكلام فأشار ^{عليه السلام} بقوله : ﴿إن كنتم تعقلون﴾ إلى أنهم هم المحرومون من نعمة التعقل والتفقه ولو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد ولكفاهم حجة على توحيد الرب وأن القائم بتدبير جميع العالمين من السماوات والأرض وما بينهما مدبر واحد لا مدبر سواه ولا رب غيره .

وقد تبين بما ذكر أن الآية أعني قوله : ﴿رب المشرق﴾ الخ ، تقرير آخر لقوله في الجواب الأول : ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ وأنه برهان على وحدة المدبر من طريق وحدة التدبير وفي ذلك تعريف لرب العالمين بأنه المدبر الواحد الذي يدل عليه التدبير الواحد في جميع العالمين ، نعم البيان الذي يشير إليه هذه الآية أوضح لاشتماله على معنى الشروق والغروب وكونهما من التدبير ظاهر .

وقد ذكروا أن الحجج المودعة في الآيات حجج على وحدانية ذات الواجب بالذات ونفي الشريك في وجوب الوجود وقد تقدم عدم استقامته البتة .

وقوله : ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ تهديد منه لموسى ^{عليه السلام} لو دام على ما يقول به من ربوبية رب العالمين مدّعياً أنه رسول منه وهذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجة أخذ في التهديد وتشبّث بالوعيد .

واتخاذ إله غيره كناية عن القول بربوبية رب العالمين الذي يدعو إليه موسى وإنما لم يذكره صوناً للسانه عن التفوه باسمه ، ولم يعبأ بسائر الآلهة التي كانوا يعبدونها استكباراً وعلواً ، وكأن السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لألوهيته .

والظاهر أن اللام في المسجونين للعهد ، والمعنى : لو دمت على ما تقول لأجعلنك في زمرة الذين في سجنني على ما تعلم من سوء حالهم وشدة عذابهم ، ولهذا لم يعدل عن هذا التعبير إلى مثل قولنا : لأسجننك مع اختصاره .

قوله تعالى : ﴿ قال أو لو جئتكم بشيء مبين ﴾ القائل هو موسى عليه السلام والمراد بشيء مبين شيء يبين ويظهر صحة دعواه وهو آية الرسالة التي تدل على صحة دعوى الرسالة من مدّعيه فإن الآية المعجزة إنما تدل على صدق الرسول في دعواه الرسالة وأما المعارف الإلهية التي يدعو إليها كالتوحيد والمعاد وما يتعلق بهما فالسبيل إلى إثباته الحجة البرهانية وعلى ذلك كانت تجري سيرة الأنبياء في دعوتهم وقد تقدم كلام فيه في الجزء الأول من الكتاب .

والمعنى : قال موسى : أتجعلني من المسجونين ولو أتيتك بشيء يوضح صدقي فيما ادّعت من الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ القائل فرعون وقد فرّع أمره بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعي أن عنده شيئاً مبيناً ولذا قيد الأمر بالإتيان بقوله : ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ أي إن كنت صادقاً في أن عندك شيئاً كذلك .

قوله تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ هاتان الآيتان اللتان أوتيتهما موسى ليلة الطور ، والثعبان : الحية العظيمة وكونه مبيناً ظهور واقعيته بحيث لا يرتاب فيه ، والمراد بنزع يده نزعها من جيبه بعد وضعها فيه (١) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من

(١) النمل : ١٢ .

(٢) القصص : ٣٢ .

أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴿ القائل فرعون وقد قال لموسى : ﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾ رجاء أن يأتي بأمر فيه موضع معارضة ومناقشة فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بداً دون أن يبهته بأنه ساحر عليم .

ولذا أتبع رمية بالسحر بقوله : ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ إغراء لهم عليه وحثاً لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأي وسيلة ممكنة .

وقوله : ﴿فماذا تأمرون﴾ لعل المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشير بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فماذا تشيرون عليّ أن أعامله به حتى أعمل به وذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى ويراهم عبيده ولا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف .

ويؤيد هذا المعنى أنه تعالى حكى في موضع آخر هذا الكلام عن الملأ أنفسهم إذ قال : ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾^(١) . وظاهر أن المراد بأمرهم إشارتهم على فرعون أن يفعل بهما كذا .

وقيل : إن سلطان المعجزة بهره وأدهشه فضل عن عجبه وتكبره وغشيته المسكنة فلم يدر ماذا يقول ؟ ولا كيف يتكلم ؟ .

قوله تعالى : ﴿قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم﴾ القائلون هم الملأ حوله وهم أشراف قومه ، وقوله : ﴿أرجه﴾ بسكون الهاء على القراءة الدائرة وهو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أي أخر موسى وأخاه وأمهلهما ولا تعجل إليهما بسياسة أو سجن ونحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله .

وقرىء ﴿أرجه﴾ بكسر الهاء و﴿أرجئه﴾ بالهمزة وضم الهاء وهما أفصح من القراءة الدائرة ، والمعنى واحد على أي حال .

وقوله : ﴿وأبعث في المدائن حاشرين﴾ المدائن جمع مدينة وهي البلدة والحاشر من الحشر وهو إخراج إلى مكان بإزعاج أي أبعث في البلاد عدة من شرطائك وجنودك يحشرون كل سحار عليم فيها ويأتوك بهم لتعارضهما بسحرهم .

والتعبير بالسحارون الساحر للإشارة إلى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر وأكثر عملاً .

قوله تعالى : ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ ، هو يوم الزينة الذي اتفق موسى وفرعون على جعله ميقاتاً للمعارضة كما في سورة طه ففي الكلام إيجاز وتلخيص .

قوله تعالى : ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا تتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ الاستفهام لحث الناس وترغيبهم على الاجتماع .

قال في الكشف ما حاصله أن المراد باتباع السحرة اتباعهم في دينهم - وكانوا متظاهرين بعبادة فرعون كما يظهر من سياق الآيات التالية - وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحرة ، وإنما ساقوا كلامهم مساق الكناية ليحملوا به السحرة على الاهتمام والجد في المغالبة .

قوله تعالى : ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾ الاستفهام في معنى الطلب ، وقد قالوا : ﴿إن كنا﴾ ولم يقولوا ، إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبة كما يفيد قولهم بعد : ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ بل ألقوه في صورة الشك ليكون أدعى لفرعون إلى جعل الأجر .

وقد أثر ذلك أثره حيث جعل لهم أجراً وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقربين .

قوله تعالى : ﴿قال لهم موسى ألقوا﴾ إلى قوله ﴿تلقف ما يافكون﴾ الحبال جمع حبل ، والعصي جمع عصي ، واللقف الابتلاع بسرعة ، وما يافكون من الإفك بمعنى صرف الشيء عن وجهه سُمي السحر إفكاً لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعية إلى صورة خيالية ، ومعنى الآيات ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فالقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾ يريد أن السحرة لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة بهرهم وأدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلالة على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحاً .

وقوله : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد ونفي الألوهة من دونه .
وقوله : ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فيه إشارة إلى الإيمان بالرسالة مضافاً إلى التوحيد .

قوله تعالى : ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إلى آخر الآية ، القائل فرعون ، والمراد بقوله : ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ آمَنْتُمْ مِنْ دُونِ إِذْنِ مَنِي كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَنفُذَ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْفُذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ وليس مفاده أن الإذن كان ممكناً أو متوقفاً منه كما قيل .

وقوله : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ بهتان آخر يهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه وخاصة ملاهم عنه .

وقوله : ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لهم في سياق الإبهام للدلالة على أنه في غنى عن ذكره وأما هم فسوف يعلمونه .

وقوله : ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَكُمْ أُجْمَعِينَ﴾ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس والتصليب جعل المجرم على الصليب ، وقد تقدم نظير الآية في سورتي الأعراف وطه .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ الضير هو الضرر ، وقوله : ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ تعليل لقولهم : لَا ضَيْرَ أَيَّ إِنَّا لَا نَسْتَضِرُّ بِهَذَا الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَدْنَا بِهِ لِأَنَّا نَصْبِرُ وَنَرْجِعُ بِذَلِكَ إِلَى رَبِّنَا وَمَا أَكْرَمَهُ مِنْ رَجُوعٍ ! .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت والقتل بل يشاققون إلى لقاء ربهم يقولون : لَا نَخَافُ مِنْ عَذَابِكَ شَيْئاً لِأَنَّا نَرْجِعُ بِهِ إِلَى رَبِّنَا وَلَا نَخَافُ الرُّجُوعَ لِأَنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا بِسَبَبِ كَوْنِنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُوسَى وَهَارُونَ رَسُولِي رَبِّنَا .

وفتح الباب في كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمناً لإيمانه بالمغفرة والرحمة لم تطفر مغفرته ورحمته أول الفاتحين لهذا الباب والواردين هذا المورد .

قوله تعالى : ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ شروع في سرد الشطر الثاني من القصة وهو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوة موسى وهارون ^{عليهما السلام} ، وقد كان الشطر الأول رسالة موسى وهارون إليهم ودعوتهم إلى التوحيد ، والإسراء والسري السير بالليل ، والمراد بعبادي بنو إسرائيل وفي هذا التعبير نوع إكرام لهم .

وقوله : ﴿إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ تعليل للأمر أي سر بهم ليلاً ليتبعكم آل فرعون وفيه دلالة على أن الله في اتباعهم أمراً وأن فيه فرج بني إسرائيل وقد صرح بذلك في قوله : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مَغْرُقُونَ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ قصة غرق آل فرعون وإنجاء بني إسرائيل في أربع عشرة آية وقد أوجز في الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى وبني إسرائيل ليلاً من مصر لدلالة قوله : ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ عليه وعلى هذا القياس .

فقال تعالى : ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ أَيَّ فِئَةٍ مِّنْ عِبَادِي فَلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ﴾ التي تحت سلطانه رجالاً ﴿حَاشِرِينَ﴾ يحشرون الناس ويجمعون الجموع قائلين للناس ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ بني إسرائيل ﴿لَشُرذمة قَلِيلُونَ﴾ والشُرذمة من كل شيء بقيته القليلة فتوصيفها بالقلة تأكيد ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به ﴿وإننا لجميع﴾ مجموع متفق فيما نعزم عليه ﴿حاذرون﴾ نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا وإن كان ضعيفاً قليلاً ، والمطلوب بقولهم هذا وهو لا محالة بلاغ من فرعون حث الناس عليهم .

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قصورهم المشيدة وبيوتهم الرفيعة ، ولما كان خروجهم عن مكر إلهي بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار التي فيهم نسب إلى نفسه أنه أخرجهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

حيث أهلكنا فرعون وجنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين .

﴿فَاتَّبِعُوهُمْ﴾ أي لحقوا ببني إسرائيل ﴿مشرقين﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمع جمع فرعون وجمع موسى الآخر ، ﴿قال أصحاب موسى﴾ من بني إسرائيل خائفين فزعين ﴿إنا لمدركون﴾ سيدركنا جنود فرعون .

﴿قال موسى كلاً﴾ لن يدركونا ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ والمراد بهذه المعية معية الحفظ والنصرة وهي التي وعدّها له ربه أول ما بعثه وأخاه إلى فرعون : ﴿إنني معكما﴾ وأما معية الإيجاد والتدبير فالله سبحانه مع موسى وفرعون على نسبة سواء ، وقوله : ﴿سيهدين﴾ أي سيدلني على طريق لا يدركني فرعون معها .

﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ والانفلاق انشقاق الشيء وبينونة بعضه من بعض ﴿فكان كل فرق﴾ أي قطعة منفصلة من الماء ﴿كالطود﴾ وهو القطعة من الجبل ﴿العظيم﴾ فدخلها موسى ومن معه من بني إسرائيل .

﴿وأزلفنا ثم﴾ أي وقربنا هناك ﴿الآخرين﴾ وهم فرعون وجنوده ﴿وأنجيناه﴾ موسى ومن معه أجمعين ﴿بحفظ البحر على حاله وهيئته حتى قطعوه وخرجوا منه ، ثم أغرقنا الآخرين﴾ بإطباق البحر عليهم وهم في فلقه .

قوله تعالى : ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ ظاهر السياق - ويؤيده سياق القصص الآتية - أن المشار إليه مجموع ما ذكر في قصة موسى من بعثه ودعوته فرعون وقومه وإنجاء بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده ، ففي ذلك كله آية تدل على توحيده تعالى بالربوبية وصدق الرسالة لمن تدبر فيها .

وقوله : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآية وعلى هذا فقوله بعد كل من القصص الموردة في السورة : ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ بمنزلة أخذ النتيجة وتطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحدة من القصص : هذه قصتهم المتضمنة لأيته تعالى وما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن

عليهم فهذا دأب كل من الأمم التي بعثنا إليهم رسولا فدعاهم إلى توحيد الربوبية .

وقيل : إن الضمير في ﴿أكثرهم﴾ راجع إلى قوم النبي ﷺ والمعنى : أن في هذه القصة آية وما كان أكثر قومك مؤمنين بها ولا يخلو من بعد .

وقوله : ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيره في أول السورة .

* * *

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) .

(بيان)

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصة موسى إلى نبي إبراهيم عليه السلام وهو خبره الخطير إذ انتهض لتوحيد الله سبحانه بفطرته الزاكية الطاهرة من بين قومه المطبقين على عبادة الأصنام فتبرأ منهم ودافع عن الحق ثم كان من أمره ما قد كان ففي ذلك آية ولم يؤمن به أكثر قومه كما سيشير إلى ذلك في آخر الآيات .

قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ غير السياق عما كان عليه أول القصة ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ الخ ، لمكان قوله : ﴿عليهم﴾ فإن المطلوب تلاوته على مشركي العرب وعمدتهم قريش وإبراهيم هذا أبوهم وقد قام لنشر التوحيد وإقامة الدين الحق ولم يكن بينهم يومئذ من يقول : لا إله إلا الله ، فنصر الله ونصره حتى ثبتت كلمة التوحيد في الأرض المقدسة وفي الحجاز .

فلم يكن ذلك كله إلا عن دعوة من الفطرة وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرءوا من دين الوثنية كما تبرأ منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ مخاصمته ومناظرته عليه السلام مع أبيه غير مخاصمته مع قومه واحتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام وغيرها لكن البناء ههنا على الإيجاز والاختصار ولذا جمع بين المحاجتين وسبكهما محاجة واحدة أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما .

وقوله : ﴿ما تعبدون﴾ سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئاً من حقيقتها وسائر شؤونها وهذا من طرق المناظرة سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقة مدّعاؤه وسائر شؤونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه .

على أن هذه المحااجة كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه ودخل في مجتمع أبيه وقومه ولم يكن شهد شيئاً من ذلك قبل اليوم فحاجّهم عن فطرة ساذجة ظاهرة كما تقدم تفصيل القول فيه في تفسير سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين﴾ ظلّ بمعنى دام ، والعاكوف على الشيء ملازمته والإقامة عنده ، واللام في ﴿لها﴾ للتعليل أي ندوم عاكفين عليها لأجلها وهو تفريع على عبادة الأصنام .

والصنم جثة مأخوذة من فلز أو خشب أو غير ذلك على هيئة خاصة يمثل بها ما في المعبود من الصفات ، وهؤلاء كانوا يعبدون الملائكة والجن وهم يرون أنها روحانيات خارجة عن عالم الأجسام منزّهة عن خواص المادة وآثارها ، ولما كان من الصعب عليهم التوجه العبادي إلى هذه الروحانيات باستحضارها للإدراك توسلوا إلى ذلك باتخاذ صور وتمائيل جسمانية تمثل بأشكالها وهيئاتها ما هناك من المعنويات .

وكذلك الحال في عبادة عبّاد الكواكب لها فإن المعبود الأصلي هناك روحانيات الكواكب ثم اتخذ أجرام الكواكب أصناماً لروحانياتها ثم لما اختلفت أحوال الكواكب بالحضور والغيبة والطلوع والغروب اتخذوا لها أصناماً تمثل ما للكواكب من القوى الفعّالة فيما دونها من عالم العناصر كالقوة الفاعلة للطرب والسرور والنشاط في الزهرة فيصورونها في صورة فتاة ، ولسفك الدماء في المريخ ، وللعلم والمعرفة في عطارد وعلى هذا القياس الأمر في أصنام القديسين من الإنسان .

فالأصنام إنما اتخذت ليكون الواحد منها مرآة لرب الصنم من ملك أو جن أو إنسان غير أنهم يعبدون الصنم نفسه بتوجيه العبادة إليه والتقرب منه ولو تعدّوا عن الصنم إلى ربه عبوده دون الله سبحانه .

وهذا هو الذي يكذب قول القائل منهم : إن الصنم إنما هي قبلة لم تتخذ إلا جهة للتوجه العبادي لا مقصودة بالذات كالكعبة عند المسلمين وذلك أن القبلة هي

ما يستقبل في العبادة ولا يستقبل بالعبادة وهم يستقبلون الصنم في العبادة وبالعبادة ،
وبعبارة أخرى التوجه إلى القبلة والعبادة لرب القبلة وهو الله عز اسمه وأما الصنم
فالتوجه إليه والعبادة له لا لربه ولو فرض أن العبادة لربه وهو شيء من الروحانيات
كانت له لا لله فالله سبحانه غير معبود في ذلك على أي حال .

وبالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم : ﴿ما تعبدون﴾ بقولهم : ﴿نعبد
أصناماً﴾ إبانة أن هذه الأجسام المعبودة ممثلات مقصودة لغيرها لا لنفسها ، وقد
أخذ إبراهيم قولهم : ﴿نعبد﴾ وخاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبودية لا
يجامع كونها أصناماً ممثلة للغير فإذا كانت مقصودة بالعبادة فمن الواجب أن يشتمل
على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضرر بالتوجه العبادي والدعاء
والمسألة والأصنام بمعزل من أن تعلم بمسألة أو تجيب مضطراً بإيصال نفع أو صرف
ضرر ولذلك سألهم إبراهيم بقوله : ﴿هل يسمعونكم﴾ الخ .

قوله تعالى : ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون﴾
اعترض عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين :

إحدهما : أن العبادة تمثيل لذلة العابد وحاجته إلى المعبود فلا يخلو من
دعاء من العابد للمعبود ، والدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك وسمعه ما يدعوه
به ، والأصنام أجسام جمادية لا سمع لها فلا معنى لعبادتها .

والثانية : أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعاً في خيره ونفعه وإما اتقاء من
شره وضره والأصنام جمادات لا قدرة لها على إيصال نفع أو دفع ضرر .

فكل من الآيتين يتضمن جهة من جهتي الاعتراض ، وقد أوردهما في صورة
الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف .

قوله تعالى : ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ كان مقتضى المقام أن
يجيبوا عن سؤاله عليهم بالنفي لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال
بالوثنية أضربوا عنه إلى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم في عبادتها
إلا تقليد الآباء محضاً .

وقوله : ﴿وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ أي ففعلنا كما كانوا يفعلون وعبدناهم
كما كانوا يعبدون ، ولم يعدل عن قوله : ﴿كذلك يفعلون﴾ إلى مثل قولنا :

يعبدونها ليكون أصرح في التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئاً أزيد من أشكالها وصورها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما انتهت محاجته مع أبيه وقومه إلى أن لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم محضاً تبرأ ^{من الله} من آلهتهم ومن أنفسهم وآبائهم بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ الخ .

فقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ تفريع على ما ظهر مما تقدم من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أي فإذا كانت باطلة لا حجة لكم عليها إلا تقليد آبائكم فهذه الأصنام التي رأيتوها أي هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنها عدو لي لأن عبادتها ضارة لديني مهلكة لنفسي فليست إلا عدواً لي .

وذكر آبائهم الأقدمين للدلالة على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا وأن لا وقع عنده ^{من الله} لتقدم العهد ، ولا أثر للسبق الزماني في إبطال حق أو إحقاق باطل ، وإرجاع ضمير أولي العقل إلى الأصنام لمكان نسبة العبادة إليها وهي تستلزم الشعور والعقل ، وهو كثير الوقوع في القرآن .

وقوله : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ استثناء منقطع من قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي ﴾ أي لكن رب العالمين ليس كذلك .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجة على أنه تعالى ليس عدواً له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ الخ ، وأما قول القائل : إن قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ الخ استيناف من الكلام لا يعاب به .

فقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره إليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل ، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والإيجاد به لوضوح أن الخلق والتدبير لا ينفكان في هذه الموجودات الجسمانية التدريجية الوجود التي تستكمل الوجود على التدرج فليس

من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء وإذ كان الخلق والإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضاً .

ولهذا عطف الهداية على الخلق بفاء التفریع فدل على أنه تعالى هو الهادي لأنه هو الخالق .

وظاهر قوله : ﴿فهو يهديني﴾ - وهو مطلق - أن المراد به مطلق الهداية إلى المنافع دنيوية كانت أو أخروية والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الاستمرار فالمعنى أنه الذي خلقتني ولا يزال يهديني إلى ما فيه سعادة حياتي منذ خلقتني ولن يزال كذلك . فيكون الآية في معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون : ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾^(١) ، أي هداه إلى منفعته وهي الهداية العامة .

وهذا هو الذي أشير إليه في أول السورة بقوله : ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية﴾ وقد مر تقرير الحجة فيه .

وعلى هذا فما سيأتي في قوله : ﴿والذي هو يطعمني﴾ الخ من الصفات المعدودة من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعاً من مصاديق الهداية العامة بعضها هداية إلى منافع دنيوية وبعضها هداية إلى ما يرجع إلى الآخرة .

ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصة الدينية فالصفات المعدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة ، وتقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود .

وقوله : ﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين﴾ هو كالكناية عن جملة النعم المادية التي يرزقه الله إياها لتتميم النواقص ورفع الحوائج الدنيوية ، وقد خص بالذكر منها ما هو أهمها وهو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض .

ومن هنا يظهر أن قوله : ﴿وإذا مرضت﴾ توطئة وتمهيد لذكر الشفاء ، فالكلام في معنى يطعمني ويسقين ويشفين ، ولذا نسب المرض إلى نفسه لئلا يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم ، وأما قول القائل : إنه إنما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك .

وإنما أعاد الموصول فقال: ﴿الذي هو يطعمني﴾ الخ ، ولم يعطف الصفات على ما في قوله : ﴿الذي خلقتني فهو يهدين﴾ للدلالة على أن كلا من الصفات المذكورة في هذه الجمل المترتبة كان في إثبات كونه تعالى هو الرب المدبر لأمره والقائم على نفسه المجيب لدعوته .

وقوله : ﴿والذي يميّتي ثم يحييني﴾ يريد الموت المقضي لكل نفس المدلول عليه بقوله : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾^(١) ، وليس بانعدام وفناء بل انتقال من دار إلى دار من جملة التدبير العام الجاري ، والمراد بالإحياء إفاضة الحياة بعد الموت .

وقوله : ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، ولم يقطع بالمغفرة كما قطع في الأمور المذكورة قبلها لأن المغفرة ليست بالاستحقاق بل هي فضل من الله فليس يستحق أحد على الله سبحانه شيئاً لكنه سبحانه قضى على نفسه الهداية والرزق والإماتة والإحياء لكل ذي نفس ولم يقض المغفرة لكل ذي خطيئة فقال : ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾^(٢) ، وقال : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾^(٣) ، وقال : ﴿إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً﴾^(٤) ، وقال في المغفرة : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾^(٥) .

ونسبة الخطيئة إلى نفسه وهو ﷺ نبي معصوم من المعصية دليل على أن المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي فإن للخطيئة والذنب مراتب تتقدر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿واستغفر لذنبك﴾ .

فالخطيئة من مثل إبراهيم عليه السلام اشتغاله عن ذكر الله محضاً بما تقتضيه ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه عليه السلام كيف ؟ وقد نص تعالى على كونه عليه السلام مخلصاً لله لا يشاركه تعالى فيه شيء إذ قال : ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾^(٦) ، وقد قدمنا كلاماً له تعلق بهذا المقام في آخر الجزء السادس وفي قصص إبراهيم في الجزء السابع من الكتاب .

(١) الأنبياء : ٣٥ .

(٢) الذاريات : ٢٣ .

(٣) الأنبياء : ٣٥ .

(٤) يونس : ٤ .

(٥) النساء : ٤٨ .

(٦) ص : ٤٦ .

قوله تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حِكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما ذكر ﷺ نعم ربه المستمرة المتوالية المتراكمة عليه منذ خلق إلى ما لا نهاية له من أمد البقاء وصور بذلك شمول اللطف والحنان الإلهي أخذته جاذبة الرحمة الملتزمة بالفقر العبودي فدعته إلى إظهار الحاجة وبث المسألة فالتفت من الغيبة إلى الخطاب فسأل ما سأل .

فقوله : ﴿رَبِّ﴾ أضاف الرب إلى نفسه بعد ما كان يصفه بما أنه رب العالمين إثارة للرحمة الإلهية وتهيجاً للعناية الربانية لاستجابة دعائه ومسألته .

وقوله : ﴿هَبْ لِي حِكْماً﴾ يريد بالحكم ما تقدم في قول موسى ﷺ : ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾^(١) وهو - كما تقدم - إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقادية والعملية الكلية وتطبيق العمل عليها كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^(٢) ، وهو وحي المعارف الاعتقادية والعملية التي يجمعها التوحيد والتقوى ، وقوله تعالى : ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾^(٣) ، وهو وحي التسديد والهداية إلى الصلاح في مقام العمل ، وتنكير الحكم لتفخيم أمره .

وقوله : ﴿والْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الصلاح - على ما ذكره الراغب - يقابل الفساد الذي هو تغير الشيء عن مقتضى طبعه الأصلي فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلي فيترتب عليه من الخير والنفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنة .

وإذ كان «الصالحين» غير مقيد بالعمل ونحوه فالمراد به الصالحون ذاتاً لا عملاً فحسب وإن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل ، قال تعالى : ﴿البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾^(٤) .

فصلاح الذات كونها تامة الاستعداد لقبول الرحمة الإلهية وإفاضة كل خير وسعادة

(١) الشعراء : ٢١ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

(٤) الأعراف : ٥٨ .

من شأنها أن تتلبس به من غير أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيء وبذلك يتبين أن الصلاح الذاتي من لوازم موهبة الحكم بالمعنى الذي تقدم وإن كان الحكم أخص مورداً من الصلاح وهو ظاهر .

فمسأله الإلحاق بالصالحين من لوازم مسألة موهبة الحكم وفروعها المترتبة عليها فيعود معنى قوله : ﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين﴾ إلى مثل قولنا : رب هب لي حكماً وتّم أثره في وهو الصلاح الذاتي .

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾^(١) في الجزء الأول من الكتاب كلام له تعلق بهذا المقام .

قوله تعالى : ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ إضافة اللسان إلى الصدق لامية تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلم إلا به ، وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصاً به كلسانه لا يتكلم إلا بما في ضميره مما يتكلم هو به فيؤول المعنى إلى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته ويدعو الناس إلى ملته وهي دين التوحيد .

فتكون الآية في معنى قوله في سورة الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السلام : ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾^(٢) ، وقد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدة من الأنبياء غيره كنوح وموسى وهارون وإلياس ، وكذا قال تعالى في سورة مريم بعد ذكر زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وهارون : ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾^(٣) فالمراد على أي حال إبقاء دعوتهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم .

وقيل : المراد به بعث النبي ﷺ وقد روي عنه أنه قال : أنا دعوة أبي إبراهيم ، ويؤيده تسمية دينه في مواضع من القرآن ملّة إبراهيم ، ويرجع معنى الآية حينئذ إلى معنى قوله حكاية عن إبراهيم وإسماعيل حين بناء الكعبة : ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك﴾ إلى أن قال ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾^(٤) .

(٣) مريم : ٥٠ .

(١) البقرة : ١٣٠ .

(٤) البقرة : ١٢٩ .

(٢) الصافات : ١٠٨ .

وقيل : المراد به أن يجعل الله له ذكراً جميلاً وثناء حسناً بعده إلى يوم القيامة وقد استجاب الله دعاءه فأهل الأديان يشنون عليه ويذكرونه بالجميل .

وفي صدق لسان الصدق على الذكر الجميل خفاء ، وكذا كون هذا الدعاء والمحكي في سورة البقرة دعاء واحداً لا يخلو من خفاء .

قوله تعالى : ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ تقدم معنى وراثته الجنة في تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربي ﴾ (٢) ، وليس يبيد أن يستفاد من قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ (٣) ، أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء وهو حي بعد ، وعلى هذا فمعنى قوله : ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال .

قوله تعالى : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ الخزي عدم النصر ممن يؤمل منه النصر ، والضمير في ﴿ يبعثون ﴾ للناس ولا يضره عدم سبق الذكر لكونه معلوماً من خارج .

ويعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجة إلى النصر الإلهي يومئذ فهذه البنية الضعيفة لا تقوم دون الأهوال التي تواجهها يوم القيامة إلا بنصر وتأيد منه تعالى .

وقوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ الظرف بدل من قوله : ﴿ يوم يبعثون ﴾ وبه يندفع قول من قال : إن قول إبراهيم قد انقطع في ﴿ يبعثون ﴾ والآية إلى تمام خمس عشرة آية من كلام الله تعالى .

والآية تنفي نفع المال والبنين يوم القيامة وذلك أن رابطة المال والبنين التي هي المناط في التناصر والتعاضد في الدنيا هي رابطة وهمية اجتماعية لا تؤثر أثراً في

(١) المؤمنون : ١٠ .

(٢) مريم : ٤٧ .

(٣) التوبة : ١١٤ .

المخارج من ظرف الاجتماع المدني ويوم القيامة يوم انكشاف الحقائق وتقطع الأسباب فلا ينفع فيه مال بمالته ولا بنون بنسبة بنوتهم وقرابتهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (٢) .

فالمراد بنفي نفع المال والبنين يوم القيامة سببتهما الوضعية الاعتبارية في المجتمع الإنساني في الدنيا فإن المال نعم السبب والوسيلة في المجتمع للظفر بالمقاصد الحيوية ، وكذا البنون نعمت الوسيلة للقوة والعزة والغلبة والشوكة ، فالمال والبنون عمدة ما يركن إليهما ويتعلق بهما الإنسان في الحياة الدنيا فنفي نفعهما يوم القيامة كالكناية عن نفي نفع كل سبب وضعي اعتباري في المجتمع الإنساني يتوسل به إلى جلب المنافع المادية كالعلم والصناعة والجمال وغيرها .

وبعبارة أخرى نفي نفعهما في معنى الإخبار عن بطلان الاجتماع المدني بما يعمل فيه من الأسباب الوضعية الاعتبارية كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ ما لكم لا تنصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

وقوله : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ قال الراغب : السلم والسلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة . انتهى . والسياق يعطي أنه ^{في الآيات} في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره وقد سأل ربه أولاً أن ينصره ولا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال والبنين ، ومقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ بيان ما هو النافع يومئذ وقد ذكر فيه الإتيان بالقلب السليم .

فالاستثناء منقطع ، والمعنى : لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به ، والمحصل أن مدار السعادة يومئذ على سلامة القلب سواء كان صاحبه ذا مال وبنين في الدنيا أو لم يكن .

وقيل : الاستثناء متصل والمستثنى منه مفعول ينفع المحذوف والتقدير يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم .

(١) الأنعام : ٩٤ .

(٢) المؤمنون : ١٠١ .

وقيل : الاستثناء متصل والكلام بتقدير مضاف ، والتقدير لا ينفع مال ولا بنون إلا مال وبنوه من أتى «الخ» .

وقيل : المال والبنون في معنى الغنى والاستثناء منه بحذف مضاف من نوعه والتقدير يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ، وسلامة القلب من الغنى فلا استثناء متصل ادعاء لا حقيقة .

وقيل : الاستثناء منقطع وهناك مضاف محذوف ، والتقدير لا ينفع مال ولا بنون إلا حال من أتى «الخ» .

والأقوال الثلاثة الأول توجب اختصاص تميز اليوم بمن له مال وبنون فقط فإن للكلام عليها في معنى قولنا : يوم لا ينفع المال والبنون أصحابهما إلا ذا القلب السليم منهم وأما من لا مال له ولا ولد فمسكوت عنه والسياق لا يساعده ، وأما القول الرابع فمبني على تقدير لا حاجة إليه .

والآية قريبة المعنى من قوله تعالى : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾^(١) ، غير أنها تسند النفع إلى القلب السليم وهو النفس السالمة من وصمة الظلم وهو الشرك والمعصية كما قال تعالى في وصف اليوم : ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً﴾^(٢) .

قال بعضهم : وفي الآيتين تأييد لكون استغفاره ﷺ لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرأ مع علمه بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة انتهى .

وهذا على تقدير أخذ الاستثناء متصلاً كما ذهب إليه هذا القائل مبني على كون إبراهيم ﷺ ابن آزر لصلبه وقد تقدم في قصته ﷺ من سورة الأنعام فساد القول به وأن الآيات ناصة على خلافه .

وأما إذا أخذ الاستثناء منقطعاً فقوله : ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ بضميمة قوله تعالى : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾^(٣) . دليل على كون الاستغفار قبل موته كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وبَرُّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الازلاف التقريب والتبريز الاظهار ، وفي المقابلة بين المتقين والغاوين واختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشارة إلى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إباته أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُوعَدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى أن قال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي هل يدفعون الشقاء والعذاب عنكم أو عن أنفسهم ، والمحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا في عبادتهم غير الله .

قوله تعالى : ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ يقال : كبه فانكب أي ألقيه على وجهه وكببه أي ألقيه على وجهه مرة بعد أخرى فهو يفيد تكرار الكب كذب ودبذب وذب وذذبذب وزل وزلزل ودك ودكدك .

وضمير الجمع في قوله : ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمُ﴾ للأصنام كما يدل عليه قوله : ﴿انكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ (٢) وهؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التي تذكر الآية أنها تكبكب في جهنم يوم القيامة ، والطائفة الثانية الغاؤون . المقضي عليهم ذلك كما في آية الحجر المنقولة آنفاً ، والطائفة الثالثة جنود إبليس وهم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغواية حتى يدخلوا النار ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ إلى أن قال ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ الظاهر أن القائلين هم الغاؤون ، والاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم . والشياطين على ما ذكره الله سبحانه في مواضع من كلامه .

وقوله : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ اعتراف منهم بالضلال ، والخطاب

(١) الحجر : ٤٥ .

(٢) الأنبياء : ٩٨ .

(٣) الزخرف : ٣٩ .

في قوله : ﴿إِذْ نَسُوكُمْ بَرْبَ الْعَالَمِينَ﴾ للآلهة من الأصنام وهم معهم في النار ، أو لهم وللشياطين أو لهما وللمتبعين والرؤساء من الغاوين وخير الوجوه أولها .

وقوله : ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين غيره من إمام ضلال اقتدى به في الدنيا وداع دعاه إلى الشرك فاتبعه وآباء مشركين قلدهم فيه وخليل تشبه به ، والمجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الإجماع وقضي عليهم بدخول النار قال تعالى : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الحميم على ما ذكره الراغب القريب المشفق .

وهذا الكلام تحسر منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين وإغاثة الأصدقاء وفي التعبير بقوله : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ إشارة إلى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين ، ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال : فما لنا من شافع إذ لا نكتة تقتضي الجمع ، وقد روي أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة والأنبياء والمؤمنين يشفعون .

قوله تعالى : ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تمن منهم أن يرجعوا إلى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعادة .

قوله تعالى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ إلى آخر الآيتين أي في قصة إبراهيم عليه السلام ولزومه عن فطرته الساذجة دين التوحيد وتوجيه وجهه نحو رب العالمين وتبريه من الأصنام واحتجاجه على الوثنيين وعبداء الأصنام آية لمن تدبر فيها على أن في سائر قصصه من محنة وابتلاء آتة التي لم تذكر ههنا كإلقائه في النار ونزول الضيف من الملائكة عليه وقصة إسكانه إسماعيل وأمه بوادي مكة وبناء الكعبة وذبح إسماعيل آيات لأولي الألباب .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين والباقي ظاهر مما تقدم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ قال : هو أمير المؤمنين عليه السلام.

أقول : يحتمل التفسير والجري .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خيراً من المال يأكله ويورثه . الحديث .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ﴿واغفر لأبي﴾ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : ليجيئ رجل يوم القيامة من المؤمنين آخذاً بيد أب له مشرك حتى يقطعه النار ويرجو أن يدخله الجنة فيناديه منادٍ إنه لا يدخل الجنة مشرك ، فيقول : ربي أبي ووعدت أن لا تخزيني .

قال : فما يزال متشبهاً به حتى يحوله الله في صورة سيئة وريح منتنة في صورة ضبعان فإذا رآه كذلك تبرأ منه وقال : لست بأبي . قال : فكنا نرى أنه يعني إبراهيم وما سُمي به يومئذ .

وفيه أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة يقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك .

فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجلحك ؟ فإذا هو بذئخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

أقول : الخبران من أخبار بنو إبراهيم لأزر لصلبه وقد مرّ في قصص إبراهيم من سورة الأنعام أنها مخالفة للكتاب وكلامه تعالى نص في خلافه .

وفي الكافي بإسناده عن سُفيان بن عيينة قال : سألته عن قول الله عز وجل : ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ قال : السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه .

قال : وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم إلى الآخرة .

وفي المجمع وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : هو القلب الذي سلم من حب الدنيا . ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ جنود إبليس ذريته من الشياطين .

قال : وقولهم : ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ إذ دعونا إلى سبيلهم ذلك قول الله عز وجل فيهم إذ جمعهم إلى النار : ﴿وقالت أولاهم لا خراهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ وقوله : ﴿وكلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعاً﴾ برىء بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضاً يريد بعضهم أن يحج بعضاً رجاء الفلج فيفلتوا جميعاً من عظيم ما نزل بهم وليس بأوان بلوى ولا اختبار ولا قبول معذرة ولا حين نجاة .

وفي الكافي أيضاً بسندين عن أبي بصير عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قول الله عز وجل : ﴿فككبوا فيها هم والغاؤون﴾ هم قوم وصفوا عدلاً بألستهم ثم خالفوه إلى غيره .

أقول : وروى هذا المعنى القمي في تفسيره والبرقي في المحاسن عن أبي عبد الله عليه السلام ، والظاهر أن الرواية كانت واردة في ذيل قوله تعالى : ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ لما بعده من قوله تعالى : ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ وقد وقع الخطأ في إيرادها في ذيل قوله : ﴿وككبوا فيها﴾ الخ ، وهو ظاهر للمتأمل .

وفي المجمع وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي ؟ وصديقه في الجحيم . فيقول الله : أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار : ﴿فمالنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ .

وروى بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال : والله لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول الناس : ﴿فمالنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ إلى قوله ﴿فنكون من المؤمنين﴾ وفي رواية أخرى حتى يقول عدونا .

وفي تفسير القمي ﴿فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾ قال : من المهتدين قال : لأن الإيمان قد لزمهم بالإقرار .

أقول : مراده أنهم يؤمنون يومئذ إيمان إيقان لكنهم يرون أن الإيمان يومئذ لا ينفعهم بل الإيمان النافع هو الإيمان في الدنيا فيتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكون ما عندهم من الإيمان من إيمان المهتدين وهم المؤمنون حقاً المهتدون بإيمانهم يوم القيامة وهذا معنى لطيف ، وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ (١) ، فلم يقولوا فارجعنا نؤمن ونعمل صالحاً بل قالوا فارجعنا نعمل صالحاً فافهم ذلك .

* * *

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا انُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأُزْدَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَانْجِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

(بيان)

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام وهما من أولي العزم إلى قصة نوح عليه السلام وهو أول أولي العزم سادة الأنبياء ، وإجمال ما جرى بينه وبين قومه فلم يؤمن به أكثرهم فأغرقهم الله وأنجى نوحاً ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نوح المرسلين ﴾ قال في المفردات : القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء ، ولذلك قال : ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ الآية ، قال الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء ، وفي عامة القرآن أريدوا به والنساء جميعاً . انتهى .

ولفظ القوم قيل : مذكر وتأنيث الفعل المسند إليه بتأويل الجماعة وقيل : مؤنث وقال في المصباح : يذكر ويؤنث .

وعد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحداً منهم وهو نوح عليه السلام إنما هو من جهة أن دعوتهم واحدة وكلمتهم متفقة على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذباً للجميع ولذا عد الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفراً بالجميع قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ (١) .

وقيل : هو من قبيل قولهم : فلان يركب الدواب ويلبس البرود وليس له إلا دابة واحدة وبردة واحدة فيكون الجمع كناية عن الجنس ، والأول أوجه ونظير الوجهين جار في قوله الآتي : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾ المراد بالأخ النسيب كقولهم : أخوتميم وأخوكليب والاستفهام للتوبيخ .

قوله تعالى : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أبلغكم إلا ما أمرني ربي وأراد منكم ، ولذا فرع عليه قوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعة الله .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مسوق لنفي الطمع الدنيوي بنفي سؤال الأجر فيثبت بذلك أنه ناصح لهم فيما يدعوهم إليه لا يخونهم ولا يغشهم فعليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم ، ولذا فرّع عليه ثانياً قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ .

والعدول في قوله : ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن اسم الجلالة إلى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ للدلالة على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون أنه تعالى إله عالم الآلهة وكانوا يرون لكل عالم إلهاً آخر يعبدونه من دون الله فيثبتاه تعالى رباً للعالمين جميعاً تصريح بتوحيد العبادة ونفي الآلهة من دون الله مطلقاً .

قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ قد تقدم وجه تكرار الآية فهو يفيد أن كلا من الأمانة وعدم سؤال الأجر سبب مستقل في إيجاب طاعته عليهم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبِعْكَ الْأَرذَلُونَ﴾ الأرذلون جمع أرذل على الصحة وهو اسم تفضيل من الرذالة والرذالة الخسة والدناءة ، ومرادهم بكون متبعيه أراذل أنهم ذوو أعمال رذيلة ومشاغل خسية ولذا أجاب ﷺ عنه بمثل قوله : ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

والظاهر أنهم كانوا يرون الشرف والكرامة في الأموال والجموع من البنين والاتباع كما يستفاد من دعاء نوح ﷺ إذ يقول : ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَاراً﴾^(١) . فمرادهم بالأرذلين من يعدّهم الأشراف والمترفون سفلة يتجنبون معاشرتهم من العبيد والفقراء وأرباب الحرف الدنية .

قوله تعالى : ﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الضمير لنوح ﷺ ، و﴿مَا﴾ استفهامية وقيل : نافية وعليه فالخبر محذوف لدلالة السياق عليه ، والمراد على أي حال نفي علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله : ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ المراد بقوله : ﴿رَبِّي﴾ رب العالمين فإنه الذي كان يختص نوح بالدعوة إليه من بينهم ، وقوله : ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ مقطوع عن العمل أي لو كان لكم شعور ، وقيل : المعنى لو تشعرون بشيء لعلمتم ذلك وهو كما ترى .

والمعنى : بالنظر إلى الحصر الذي في صدر الآية أنه لا علم لي بسابق أعمالهم وليس علي حسابهم حتى أتجسس وأبحث عن أعمالهم وإنما حسابهم على ربي ﴿لو تشعرون﴾ فيجازيهم حسب أعمالهم .

قوله تعالى : ﴿وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين﴾ ، الآية الثانية بمنزلة التعليل للأولى والمجموع متمم للبيان السابق والمعنى : لا شأن لي إلا الإنذار والدعوة فلست أطرد من أقبل عليّ وآمن بي ولست أتفحص عن سابق أعمالهم لأحاسبهم عليها فحسابهم على ربي وهورب العالمين لا عليّ .

قوله تعالى : ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ المراد بالانتهاء ترك الدعوة ، والرجم هو الرمي بالحجارة ، وقيل : المراد به الشتم وهو بعيد ، وهذا مما قالوه في آخر العهد من دعوتهم يهددونه ^{بالتلذذ} بقول جازم كما يشهد به ما في الكلام من وجوه التأكيد .

قوله تعالى : ﴿قال رب إن قومي كذّبون فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الخ ، هذا استفتاح منه ^{بالتلذذ} وقد قدّم له قوله : ﴿رب إن قومي كذّبون﴾ على سبيل التوطئة أي تحقق منهم التكذيب المطلق الذي لا مطمع في تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول : ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾^(١) .

وقوله : ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ كناية عن القضاء بينه وبين قومه كما قال تعالى : ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾^(٢) .

وأصله من الاستعارة بالكناية كأنه وأتباعه والكفار من قومه اختلطوا واجتمعوا من غير تمييز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحة بينه وبين قومه يتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب وليس يهلك إلا القوم الفاسقين والدليل عليه قوله بعد : ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(١) نوح : ٢٧ .

(٢) يونس : ٤٧ .

وقيل : الفتح بمعنى الحكم والقضاء من الفتاحة بمعنى الحكومة .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء منهم ومن كل زوجين اثنين كما ذكره في سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام في معنى الآيتين .

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : فمكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد ولكنه قدم على قوم مكذّبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم وذلك قوله عز وجل : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نوح المرسلين﴾ يعني من كان بينه وبين آدم إلى أن انتهى إلى قوله : ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

وقال فيه أيضاً : فكان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم أنبياء ، وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ قال : الفقراء .

وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه .

* * *

كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ
تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) .

(بيان)

تشير الآيات إلى قصة هود عليه السلام وقومه وهم قوم عاد .

قوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ عاد المرسلين ﴾ قوم عاد من العرب العاربة الأولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيرة العرب لهم مدينة راقية وأراض خصبة وديار معمورة فكذبوا الرسل وكفروا بأنعم الله وطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم وخرَّب ديارهم وعفا آثارهم .

وعاد فيما يُقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسمية القوم باسم أبيهم كما يقال تميم وبكر وتغلب ويراد بنو تميم وبنو بكر وبنو تغلب .

وقد تقدم في نظير الآية من قصة نوح وجه عد القوم مكذِّبين للمرسلين ولم يكذبوا ظاهراً إلا واحداً منهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ إلى قوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقدم الكلام فيها في نظائرها من قصة نوح عليه السلام .

وذكر بعض المفسرين أن تصدير هذه القصص الخمس بذكر أمانة الرسل وعدم سؤالهم أجراً على رسالتهم وأمرهم الناس بالتقوى والطاعة للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو من الثواب ويبعده من العقاب وإن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض

فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار ، وانهم منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية انتهى .

ونظيره الكلام في ختم جميع القصص السبع الموردة في السورة بقوله : ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ ، ففيه دلالة على أن أكثر الأمم والأقوام معرضون عن آيات الله ، وإن الله سبحانه عزيز يجازيهم على تكذيبهم رحيم ينجي المؤمنين برحمته ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على غرض السورة .

قوله تعالى : ﴿اتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ الريع هو المرتفع من الأرض والآية العلامة ، والتعبث الفعل الذي لا غاية له ، وكأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكل مرتفع من الأرض ابنية كالأعلام يتزهون فيها ويفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك بل لهواً واتباعاً للهوى فوبخهم عليه .

وقد ذكر للآية معان أخر لا دليل عليها من جهة اللفظ ولا ملائمة للسياق اضربنا عنها .

قوله تعالى : ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ ، المصانع على ما قيل : الحصون المنيعة والقصور المشيدة والأبنية العالية واحداً مصنع .

وقوله : ﴿لعلكم تخلدون﴾ في مقام التعليل لما قبله أي تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود ولولا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التي من طبعها أن تدوم دهوراً طويلاً لا يفي به أطوال الأعمار الإنسانية ، وقيل في معنى الآية ومفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها .

قوله تعالى : ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ قال في المجمع : البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط ، والجبار العالي على غيره بعظيم سلطانه . وهو في صفة الله سبحانه مدح وفي صفة غيره ذم لأن معناه في العبد أنه يتكلف الجبرية . انتهى .

فالمعنى : وإذا أظهرتم شدة في العمل وبأساً بالغتم في ذلك كما يبالغ الجبابرة في الشدة .

ومحصول الآيات الثلاث أنكم مسرفون في جانبي الشهوة والغضب متعذون حد الاعتدال خارجون عن طور العبودية .

قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ تفريع على إسرافهم في جانبي الشهوة والغضب وخروجهم عن طور العبودية فليتقوا الله وليطيعوه فيما يأمرهم به من ترك الإتراف والاستكبار .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَعْيُونَ﴾ قال الراغب : أصل المد الجر ، قال : وأمددت الجيش بمدود والإنسان بطعام قال : وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه ، قال تعالى : ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ﴾ ﴿وَنَمَدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ انتهى ملخصاً .

وقوله : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ الخ ، في معنى تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية أي اتقوا الله الذي يمدكم بنعمه لأنه يمدكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه في موضعها من غير إتراف واستكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط والعذاب قال تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾^(١) .

وقد ذكر النعم إجمالاً بقوله أولاً : ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم فصلها بقوله ثانياً : ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَنَاتٍ وَعْيُونَ﴾ .

وفي قوله : ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ نكتة أخرى هي أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهو الذي يجب لكم أن تتقوه بالشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام فالكلام متضمن للحجة .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل للأمر بالتقوى أي إني أمركم بالتقوى شكراً لأنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا ولم تشكروا ، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جُوزَ بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ نفى لأثر كلامه وإيأس له من إيمانهم بالكلية .

قيل : الكلام لا يخلو من مبالغة فقد كان مقتضى الترديد أن يقال : أوعظت أم

لم تعظ ففي العدول عنه إلى قوله : ﴿أم لم تكن من الواعظين﴾ النافي لأصل كونه واعظاً ما لا يخفى من المبالغة .

قوله تعالى : ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ الخلق بضم الخاء واللام أو سكونها قال الراغب : الخلق والخلق - أي بفتح الخاء وضمها - في الأصل واحد كالشرب والشرب والضرم والضرم لكن خصّ الخلق - بفتح الخاء - بالهيات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخصّ الخلق - بضم الخاء - بالقوى والسجيا المدركة بالبصيرة ، قال تعالى : ﴿إنك لعلی خلق عظیم﴾ وقرئ ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ انتهى .

والإشارة بهذا إلى ما جاء به هود وقد سموه وعظاً والمعنى : ليس ما تلبّست به من الدعوة إلى التوحيد والموعظة إلا عادة البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير والخرافات ، وهذا كقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .

ويمكن أن تكون الإشارة بهذا إلى ما هم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم : ﴿وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ .

واحتمل بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ولا عذاب . وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : ﴿وما نحن بمعذبين﴾ إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم في كلام هود ^{عليه السلام} يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية﴾ إلى قوله ﴿الرحيم﴾ معناه ظاهر مما تقدم .

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر ^{عليه السلام} في حديث : وقال نوح إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً يقال له هود وانه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وإن الله عز وجل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله تبارك وتعالى ينجي من عذاب الريح .

وأمر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه .

فلما بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هوداً نبياً وقد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به وصدّقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح ، وهو قول الله عز وجل : ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ وقوله : ﴿كذّبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون﴾ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿آية تعثون﴾ أي ما لا تحتاجون إليه لسكناكم وإنما تريدون العبث بذلك واللعب واللهو كأنه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثاً منهم عن ابن عباس في رواية عطاء ، ويؤيده الخبر المأثور عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة فقال : ما هذه ؟ فقالوا له أصحابه : هذا لرجل من الأنصار فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب به والإعراض عنه .

فشكى ذلك إلى أصحابه وقال : والله إني لانكر نظر رسول الله ﷺ ما أدري ما حدث في وما صنعت ؟ قالوا خرج رسول الله ﷺ فرأى قبتك فقال : لمن هذه ؟ فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبة فقال : ما فعلت القبة التي كانت ههنا ؟ قالوا : شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها .

فقال : إن كل ما بيني وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ قال : تقتلون بالغضب من غير استحقاق .

* * *

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
 الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتَتَّكُونَ فِي مَا هُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَجُّتُونَ مِنْ
 الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا
 أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
 يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا
 بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا
 شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
 عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧)
 فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨)
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) .

(بيان)

تشير الآيات إلى إجمال قصة صالح عليه السلام وقومه وهو من أنبياء العرب ويذكر في
 القرآن بعد هود عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ كَذَبْتَ ثمود المرسلين ﴾ إلى قوله ﴿ على رب العالمين ﴾ قد
 اتضح معناها مما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ أَتَتَّكُونَ فيما ههنا آمين ﴾ الظاهر أن الاستفهام للانكار
 و ﴿ ما ﴾ موصولة والمراد بها النعم التي يفصلها بعد قوله : ﴿ في جنات وعيون ﴾
 الخ ، و ﴿ ههنا ﴾ إشارة إلى المكان الحاضر القريب وهو أرض ثمود و ﴿ آمين ﴾
 حال من نائب فاعل ﴿ تتركون ﴾ .

والمعنى : لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه وأنتم
 مطلقو العنان لا تسألون عما تفعلون آمنون من أي مؤاخذه إلهية .

قوله تعالى : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ بيان تفصيلي لقوله : ﴿فِيهَا هُنَّ﴾ ، وقد خص النخل بالذكر مع دخوله في الجنات لاهتمامهم به ، والطلع في النخل كالنور في سائر الأشجار والهضيم - على ما قيل - المتداخل المنضم بعضه إلى بعض .

قوله تعالى : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ قال الراغب : الفره - بالفتح فالكسر صفة مشبهة - الأشهر ، وقوله تعالى : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ أي حاذقين وقيل : معناه أشيرين . انتهى ملخصاً ، وعلى ما اختاره تكون الآية من بيان النعمة ، وعلى المعنى الآخر تكون مسوقة لإنكار أشركهم وبطركهم . والآية على أي حال في حيز الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ تفريع على ما تقدم من الإنكار الذي في معنى المنفي .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالأمر ما يقابل النهي بقرينة النهي عن طاعته وإن جَوَز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن وعليه يكون المراد بطاعة أمرهم تقليد العامة واتباعهم لهم في أعمالهم وسلوكهم السبل التي يستحبون لهم سلوكها .

والمراد بالمسرفين على أي حال أشراف القوم وعظماؤهم المتبوعون والخطاب للعامة التابعين لهم وأما السادة الأشراف فقد كانوا مأیوساً من إيمانهم واتباعهم للحق .

ويمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهة أن الأشراف منهم أيضاً كانوا يقلدون آبائهم ويطيعون أمرهم كما قالوا لصالح عليه السلام : ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ^(١) ، فقد كانوا جميعاً يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه .

وقد فسر المسرفين وهم المتعدون عن الحق الخارجون عن حد الاعتدال بتوصيفهم بقوله : ﴿الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ إشارة إلى علة الحكم الحقيقية فالمعنى اتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين لأنهم مفسدون في الأرض غير مصلحين والإفساد لا يؤمن معه العذاب الإلهي وهو عزيز ذو انتقام .

وذلك أن الكون على ما بين أجزائه من التضاد والتزاحم مؤلف تأليفاً خاصاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار كالأمر في كفتي الميزان فإنهما على اضطرابهما واختلافهما الشديد بالارتفاع والانخفاض متوافقتان في تعيين وزن المتاع الموزون وهو الغاية والعالم الإنساني الذي هو جزء من الكون كذلك ثم الفرد من الإنسان بما له من القوى والأدوات المختلفة المتضادة مفطور على تعديل أفعاله وأعماله بحيث تنال كل قوة من قواه حفظها المقدر لها وقد جهز بعقل يميز بين الخير والشر ويعطي كل ذي حق حقه .

فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلاً خاصاً يسير فيها بأعمال خاصة من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط فإن في الميل والانحراف إفساداً للنظام المرسوم ، ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل ، ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الاعتدال فهو وإلا أفنته وعفت آثاره حفظاً لصلاح الكون واستبقاء لقوامه .

والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدرة له وإن تعدى حدود فطرته وأفسد في الأرض أخذه الله سبحانه بالسنين والمثلثات وأنواع النكال والنقمة لعله يرجع إلى الصلاح والساداد قال تعالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^(١) .

وإن أقاموا مع ذلك على الفساد لرسوخه في نفوسهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهر الأرض من قذارة فسادهم قال تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾^(٢) . وقال : ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾^(٣) ، وقال : ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾^(٤) ، وذلك أنهم إذا صلحوا صلحت

(٣) هود : ١١٧ .

(١) الروم : ٤١ .

(٤) الأنبياء : ١٠٥ .

(٢) الأعراف : ٩٦ .

أعمالهم وإذا صلحت أعمالهم وافقت النظام العام وصلحت بها الأرض لحياتهم الأرضية .

فقد تبين بما مر أولاً : أن حقيقة دعوة النبوة هي إصلاح الحياة الإنسانية الأرضية قال تعالى حكاية عن شعيب : ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾^(٥) .

وثانياً : أن قوله : ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون الخ﴾ على سذاجة بيانه معتمد على حجة برهانية .

ولعل في قوله : ﴿ولا يصلحون﴾ بعد قوله : ﴿الذين يفسدون في الأرض﴾ إشارة إلى أنه كان المتوقع منهم بما أنهم بشر ذووا فطرة إنسانية أن يصلحوا في الأرض لكنهم انحرفوا عن الفطرة وبدلوا الإصلاح إفساداً .

قوله تعالى : ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي ممن سحر مرة بعد مرة حتى غلب على عقله ، وقيل : إن السحر أعلى البطن والمسحر من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل وتشرب فيكون قوله بعده : ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ تأكيداً له ، وقيل : المسحر من له سحر أي رئة كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا .

قوله تعالى : ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ ، إلى قوله ﴿عذاب يوم عظيم﴾ الشرب بكسر الشين النصيب من الماء ، والباقي ظاهر وقد تقدمت تفصيل القصة في سورة هود .

قوله تعالى : ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ نسبة العقر إلى الجميع - ولم يعقروها إلا واحد منهم - لرضاهم بفعله ، وفي نهج البلاغة : أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقرو ناقة ثمود رجل واحد فعلمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه : ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ .

وقوله : ﴿فأصبحوا نادمين﴾ لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب وإن قالوا له بعد العقر تعجيزاً واستهزاء : ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾^(١) .

(١) هود : ٨٨ .

(٢) الأعراف : ٧٧ .

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإن صالحاً وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيام كما في سورة هود ، والباقي ظاهر .

* * *

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْطَاعُونَ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) .

(بيان)

تشير الآيات إلى قصة لوط النبي ﷺ وهو بعد صالح ﷺ .

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الاستفهام للانكار والتوبيخ

والذكرا ن جمع ذكر مقابل الانثى وإتيانهم كناية عن اللواط وقد كان شاع فيما بينهم ،
والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس .

وقوله : ﴿من العالمين﴾ يمكن أن يكون متصلاً بضمير الفاعل في ﴿تأتون﴾
والمراد أتأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع ؟ فيكون في معنى قوله في
موضع آخر : ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾^{(١)(٢)} .

ويمكن أن يكون متصلاً بقوله : ﴿الذكرا ن﴾ والمعنى على هذا أتنكحون من بين
العالمين - على كثرتهم واشتمالهم على النساء - الرجال فقط ؟ .

قوله تعالى : ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ الخ ﴿تذرون﴾
بمعنى تتركون ولا ماضي له من مادته .

والم تأمل في خلق الإنسان وانقسام أفراده إلى صنفى الذكر والأنثى وما جهز به
كل من الصنفين من الأعضاء والأدوات وما يختص به من الخلقة لا يرتاب في أن غرض
الصنع والإيجاد من هذا التصوير المختلف وإلقاء غريزة الشهوة في القبيلين وتفريق
أمرهما بالفعل والانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك إلى التناسل المحافظ
لبقاء النوع حتى حين .

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا لرجل مثله والمرأة من
الإنسان بما هي امرأة مخلوقة للرجل منه لا لامرأة مثله وما يختص به الرجل في خلقته
للمرأة وما تختص به المرأة في خلقتها للرجل وهذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها
الصنع والإيجاد بين الرجل والمرأة من الإنسان فجعلهما زوجين .

ثم الأغراض والغايات الاجتماعية أو الدينية سنت بين الناس سنة النكاح
الاجتماعي الاعتباري الذي فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين وقسم من التحديد
للزوجية الطبيعية المذكورة فالفطرة الإنسانية والخلقة الخاصة تهديه إلى ازدواج الرجال
بالنساء دون الرجال وازدواج النساء بالرجال دون النساء ، وأن الازدواج مبني على أصل
التوالد والتناسل دون الاشتراك في مطلق الحياة .

(١) الأعراف : ٨٠ .

(٢) العنكبوت : ٢٨ .

ومن هنا يظهر أن الأقرب أن يكون المراد بقوله : ﴿ما خلق لكم ربكم﴾ العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج واللام للملك الطبيعي ، وإن من في قوله : ﴿من أزواجكم﴾ للتبعض والزوجية هي الزوجية الطبيعية وإن أمكن أن يراد بها الزوجية الاجتماعية الاعتبارية بوجه .

وأما تجويز بعضهم أن يراد بلفظ ﴿ما﴾ للنساء ويكون قوله : ﴿من أزواجكم﴾ بياناً له فبعيد .

وقوله : ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي متجاوزون خارجون عن الحد الذي خطته لكم الفطرة والخلقة فهو في معنى قوله : ﴿إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾^(١) . وقد ظهر من جميع ما مر أن كلامه عليه السلام مبني على حجة برهانية أشير إليها .

قوله تعالى : ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم في موضع آخر : ﴿أخرجوا آل لوط من قريتك﴾ .

قوله تعالى : ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ المراد بعملهم - على ما يعطيه السياق - إتيان الذكران وترك الاناث . والقالى المبغض ، ومقابلة تهديدهم بالنفي بمثل هذا الكلام من غير تعرض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أني لا أخاف الخروج من قريتك ولا أكرث به بل مبغض لعملكم راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة ، ولذا أتبعه بقوله : ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ .

قوله تعالى : ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي من أصل عملهم الذي يأتون به بمرئي ومسمع منه فهو منزجر منه أو من وبال عملهم والعذاب الذي سيتبعه لا محالة .

وإنما لم يذكر إلا نفسه وأهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد ، قال تعالى في ذلك : ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿فنجّيناه وأهله أجمعين﴾ إلى قوله ﴿الآخرين﴾ الغابر كما قيل الباقي بعد ذهاب من كان معه ، والتدمير الإهلاك ، والباقي ظاهر .

(١) العنكبوت : ٢٩ .

(٢) الذاريات : ٣٦ .

قوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ الخ ، وهو السَّجِيل كما قال تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره .

* * *

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ
أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ
الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ
السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) .

(بيان)

إجمال قصة شعيب عليه السلام وهو من أنبياء العرب ، وهي آخر القصص السبع
الموردة في السورة .

قوله تعالى : ﴿كُذِّبَ أَصْحَابُ الثِّكَّةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأيكة الغيضة الملتف شجرها . قيل : إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بُعث إليهم شعيب ^{عليه السلام} ، وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل : أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما وكذا لوط فقد كان نسياً إلى قومه بالمصاهرة ولذا عبّر عنهم بقوله : ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ .

وقد تقدم تفسير باقي الآيات .

قوله تعالى : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الكيل ما يقدر به المتاع من جهة حجمه وإيفاؤه أن لا ينقص الحجم ، والقسطاس الميزان الذي يقدر به من جهة وزنه واستقامته أن يزن بالعدل ، والآيتان تأمران بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البخس النقص في الوزن والتقدير كما أن الإخسار النقص في رأس المال .

وظاهر السياق أن قوله : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي سلعهم وأمتعتهم قيد متم لقوله : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ كما أن قوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ قيد متم لقوله : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تأكيد للنهيين جميعاً أعني قوله : ﴿لَا تَخْسَرُوا﴾ وقوله : ﴿لَا تَبْخَسُوا﴾ وبيان لتبعة التطفيف السيئة المشومة .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثي والعيث الإفساد ، فقوله : ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكد وقد تقدم في قصة شعيب من سورة هود وفي قوله : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ذلك خير وأحسن تأويلاً ^(١) كلام في كيفية إفساد التطفيف المجتمع الإنساني ، فراجع .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبْلَةَ الْأُولَى﴾ قال في المجمع : الجبلّة الخليفة التي طبع عليها الشيء . انتهى . فالمراد بالجبلّة ذوو الجبلّة أي اتقوا الله الذي

خلقكم وآباءكم الأولين الذين فطركم وقرر في جبلتهم تقبيح الفساد والاعتراف بشؤمه .

ولعل هذا الذي أشرنا إليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبل بالذكر ، وفي الآية على أي حال دعوة إلى توحيد العبادة فإنهم لم يكونوا يتقون الخالق الذي هو رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ ، إلى قوله ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ تقدم تفسير الصدر ، و ﴿ إن ﴾ في قوله : ﴿ إن نظنك ﴾ مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ الخ ، الكسف بالكسر فالفتح - على ما قيل - جمع كسفة وهي القطعة ، والأمر مبني على التعجيز والاستهزاء .

قوله تعالى : ﴿ قال ربي أعلم بما تعملون ﴾ جواب شعيب عن قولهم واقتراحهم منه إتيان العذاب ، وهو كناية عن أنه ليس له من الأمر شيء وإنما الأمر إلى الله لأنه أعلم بما يعملون وأن عملهم هل يستوجب عذاباً ؟ وما هو العذاب الذي يستوجه إذا استوجب ؟ فهو كقول هود لقومه : ﴿ إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ ^(١) .

قوله تعالى : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ الخ ، يوم الظلة يوم عذب فيه قوم شعيب بظلة من الغمام ، وقد تقدم تفصيل قصتهم في سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ إلى قوله ﴿ العزيز الرحيم ﴾ تقدم تفسيره .

(بحث روائي)

في جوامع الجامع في قوله تعالى : ﴿ إذ قال لهم شعيب ﴾ وفي الحديث أن شعيباً أخاً مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبل الأولين ﴾ قال : الخلق الأولين ، وقوله : ﴿ فكذبوه ﴾ قال : قوم شعيب ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ قال : يوم حرّ وسمائم .

* * *

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ
عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ
الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ
سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ
مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا نَنْزِلُ بِهِ
الشَّيَاطِينَ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنْ
السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ
الْمُعَذِّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا
تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرْنِكَ
حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَى مَنْ نَنْزِلُ الشَّيَاطِينَ (٢٢١) نَنْزِلُ
عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)
وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) .

(بيان)

تشير الآيات إلى ماهو كالنتيجة المستخرجة من القصص السبع السابقة ويتضمن التوبيخ والتهديد لكفار الأمة .

وفيها دفاع عن نبوة النبي ﷺ بالاحتجاج عليه بذكره في زبر الأولين وعلم علماء بني إسرائيل به ، ودفاع عن كتابه بالاحتجاج على أنه ليس من إلقاءات الشياطين ولا من أقاويل الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الضمير للقرآن ، وفيه رجوع إلى ما في صدر السورة من قوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ وتعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ فقد كذبوا به ﴿ الآية .

والتنزيل والإنزال بمعنى واحد ، غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعة وعلى باب التفعيل التدريج ، وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عالٍ إلى ما هو دونه وفي غير الأجسام بما يناسبه .

وتنزيله تعالى إخراج الشيء من عنده إلى موطن الخلق والتقدير وقد سمي نفسه بالعلي العظيم والكبير المتعال ورفيع الدرجات والقاهر فوق عباده فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتقدير - وإن شئت فقل : إخراجهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة - تنزيلاً منه تعالى له .

وقد استعمل الإنزال والتنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِكُمْ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ

من الأنعام ثمانية أزواج^(١) ، وقوله : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾^(٣) ، وقد أطلق القول في قوله : ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(٤) .

ومن الآيات الدالة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن قوله تعالى : ﴿إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾^(٥) .

وقد أضيف التنزيل إلى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرر مراراً أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله : ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾^(٦) ، وقد سماه في موضع آخر بروح القدس : ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾^(٧) ، وقد تقدم في تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام .

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيه ﷺ لا يغير شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان كما أن توصيفه في آية أخرى بالقدس يشير إلى ذلك .

وقوله : ﴿نزل به الروح﴾ الباء للتعدية أي نزله الروح الأمين ، وأما قول من قال : إن الباء للمصاحبة والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت إليه لأن العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن .

والضمير في ﴿نزل به﴾ للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقة فإن ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى كما أن معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر

(٧) النحل : ١٠٢ .

(٤) الحجر : ٢١ .

(١) الزمر : ٦ .

(٥) الزخرف : ٤ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

(٦) البقرة : ٩٧ .

(٣) البقرة : ١٠٥ .

قوله : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾^(١) ، وقوله : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾^(٢) (٣) ، إلى غير ذلك .

فلا يعجز بقول من قال : إن الذي نزل به الروح الأمين إنما هو معاني القرآن الكريم ثم النبي ﷺ كان يعبر عنها بما يطابقها ويحكيها من الألفاظ بلسان عربي .

وأسخف منه قول من قال : إن القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي ﷺ ألفته مرتبة من نفسه الشريفة تسمى الروح الأمين إلى مرتبة منها تسمى القلب .

والمراد بالقلب المنسوب إليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانية التي لها الإدراك وإليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة دون اللحم الصنوبري المعلق عن يسار الصدر الذي هو أحد الأعضاء الرئيسة كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى ، كقوله : ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾^(٤) ، أي الأرواح ، وقوله : ﴿فإنه أثم قلبه﴾^(٥) ، أي نفسه إذ لا معنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاص .

ولعل الوجه في قوله : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ دون أن يقول : عليك هو الإشارة إلى كيفية تلقيه ﷺ القرآن النازل عليه ، وأن الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية .

فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحى إليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع كما روي أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برحاء الوحي .
فكان ﷺ يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين في ذلك كما نستخدمهما .

(١) القيامة : ١٨ .

(٢) آل عمران : ١٠٨ .

(٣) الجاثية : ٦ .

(٤) الأحزاب : ١٠ .

(٥) البقرة : ٢٨٣ .

ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه ، والنقل القطعي يكذب ذلك فكثيراً ما كان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحي إليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ولا كلاماً يلقي إليه .

والقول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره ﷺ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه وهي الأمور الغيبية المستورة عنا .

هدم لبنيان التصديق العلمي إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواس وهي مفتاح العلوم الضرورية والتصديقات البديهية وغيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم والتصديقات .

على أن هذا الكلام مبني على أصالة الحس وأن لا وجود إلا لمحسوس وهو من أفحش الخطأ وقد تقدم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثل الملك نافع في المقام .

وربما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال أنه لكونه هو المدرك المكلف دون الجسد وإن كان يتلقى الوحي بتوسيط الأدوات البدنية من السمع والبصر ، وقد عرفت ما فيه .

وربما قيل : لما كان للنبي ﷺ جهتان : جهة ملكية يستفيض بها ، وجهة بشرية يفيض بها ، جعل الإنزال على روحه لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الروح الأمين ، وللإشارة إلى ذلك قيل : ﴿على قلبك﴾ ولم يقل : عليك مع كونه أخصر . انتهى .

وهذا أيضاً مبني على مشاركة الحواس والقوى البدنية في تلقي الوحي فيرد عليه ما قدّمناه .

وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالقلب هو العضو الخاص البدني وأن الإدراك كيفما كان من خواصه .

فمنهم من قال : إن جعل القلب متعلق بالإنزال مبني على التوسع لأن الله تعالى يُسمع القرآن جبريل بخلق الصوت فيحفظه وينزل به على الرسول ﷺ

ويقرؤه عليه فيعيه ويحفظه بقلبه فكأنه نزل به على قلبه .

ومنهم من قال : إن تخصيص القلب بالإنزال لأن المعاني الروحانية تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منها إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تنتقل منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة .

ومنهم من قال : إن تخصيصه به للإشارة إلى كمال عقله ﷺ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع وبصر وغيرهما .

ومنهم من قال : إن ذلك للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ وتقديسه حيث كان منزلاً لكلامه تعالى ليعلم به صلاح سائر أجزائه وأعضائه فإن القلب رئيس سائر الأعضاء وملكها وإذا صلح الملك صلحت رعيته .

ومنهم من قال : إن ذلك لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعاً وبصراً مخصوصين يسمع ويبصر بهما تمييزاً لشأنه من غيره كما يشعر به قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (١) .

وهذه الوجوه مضافاً على احتمال أكثرها على المجازفة مبنية على قياس هذه الأمور الغيبية على ما عندنا من الحوادث المادية وإجراء حكمها فيها وقد بلغ من تعسف بعضهم أن قال : إن معنى إنزال الملك القرآن أن الله ألهمه كلامه وهو في السماء وعلمه قراءته ثم الملك أداه في الأرض وهو يهبط في المكان وفي ذلك طريقتان : إحداهما أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية فأخذه من الملك ، وثانيتها أن الملك انخلع إلى صورة البشرية حتى يأخذه النبي ﷺ والأولى أصعب الحالين . انتهى .

وليت شعري ما الذي تصوّره من انخلع الإنسان من صورته إلى صورة الملكية وصيرورته ملكاً ثم عوده إنساناً ومن انخلع الملك إلى صورة الإنسانية وقد فرض لكل منهما هوية مغايرة للآخر لا رابطة بين أحدهما والآخر ذاتاً وأثراً وفي كلامه مواضع أخرى للنظر غير خفية على من تأمل فيه .

وللبحث تنمة لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع في الملك وآخر في الوحي .

وقوله : ﴿ لتكون من المندرين ﴾ أي من الداعين إلى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإندار في عرف القرآن دون النبي أو الرسول بالخصوص ، قال تعالى في مؤمني الجن : ﴿ وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم مندريين ﴾ ^(١) ، وقال في المتفقهين من المؤمنين : ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ ^(٢) .

ولأنما ذكر إنذاره ﷺ غاية لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السورة سياق التخويف والتهديد .

وقوله : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ أي ظاهر في عربيته أو مبين للمقاصد تمام البيان والجار والمجرور متعلق بنزل أي أنزله بلسان عربي مبين .

وجوز بعضهم أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿ مندريين ﴾ والمعنى أنزله على قلبك لتدخل في زمرة الأنبياء من العرب وقد ذكر منهم في القرآن هود وصالح وإسماعيل وشعيب عليهم السلام وأول الوجهين أحسنهما .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ الضمير للقرآن أو نزوله على النبي ﷺ والزبر جمع زبور وهو الكتاب والمعنى وإن خبر القرآن أو خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء .

وقيل : الضمير لما في القرآن من المعارف الكلية أي إن المعارف القرآنية موجودة مذكورة في كتب الأنبياء الماضين .

وفيه أولاً : أن المشركين ما كانوا يؤمنون بالأنبياء وكتبهم حتى يحتج عليهم بما فيها من التوحيد والمعاد وغيرهما ، وهذا بخلاف ذكر خبر القرآن ونزوله على النبي ﷺ في كتب الأولين فإنه حينئذ يكون ملحمة تضطر النفوس إلى قبولها .

(١) الأحقاف : ٢٩ .

(٢) براءة : ١٢٢ .

وثانياً : أنه لا يلائم الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ ضمير ﴿أن يعلمه﴾ لخبر القرآن أو خبر نزوله على النبي ﷺ أي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن أو نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحة نبوتك وكانت اليهود تبشر بذلك وتستفتح على العرب به كما مرفي قوله تعالى : ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾^(١) .

وقد أسلم عدة من علماء اليهود في عهد النبي ﷺ واعترفوا بأنه مبشر به في كتبهم ، والسورة من أوائل السور المكية النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبي ﷺ مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق ولو بوجه كلي .

قوله تعالى : ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ قال في المفردات : العجمة خلاف الإبانة والاعجام الابهام - إلى أن قال - والاعجم خلاف العرب والعجمي منسوب إليهم ، والاعجم من في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي اعتباراً بقلته فهمهم عن العجم ، ومنه قيل للبهيمة عجماء والاعجمي منسوب إليه قوله تعالى : ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ على حذف الياءات انتهى .

ومقتضى ما ذكره - كما ترى - أن أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبة وبه صرح بعض آخر ، وذكر بعضهم أن الوجه أن أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة لكن الكوفيين من النحاة يجوزون ذلك وظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف .

وكيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله : ﴿بلسان عربي مبين﴾ ، فتكونان في مقام التعليل له ويكون المعنى : نزلناه عليك بلسان عربي ظاهر العربية واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلسان أعجمي ما كانوا به مؤمنين وردوه بعدم فهم مقاصده .

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجمياً وبلسانه ، والآيتان والتي بعدهما في معنى قوله تعالى : ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمي﴾^(١).

وقال بعضهم : إن المعنى 'ولو نُزِّلناه قرآناً عربياً كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرّون على التكلم بالعربية فقرأه عليه قراءة صحيحة خارقة للعادات ما كانوا به مؤمنين مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة .

قال : وأما قول بعضهم : إن المعنى ولو نُزِّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين فليس بذلك فإنه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد . انتهى ملخصاً .

وفيه أن اتصال الآيتين بقوله : ﴿بلسان عربي مبين﴾ أقرب إليهما من اتصالهما بسياق تمادي الكفار في كفرهم وجحودهم وقد عرفت توضيحه .

ويمكن أن يورد على الوجه السابق أن الضمير في قوله : ﴿ولو نُزِّلناه على بعض الأعجمين﴾ راجع إلى هذا القرآن الذي هو عربي فلو كان المراد تنزيله بلسان أعجمي لكان المعنى ولو نُزِّلنا العربي غير عربي ولا محصل له .

ويردّ أنه من قبيل قوله تعالى : ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾^(٢) ، ولا معنى لقولنا : إنا جعلنا العربي عربياً فالمراد بالقرآن على أي حال الكتاب المقروء .

قوله تعالى : ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ الإشارة بقوله : ﴿كذلك﴾ إلى الحال التي عليها القرآن عند المشركين وقد ذكرت في الآيات السابقة وهي أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به وإن كان تنزيلاً من رب العالمين وكان عربياً مبيناً غير أعجمي وكان مذكوراً في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل .

والسلوك الإدخال في الطريق والإمرار ، والمراد بالمجرمين هم الكفار

(١) حم السجدة : ٤٤ .

(٢) الزخرف : ٣ .

والمشركون وذكرهم بوصف الإجرام للإشارة إلى علة الحكم وهو سلوكه في قلوبهم على هذه الحال المبغوضة والمنفورة وأن ذلك مجازاة إلهية جازاهم بها عن إجرامهم وليعم الحكم بعموم العلة .

والمعنى : على هذه الحال - وهي أن يكون بحيث يعرض عنه ولا يؤمن به - ندخل القرآن في قلوب هؤلاء المشركين ونمرّه في نفوسهم جزاء لإجرامهم وكذلك كل مجرم .

وقيل : الإشارة إلى ما ذكر من أوصاف القرآن الكريمة والمعنى : ندخل القرآن ونمرّه في قلوب المجرمين بمثل ما بينا له الأوصاف فيرون أنه كتاب سماوي ذو نظم معجز خارج عن طوق البشر وأنه مبشر به في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل وتتم الحجة به عليهم . وهو بعيد من السياق .

وقيل : الضمير في ﴿نسلكه﴾ للتكذيب بالقرآن والكفر به المدلول عليه بقوله : ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ هذا وهو قريب من الوجه الأول لكن الوجه الأول ألطف وأدق ، وقد ذكره في الكشف .

وقد تبين بما تقدم أن المراد بالمجرمين مشركو مكة غير أن عموم وصف الإجرام يعمم الحكم ، وقال بعضهم : إن المراد بالمجرمين غير مشركي مكة من معاصريهم ومن يأتي بعدهم ، والمعنى : كما سلكناه في قلوب مشركي مكة نسلكه في قلوب غيرهم من المجرمين .

ولعل الذي دعاه إلى اختيار هذا الوجه إشكال اتحاد المشبه والمشبه به على الوجه الأول مع لزوم المغايرة بينهما فاعتبر المشار إليه بقوله : ﴿كذلك﴾ السلوك في قلوب مشركي مكة وهو المشبه به وجعل المشبه غيرهم من المجرمين وفيه أن تشبيه الكلي ببعض أفرادهِ للدلالة على سراية حكمه في جميع الأفراد طريقة شائعة .

ومن هنا يظهر أن هناك وجهاً آخر وهو أن يكون المراد بالمجرمين ما يعم مشركي مكة وغيرهم بجعل اللام فيه لغير العهد ولعل الوجه الأول أقرب من السياق .

قوله تعالى : ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ إلى قوله ﴿منظرون﴾ تفسير وبيان لقوله : ﴿كذلك نسلكه﴾ الخ هذا على الوجه الأول والثالث من الوجوه المذكورة في الآية السابقة وأما على الوجه الثاني فهو استئناف غير مرتبط بما قبله .

وقوله : ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم إلى الإيمان الاضطراري الذي لا ينفعهم ، والظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت واحتمل بعضهم أن يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل ، لكن عموم الحكم في الآية السابقة لمشركي مكة وغيرهم لا يلائم ذلك .

وقوله : ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ كالتفسير لقوله : ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ إذ لو لم يأتيهم بغتة وعلموا به قبل مواعده لاستبعدوا له وآمنوا باختيار منهم غير ملجئين إليه .

وقوله : ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ كلمة تحسّر منهم .

قوله تعالى : ﴿أبعذابنا يستعجلون﴾ توبيخ وتهديد .

قوله تعالى : ﴿أفأريت إن متعناهم سنين﴾ إلى قوله ﴿يمتعون﴾ متصل بقوله : ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ ومحصل المعنى أن تمني الإمهال والإنظار تمني أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه ولم يغن عنهم شيئاً لو أجيبوا إلى ما سألوه فإن تمتيعهم أمداً محدوداً طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذي قضي في حقهم .

وهو قوله : ﴿أفأريت إن متعناهم سنين﴾ معدودة ستقضي ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب بعد انقضاء سني الإنظار والإمهال ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ أي تمتيعهم أمداً محدوداً .

قوله تعالى : ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى﴾ الخ ، الأقرب أن يكون قوله : ﴿لها منذرون﴾ حالاً من ﴿قرية﴾ وقوله : ﴿ذكرى﴾ حالاً من ضمير الجمع في ﴿منذرون﴾ أو مفعولاً مطلقاً عاملاً ﴿منذرون﴾ لكونه في معنى مذكرون والمعنى ظاهر ، وقيل غير ذلك مما لا جدوى في ذكره وإطالة البحث عنه .

وقوله : ﴿وما كنا ظالمين﴾ ورود النفي على الكون دون أن يقال : وما ظلمناهم ونحو ذلك يفيد نفي الشأنية أي وما كان من شأننا ولا المترقب منا أن نظلمهم .

والجملة في مقام التعليل للحصر السابق والمعنى : ما أهلكنا من قرية إلا في حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجة عليهم لأننا لو أهلكناهم في غير هذه الحال لكنا ظالمين لهم وليس من شأننا أن نظلم أحداً فالآية في معنى قوله تعالى : ﴿وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولاً^(١) .

(كلام في معنى نفي الظلم عنه تعالى)

من لوازم معنى الظلم المتساوية له فعل الفاعل وتصرفه ما لا يملكه من الفعل والتصرف ، ويقابله العدل ولازمه أنه فعل الفاعل وتصرفه ما يملكه .

ومن هنا يظهر أن أفعال الفواعل التكوينية من حيث هي مملوكة لها تكويناً لا يتحقق فيها معنى الظلم لأن فرض صدور الفعل عن فاعله تكويناً مساوق لكونه مملوكاً له بمعنى قيام وجوده به قياماً لا يستقل دونه .

ولله سبحانه ملك مطلق منبسط على الأشياء من جميع جهات وجودها لقيامها به تعالى من غير غنى عنه واستقلال دونه فأى تصرف تصرف به فيها مما يسرها أو يسوؤها أو ينفعها لو يضرها ليس من الظلم في شيء وإن شئت فقل : عدل بمعنى ما ليس بظلم فله أن يفعل ما يشاء وله أن يحكم ما يريد كل ذلك بحسب التكوين .

فله تعالى ملك مطلق بذاته ، ولغيره من الفواعل التكوينية ملك تكويني بالنسبة إلى فعله حسب الإعطاء والموهبة الإلهية وهو ملك في طول ملكه تعالى وهو المالك لما ملكها والمهيمن على ما عليه سلطها .

ومن جملة هذه الفواعل النوع الإنساني بالنسبة إلى أفعاله وخاصة ما نسميها بالأفعال الاختيارية والاختيار الذي يتعين به هذه الأفعال ، فالواحد منا يجد من نفسه عياناً أنه يملك الاختيار بمعنى إمكان الفعل والترك معاً ، فإن شاء فعل وإن لم يشأ ترك فهو يرى نفسه حراً يملك الفعل والترك ، أي فعل وترك كانا ، بمعنى إمكان صدور كل منهما عنه .

ثم إن اضطراب الإنسان إلى الحياة الاجتماعية المدنية اضطرَّ العقل أن يغمض عن بعض ما للإنسان من حرية العمل ويرفع اليد عن بعض الأفعال التي كان يرى أنه يملكها وهي التي يختل بإتيانها أمر المجتمع فيختل نظم حياته نفسه وهذه هي المحرمات والمعاصي التي تنهي عنها القوانين المدنية أو السنن القومية أو الأحكام

الملوكية الدائرة في المجتمعات .

ومن الضروري لتحكيم هذه القوانين والسنن أن يجعل نوع من الجزاء السيء على المتخلف عنها - بشرط العلم وتتمام الحجة لأنه شرط تحقق التكليف - من ذم أو عقاب ، ونوع من الأجر الجميل للمطيع الذي يحترمها من مدح أو ثواب .

ومن الضروري أن ينتصب على المجتمع والقوانين الجارية فيها من يُجريها على ما هي عليه وهو مسؤول عما نصب له وخاصة بالنسبة إلى أحكام الجزاء ، فلو لم يكن مسؤولاً وجاز له أن يجازي وأن لا يجازي ويأخذ المحسن ويترك المسيء لغى وضع القوانين والسنن من رأس . هذه أصول عقلائية جارية في الجملة في المجتمعات الإنسانية منذ استقر هذا النوع على الأرض منبعثة عن فطرتهم الإنسانية .

وقد دلت البراهين العقلية وأيدها تواتر الأنبياء والرسل من قبله تعالى على أن القوانين الاجتماعية وسنن الحياة يجب أن تكون من عنده تعالى وهي أحكام ووظائف إنسانية تهدي إليها الفطرة الإنسانية وتضمن سعادة حياته وتحفظ مصالح مجتمعه .

وهذه الشريعة السماوية الفطرية واضعها هو الله سبحانه ومجريها من حيث الثواب والعقاب - وموطنهما موطن الرجوع إليه تعالى - هو الله سبحانه .

ومقتضى تشريعه تعالى هذه الشرائع السماوية واعتباره نفسه مجرياً لها أنه أوجب على نفسه إيجاباً تشريعياً - وليس بالتكويني - أن لا يناقض نفسه ولا يتخلف بإهمال أو إلغاء جزاء يستوجبه خلاف أو إعمال جزاء لا يستحقه عمل كتعذيب الغافل الجاهل بعذاب المتعمد المعاند ، وأخذ المظلوم بإثم الظالم وإلا كان ظلماً منه ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ولعل هذا معنى ما يقال : إن الظلم مقدور له تعالى لكنه ليس بواقع البتة لأنه نقص كمال يتنزه تعالى عنه ففرض الظلم منه تعالى من فرض المحال وليس بفرض محال ، وهو المستفاد من ظاهر قوله تعالى : ﴿وما كنا ظالمين﴾^(١) ، وقوله : ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾^(٢) ، وقوله : ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾^(٣) ، وقوله : ﴿لئلا يكون

(١) الشعراء : ٢٠٩ .

(٢) يونس : ٤٤ .

(٣) النساء : ١٦٥ .

للناس على الله حجة بعد الرسل^(١) ، فظاهرها أنها ليست من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع كما يومي إليه تفسير من فسرها بأن المعنى أن الله لا يفعل فعلاً لو فعله غيره لكان ظالماً .

فإن قلت : ما ذكر من وجوب إجراء الجزاء ثواباً أو عقاباً بخالف ما هو المسلّم عندهم أن ترك عقاب العاصي جائز لأنه من حق المعاقب ومن الجائز على صاحب الحق تركه وعدم المطالبة به بخلاف ثواب المطيع لأنه من حق الغير وهو المطيع فلا يجوز تركه وإبطاله .

على أنه قيل : إن الإثابة على الطاعات من الفضل دون الاستحقاق لأن العبد وعمله لمولاه فلا يملك شيئاً حتى يعاوضه بشيء .

قلت : ترك عقاب العاصي في الجملة مما لا كلام فيه لأنه من الفضل وأما بالجملة فلا لاستلزامه لغوية التشريع والتقنين وترتيب الجزاء على العمل .

وأما كون ثواب الأعمال من الفضل بالنظر إلى كون عمل العبد كنفسه لله فلا ينافي فضلاً آخر منه تعالى على عبده باعتبار عمله ملكاً له ، ثم جعل ما يشبهه عليه أجراً لعمله ، والقرآن مليء بحديث الأجر على الأعمال الصالحة ، وقد قال تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ إلى قوله ﴿لمعزولون﴾ شروع في الجواب عن قول المشركين : إن لمحمد جنأ يأتيه بهذا الكلام ، وقولهم : إنه شاعر ، وقدم الجواب عن الأول وقد وجه الكلام أولاً إلى النبي ﷺ فبين له أن القرآن ليس من تنزيل الشياطين وطيب بذلك نفسه ثم وجه القول إلى القوم فينبه لهم بما في وسعهم أن يفقهوه .

فقوله : ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ أي ما نزلته والآية متصلة بقوله : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ ووجه الكلام كما سمعت إلى النبي ﷺ بدليل قوله تلوا : ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ إلى آخر الخطابات المختصة به ﷺ المتفرعة على

(١) فصلت : ٤٦ .

(٢) براءة : ١١١ .

قوله : ﴿وما تنزلت به﴾ الخ ، على ما سيجيء بيانه .

وإنما وجه الكلام إلى النبي ﷺ دون القوم لأنه معلل بما لا يقبلونه بكفرهم أعني قوله : ﴿إنهم عن السمع لمعزلون﴾ والشيطان الشرير وجمعه الشياطين والمراد بهم أشرار الجن .

وقوله : ﴿وما ينبغي لهم﴾ أي للشياطين . قال في مجمع البيان : ومعنى قول العرب : ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب . انتهى .

والوجه في أنه لا ينبغي لهم أن يتنزلوا به أنهم خلق شرير لا هم لهم إلا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله ، والقرآن كلام حق لا سبيل للباطل إليه فلا يناسب جبلتهم الشيطانية أن يلقوه إلى أحد .

وقوله : ﴿وما يستطيعون﴾ أي وما يقدرّون على التنزل به لأنه كلام سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى كما قال : ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم﴾^(١) ، وإلى ذلك يشير قوله : ﴿إنهم عن السمع﴾ الخ .

وقوله : ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ أي إن الشياطين عن سماع الأخبار السماوية والاطلاع على ما يجري في الملأ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبة لو تسمّعوا كما ذكره الله في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ خطاب للنبي ﷺ ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله : ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ الخ ، أي إذا كان هذا القرآن تنزيلاً من رب العالمين ولم تنزل به الشياطين وهو ينهي عن الشرك ويوعده عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه وتدخل في زمرة المعذبين .

وكونه ﷺ معصوماً بعصمة إلهية يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيه عن الشرك فإن العصمة لا توجب بطلان تعلّق الأمر والنهي بالمعصوم وارتفاع

التكليف عنه بما أنه بشر مختار في الفعل والترك متصور في حقه الطاعة والمعصية بالنظر إلى نفسه ، وقد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء عليهم السلام : ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾^(١) ، وقوله في النبي ﷺ : ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾^(٢) ، والآيتان في معنى النهي .

وقول بعضهم : إن التكليف للتكميل فيرتفع عند حصول الكمال وتحققه لاستحالة تحصيل الحاصل خطأ فإن الأعمال الصالحة التي يتعلق بها التكليف من آثار الكمال المطلوب والكمال النفساني كما يجب أن يكتسب بالإتيان بآثاره ومزاولة الأعمال التي تناسبه والارتياض بها كذلك يجب أن يستبقى بذلك فما دام الإنسان بشراً له تعلق بالحياة الأرضية لا مناص له عن تحمل أعباء التكليف ، وقد تقدم كلام في هذا المعنى في بعض الأبحاث .

قوله تعالى : ﴿وأأنذر عشيرتک الأقربين﴾ في مجمع البيان : عشيرة الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه انتهى . وخص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر بعد نهى نفسه عن الشرك وإنذاره تنبيهاً على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية ولا مDAHنة ولا مساهلة كما هو معهود في السنن الملوكية فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي وامته ، ولا بين الأقارب والأجانب ، فالجميع عبيد والله مولا هم .

قوله تعالى : ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ أي اشتغل بالمؤمنين بك واجمعهم وضمهم إليك بالرفقة والرحمة كما يجمع الطير أفراده إليه بخفض جناحه لها ، وهذا من الاستعارة بالكناية تقدم نظيره في قوله : ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾^(٣) .

والمراد بالاتباع الطاعة بقريئة قوله في الآية التالية : ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما

(١) الأنعام : ٨٨ .

(٢) الزمر : ٦٥ .

(٣) الحجر : ٨٨ .

تعملون ﴿ فملخص الآيتين : إن آمنوا بك واتبعوك فاجمعهم إليك بالرفقة واشتغل بهم بالتربية وإن عصوك فتبرء من عملهم .

قوله تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أي ليس لك من أمر طاعتهم ومعصيتهم شيء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك إلى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين وبرحمته سينجي المؤمنين المتبعين .

وفي اختصاص اسمي العزيز والرحيم إلفات للذهن إلى ما تقدم من القصص ختمت واحدة بعد واحدة بالاسمين الكريمين .

فهو في معنى أن يقال : توكل في أمر المتبعين والعاصين جميعاً إلى الله فهو العزيز الرحيم الذي فعل بقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وقوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسته أخذ العاصين وإنجاء المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ ظاهر الآيتين - على ما يسبق إلى الذهن - أن المراد بالساجدين الساجدون في الصلاة من المؤمنين وفيهم رسول الله ﷺ في صلاته بهم جماعة ، والمراد بقريئة المقابلة القيام في الصلاة فيكون المعنى : الذي يراك وأنت بعينه في حالتي قيامك وسجودك متقلباً في الساجدين وأنت تصلي مع المؤمنين .

وفي معنى الآية روايات من طرق الشيعة وأهل السنة ستعرض لها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لقوله : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ وفي الآيات - على ما تقدم من معناها - تسلية للنبي ﷺ وبشرى للمؤمنين بالنجاة وإيعاد للكفار بالعذاب .

قوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ إلى قوله ﴿ كاذبون ﴾ ، تعريف لمن تنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفة ليعلم أن النبي ﷺ ليس منهم ولا أن القرآن من إلقاء الشياطين ، والخطاب متوجه إلى المشركين .

فقوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ في معنى هل أعرفكم الذين تنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار ؟ .

وقوله : ﴿تَنْزِيلٌ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قال في مجمع البيان : الأفاك الكذاب وأصل الإفك القلب والأفك الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب ، والأثيم الفاعل للقبيح يقال : أثم يأثم إثماً إذا ارتكب القبيح وتأثم إذا ترك الإثم انتهى .

وذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبيح في زي الحسن فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم .

وقوله : ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ الظاهر أن ضميري الجمع في ﴿يَلْقَوْنَ﴾ و ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ معاً للشياطين ، والسَّمْع مصدر بمعنى المسموع والمراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء ولو ناقصاً فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشبه فما استرقوه لا يكون إلا ناقصاً غير تام ولا كامل ولذا يتسرب إليه الكذب كثيراً .

وقوله : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلاً وهذا هو الكثرة بحسب الأفراد ويمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث التنزل أي أكثر المتنزلين منهم كاذبون أي أكثر أخبارهم كاذبة .

ومحصل حجة الآيات الثلاث أن الشياطين لا بتناء جبلتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر وأكثرهم كاذبون في أخبارهم ، والنبي ﷺ ليس بأفَّاك أثيم ولا ما يوحى إليه من الكلام كذباً مختلقاً فليس ممن تنزل عليه الشياطين ولا الذي يتنزل عليه شيطاناً ، ولا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين .

قوله تعالى : ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى قوله ﴿لَا يَفْعَلُونَ﴾ جواب عن رمي المشركين للنبي ﷺ بأنه شاعر ، نبّه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطاناً يوحى إليه القرآن .

وهذان أعني قولهم : إن من الجن من يأتيه ، وقولهم : إنه شاعر ، مما كانوا يكررونه في ألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقّة ، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكة خلافاً لما قيل إنها نزلت بالمدينة .

على أن الآيات مشتملة على ختام السورة أعني قوله : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكية سنين على

نعت النقص ثم تمامها بالمدينة ، ولا دلالة في الاستثناء على أن المستثنى هم شعراء المؤمنين بعد الهجرة .

وكيف كان فالغىّ خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع فالرشد هو الذي لا يهتم إلا بما هو حق واقع ، والغويّ هو السالك سبيل الباطل والمخطىء طريق الجنة ، والغواية مما يختص به صناعة الشعر المبنية على التخيل وتصوير غير الواقع في صورة الواقع ولذلك لا يهتم به إلا الغويّ المشغوف بالتزيينات الخيالية والتصويرات الوهمية الملهية عن الحق الصارفة عن الرشد ، ولا يتبع الشعراء الذين يبتني صناعتهم على الغيّ والغواية إلا الغاؤون وذلك قوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ .

وقوله : ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ يقال : هام يهيم هيماناً إذا ذهب على وجهه والمراد بهيمانهم في كل واد استرسالهم في القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود وربما هجوا الجميل كما يهجي القبيح الدميم وربما دعوا إلى الباطل وصرفوا عن الحق وفي ذلك انحراف عن سبيل الفطرة الإنسانية المبنية على الرشد الداعية إلى الحق ، وكذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطرة .

وملخص حجة الآيات الثلاث أنه ﷺ ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاؤون لا ببناء صناعتهم على الغواية وخلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد وإصابة الواقع وطلباً للحق لا ببناء ما عنده من الكلام المشتعل على الدعوة إلى الحق والرشد دون الباطل والغىّ .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾ الخ ، استثناء من الشعراء المذمومين ، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الإيمان وصالحات الأعمال تردع الإنسان بالطبع عن ترك الحق واتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الإنسان على ذكر منه تعالى مقبلاً إلى الحق الذي يرتضيه مديراً عن الباطل الذي لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لأولئك .

وبهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان وعمل الصالحات ثم عطف قوله : ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ على ذلك .

وقوله : ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ الانتصار الانتقام ، قيل : المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التي هجوا بها النبي ﷺ أو طعنوا فيها في الدين وقدحوا في الإسلام والمسلمين ، وهو حسن يؤيده المقام .

وقوله : ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾ المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمي ، والمعنى : وسيعلم الذين ظلموا - وهم المشركون على ما يعطيه السياق - إلى أي مرجع ومنصرف يرجعون وينصرفون وهو النار أو ينقلبون أي انقلاب .

وفيه تهديد للمشركين ورجوع مختتم السورة إلى مفتتحها وقد وقع في أولها قوله : ﴿فقد كذبوا فسيائتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن الحجاج عن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال : سألت عن قول الله عز وجل : ﴿بلسان عربي مبين﴾ قال : بين الألسن ولا تبينه الألسن .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الخ ، قال الصادق عليه السلام : لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب فأمنت به العجم فهذه فضيلة العجم .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن عيسى القمّاط عن عمه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أري رسول الله ﷺ في منامه بني أمية يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصراط القهقري فأصبح كئيباً حزيناً .

قال : فهبط جبرائيل فقال : يا رسول الله مالي أراك كئيباً حزيناً ؟ قال : يا جبرائيل إني رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقري ، فقال : والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه فخرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها . قال : ﴿أفرايت إن متعنهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ وأنزل عليه : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ جعل الله ليلة القدر لنبيه ﷺ خيراً من ألف شهر ملك بني أمية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال : روي النبي ﷺ كأنه متحير فسأله عن ذلك فقال : ولم ورأيت عدوي يلون أمر امتي من بعدي فنزلت ﴿أفرأيت إن متعنهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ فطابت نفسه .

أقول : وقوله : ولم ورأيت الخ ، فيه حذف والتقدير ولم لا أكون كذلك وقد رأيت «الخ» .

وفيه أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وفي الدلائل عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعمّ وخصّ فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً . يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً . يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً . يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً . يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرراً ولا نفعاً . ألا إن لكم رحماً وسأبلها ببلالها .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ جعل يدعوهم قبائل قبائل .

وفيه أخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن مردويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وأندر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين﴾ خرج النبي ﷺ حتى صعد على الصفا فنادى يا صباحاه فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟

فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ : رأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا ؟ فنزلت : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال : لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم أطلع عليه فقال : يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار واسعوا في فكاك رقابكم وافتكوها بأنفسكم من الله فإني لا أملك لكم من الله شيئاً .

ثم أقبل على أهل بيته فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد ويا أم الزبير عمة رسول الله اشتروا^(١) أنفسكم من الله واسعوا في فكاك رقابكم فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ولا أغني ، الحديث .

أقول ؛ وفي معنى هذه الروايات بعض روايات أخر وفي بعضها أنه ﷺ خص بني عبد مناف بالإنذار فيشمل بني أمية وبني هاشم جميعاً .

والروايات الثلاث الأول لا تنطبق عليها الآية فإنها تعمم الإنذار قريشاً عامة والآية تصرح بالعشيرة الأقربين وهم إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم وأبعد ما يكون من الآية الرواية الثانية حيث تقول : جعل يدعوهم قبائل قبائل .

على أن ما تقدم من معنى الآية وهو نفي أن تكون قرابة النبي ﷺ تغنيهم من تقوى الله وفي الروايات إشارة إلى ذلك - حيث تقول : لا اغني عنكم من الله شيئاً - لا يناسب عمومها لغير الخاصة من قرابته ﷺ .

وأما الرواية الرابعة فقوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ آية مكية في سورة مكية ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة وأين كانت يوم نزولها عائشة وحفصة وأم سلمة ولم يتزوج النبي ﷺ بهن إلا في المدينة ؟ فالمعتمد من الروايات ما يدل على أنه ﷺ خص بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني عبد المطلب ، ومن عجيب الكلام قول الألوسي بعد نقل الروايات : وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي بإسناده عن براء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العس فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال : ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا . ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعة

ثم قال لهم : اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال : هذا ما سحر لكم به الرجل فسكت عليه السلام يومئذ ولم يتكلم .

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله عليه السلام فقال : يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله عز وجل فأسلموا وأطيعوني تهتدوا .

ثم قال : من يواخيني ويوازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني ؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي أنا فقال في المرة الثالثة : أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أمر عليك .

قال الطبرسي : وروي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتى تضلعوا وسقاهم عساً فشربوا كلهم حتى رووا . ثم قال : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ورهطي ، وإن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله فأياكم يقوم فيأياني على أنه أخي ووارثي ووزير ووصي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ فقال علي : أنا فقال : ادن مني ففتح فاه ومج في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثديه فقال أبو لهب : بش ما حبوت به ابن عمك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً فقال عليه السلام : ملأته حكمة وعلماً .

أقول : وروي السيوطي في الدر المنثور ما في معنى حديث البراء عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي رضي الله عنه وفيه : ثم تكلم النبي عليه السلام فقال : يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحداً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئكم به إني قد جئكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأياكم يوازرني على أمري هذا ؟ فقلت وأنا أحدثهم سناً : إنه أنا ، فقام القوم يضحكون .

وفي علل الشرائع بإسناده عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أي رهطك المخلصين دعا رسول الله عليه السلام بني عبد المطلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً وينقصون

رجلاً فقال : أيكم يكون أخي ووارثي ووزير ووصي وخليفتي فيكم بعدي ،
فعرض عليهم ذلك رجلاً رجلاً كلهم يأبى ذلك حتى أتى عليّ فقلت : أنا يا رسول
الله .

فقال : يا بني عبد المطلب هذا وارثي ووزير ووصي وخليفتي فيكم بعدي فقام
القوم بضحك بعضهم إلى بعض ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع وتطيع
لهذا الغلام .

أقول : ومن الممكن أن يستفاد من قوله ﷺ : أي رهطك المخلصين أن ما
نسب إلى قراءة أهل البيت «وانذر عشيرتك الأقربين رهطك منهم المخلصين»
ونسب أيضاً إلى قرآن أبي بن كعب كان من قبيل التفسير .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ قيل : معناه وتقلبك
في الساجدين الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً . عن ابن عباس في
رواية عطاء وعكرمة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال :
أصلاّب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجهم من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن
آدم .

أقول : ورواه غيره من رواة الشيعة ، ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم
وابن مردويه وأبي نعيم وغيرهم عن ابن عباس وغيرهم .

وفي المجمع روى جابر عن أبي جعفر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : لا
ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلى هذه
الآية .

أقول : يريد ﷺ وضع الجبهة على الأرض ورفعها في السجدة ، ورواه في
الدر المنثور عن ابن عباس وغيره .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن
نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : لأن يمتلىء جوف
أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً .

أقول : وهو مروي من طرق الشيعة أيضاً عن الصادق ﷺ عنه ﷺ .

وفي تفسير القمي قال : يعظون الناس ولا يتعظون وينهون عن المنكر ولا ينتهون ويأمرون بالمعروف ولا يعملون وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ألم ترأنهم في كل واد يهيمون﴾ أي في كل مذهب يذهبون ﴿وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ وهم الذين غضبوا آل محمد حقهم .

وفي اعتقادات الصدوق سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ قال : هم القصاص .

أقول : هم من المصاديق والمعنى الجامع ما تقدم في ذيل الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشعر حكماً وإن من البيان سحراً .

أقول : وروى الجملة الأولى أيضاً عنه عن بريدة وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم وأيضاً عن ابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم ولفظه إن من الشعر حكمة ، والممدوح من الشعر ما فيه نصرة الحق ولا تشمله الآية .

وفي المجمع عن الزهري قال : حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن كعب بن مالك قال : يا رسول الله ماذا تقول في الشعراء ؟ قال : إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكانما تنضخونهم بالنبل .

قال الطبرسي وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : اهجهم أو هاجهم وروح القدس معك رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الحسن سالم البراد قال : لما نزلت ﴿والشعراء﴾ الآية جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وهم يبيكون فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء أهلكنا ؟ فأنزل الله ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم .

أقول : هذه الرواية وما في معناها هي التي دعا بعضهم إلى القول بكون الآيات الخمس من آخر السورة مدنيات وقد عرفت الكلام في ذلك عند تفسير الآيات .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً . ثم قال : لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وإن كان منه ولكن ذكر الله عندما أحل وحرّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها .

أقول : فيه تأييد لما تقدم في تفسير الآية .



سورة النمل



مكية ، وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ
يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) .

(بيان)

غرض السورة - على ما تدلُّ عليه آيات صدرها والآيات الخمس الخاتمة لها -
التبشير والإنذار وقد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى وداود وسليمان وصالح
ولوط عليهم السلام ثم عقبها ببيان نبذة من أصول المعارف كوحدايته تعالى في
الربوبية والمعاد وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ الإشارة بتلك - كما مر في أول سورة
الشعراء - إلى آيات السورة مما ستنزل بعد وما نزلت قبل ، والتعبير باللفظ الخاص
بالبعيد للدلالة على رفعة قدرها وبعدها منالها .

والقرآن اسم للكتاب باعتبار كونه مقرواً ، والمبين من الإبانة بمعنى الإظهار ، وتنكير ﴿قرآن﴾ للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر التي ننزلها آيات الكتاب وآيات كتاب مقرو عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إيهام ولا تعقيد .

قال في مجمع البيان : وصفه بالصفتين يعني الكتاب والقرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً ، ووصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا . انتهى .

قوله تعالى : ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ المصدران أعني ﴿هدى وبشرى﴾ بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدرى للمبالغة .

قوله تعالى : ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ الخ ، المراد إتيان الأعمال الصالحة وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لكون كل منهما ركناً في بابه فالصلاة فيما يرجع إلى الله تعالى والزكاة فيما يرجع إلى الناس وينظر آخر الصلاة في الأعمال البدنية والزكاة في الأعمال المالية .

وقوله : ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جيء به للإشارة إلى أن هذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها وتصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة ، قال تعالى : ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾^(١) .

وتكرار الضمير في قوله : ﴿وهم بالآخرة هم﴾ الخ للدلالة على أن هذا الإيقان من شأنهم وهم أهله المترقب منهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ العمه التحير في الأمر ومعنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب إليه الإنسان والذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها وهي غاية مسيرهم بقوا في الدنيا وهي سبيل لا غاية فتعلقوا بأعمالهم فيها وكانوا متحيرين في الطريق لا غاية لهم يقصدونها .

قوله تعالى : ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ الخ إيعاد بمطلق العذاب من دنيوي وأخروي بدليل ما في قوله : ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ ولعل وجه كونهم أخسر

الناس أن سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم وحسناتهم يجازون بها وأما هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها وحسناتهم حابطة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ التلقية قريبة المعنى من التلقين ، وتنكير ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ للتعظيم ، والتصريح بكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجة على الرسالة وتأيداً لما تقدم من المعارف ولصحة ما سيذكره من قصص الأنبياء عليهم السلام .

وتخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض ولا يوهنه موهن ، ومنبع العلم فلا يكذب في خبره ولا يخطئ في قضائه .

* * *

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنَّ
بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا
مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي
غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا
جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ (١٤) .

(بيان)

أول القصص الخمس التي أُشير إليها في السورة استشهاداً لما في صدرها من التبشير والإنذار والوعيد وتغلب في الثلاث الأول منها وهي قصص موسى وداود وسليمان جهة الوعد على الوعيد وفي الأخيرتين بالعكس .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ﴾ الخ المراد بأهله امرأته وهي بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع : إن خطابها بقوله : ﴿آتِيكُمْ﴾ بصيغة الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الانس بها في الأمكنة الموحشة . انتهى ومن المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما .

وفي المجمع : الإيناس الإبصار ، وقيل : آنت أي أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنت به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه . انتهى والشهاب على ما في المجمع نور كالعمود من النار وكل نور يمتد كالعمود يسمى شهاباً والمراد الشعلة من النار ، وفي المفردات : الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو وفي المفردات أيضاً : القبس المتناول من الشعلة ، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها .

وسياق الآية يشهد ويؤيده ما وقع من القصة في سور أخرى أنه كان حينذاك يسير بأهله وقد ضل الطريق وأصابه وأهله البرد في ليلة داجية فأبصر ناراً من بعيد فأراد أن يذهب إليها فإن وجد عندها إنساناً استخبره أو يأخذ قبساً يأتي به إلى أهله فيوقدوا ناراً يصطلون بها . فقال لأهله امكثوا إني أحسست وأبصرت ناراً فالزموا مكانكم سآتيكم منها أي من عندها بخبر نهتدي به أو آتيكم بشعلة متناولة من النار لعلكم توقدون بها ناراً تصطلون وتستدفؤون بها .

ويظهر من السياق أيضاً أن النار إنما ظهرت له ~~عائلاً~~ ولم يشاهدها غيره وإلا عبر عنها بالإشارة دون التنكير .

ولعل اختلاف الإتيان بالخبر والإتيان بالنار نوعاً هو الموجب لتكرار لفظ الإتيان حيث قال : ﴿سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسَبِّحَانَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك أن بورك «الخ» .

والمراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال : باركه وبارك عليه وبارك فيه أي ألبسه الخير الكثير وحباه به ، وقد وقع في سورة طه في هذا الموضع من القصة قوله : ﴿ فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنيك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ (١) . ويستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار ، ومباركته اختياره بعد تقديسه .

وأما المراد بمن في النار فقد قيل : إن معناه من ظهر سلطانه وقدرته في النار فإن التكليم كان من الشجرة - على ما في سورة القصص - وقد أحاطت بها النار ، وعلى هذا فالمعنى : تبارك من تجلّى لك بكلامه من النار وبارك فيك ، ويكون قوله : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ تنزيهاً له سبحانه من أن يكون جسماً أو جسمانياً يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان لا لتعجيب موسى كما قيل .

وقيل : المراد بمن في النار الملائكة الحاضرون فيها كما أن المراد بمن حولها موسى ﷺ .

وقيل : المراد به موسى ﷺ وبمن حولها الملائكة .

وقيل : في الكلام تقدير والأصل بورك من في المكان الذي فيه النار - وهو البقعة المباركة التي كانت فيها الشجرة كما في سورة القصص - ومن فيها هو موسى وحولها هي الأرض المقدسة التي هي الشامات ، ومن حولها هم الأنبياء القاطنون فيها من آل إبراهيم وبني إسرائيل .

وقيل : المراد بمن في النار نور الله تعالى وبمن حولها موسى .

وقيل : المراد بمن في النار الشجرة فإنها كانت محاطة بالنار بمن حولها الملائكة المسبحون .

وأكثر هذه الوجوه لا يخلو من تحكّم ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ تعرّف منه تعالى لموسى ﷺ ليعلم أن الذي يشافهه بالكلام ربه تعالى فهذه الآية في هذه السورة تحاذي قوله من سورة طه ﴿ نودي أن يا موسى إني أنا ربك فاخلع ﴾ الخ ، فارجع إلى سورة طه وتدبر في الآيات .

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ﴾^(١) الخ ، الاهتزاز التحرك الشديد ، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة ، والإدبار خلاف الإقبال ، والتعقيب الكرّ بعد الفر من عقب المقاتل إذا كرّ بعد فراره .

وفي الآية حذف وإيجاز تفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله : ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ والتقدير وألق عصاك فلما ألقاها إذا هي ثعبان مبین يهتز كأنه جان ولما رآها تهتزّ «الخ» .

ولا منافاة بين صيرورة العصا ثعباناً مبیناً كما وقع في قصته ﷺ من سورتي الأعراف والشعراء - والثعبان الحية العظيمة الجثة - وبين تشبيهها في هذه السورة بالجان فإن التشبيه إنما وقع في الاهتزاز وسرعة الحركة والاضطراب حيث شاهد العصا وقد تبدلت ثعباناً عظيم الجثة هائل المنظر يهتز ويتحرك بسرعة اهتزاز الجان وتحركه بسرعة وليس تشبيهاً لنفس العصا أو الثعبان بنفس الجان .

وقيل : إن آية العصا كانت مختلفة الظهور فقد ظهرت العصا لأول مرة في صورة الجان كما وقع في سورة طه : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾^(١) ثم ظهرت لما ألقاها عند فرعون في صورة ثعبان مبین كما في سورتي الأعراف والشعراء .

وفيه أن هذا الوجه وإن كان لا يخلو بالنظر إلى سياق الآيات عن وجاهة لكنه لا يندفع به إشكال تشبيه الشيء بنفسه أو عدم تبدلها حية فالمعول في دفع الإشكال على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ حكاية نفس الخطاب الصادر هناك وهو في معنى قال الله يا موسى لا تخف «الخ» .

وقوله : ﴿لَا تَخَفْ﴾ نهى مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام في حضرة القرب والمشافهة سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها ولذا علل النهي بقوله : ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ فإن تقييد النفي بقوله : ﴿لَدَيَّ﴾ يفيد أن مقام القرب والحضور يلزم الأمن ولا يجامع مكروهاً يخاف منه ، ويؤيده تبديل هذه الجملة في القصة من سورة القصص من قوله : ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ فيتحصّل

المعنى : لا تخف من شيء إنك مرسل والمرسلون - وهم لدي في مقام القرب - في مقام الأمن ولا خوف مع الأمن .

وأما فرار موسى عليه السلام من العصا وقد تصوّرت بتلك الصورة الهائلة وهي تهتز كأنها جان فقد كان جرياً منه على ما جبل الله الطبيعة الإنسانية عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له إلى دفعه عن نفسه إلا الفرار وقد كان أعزل لا سلاح معه إلا عصاه وهي التي يخافها على نفسه ولم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهى عن الفرار مما يخافه على نفسه إلا قوله تعالى : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وقد امتثله ، وليس الفرار من المخاطر العظيمة التي لا دافع لها إلا الفرار ، من الجبن المذموم حتى يذم عليه .

وأما أن الأنبياء والمرسلين لا يخافون شيئاً وهم عند ربهم - على ما يدل عليه قوله : ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ - فهم لا يملكون هذه الكرامة من عند أنفسهم بل إنما ذلك بتعليم من الله وتأييد وإذ كان موقف ليلة الطور أول موقف من موسى قربه الله إليه فيه وخصه بالتكليم وحباه بالرسالة والكرامة فقوله : ﴿لا تخف إنك من الأمنين﴾ وقوله : ﴿لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ تعليم وتأيد إلهي له عليه السلام .

فتبين بذلك أن قوله : ﴿لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ تأديب وتربية إلهية لموسى عليه السلام وليس من التوبيخ والتأنيب في شيء .

قوله تعالى : ﴿إلا من ظلم ثم بذل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ الذي ينبغي أن يقال - والله أعلم - أن الآية السابقة لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم فبين أنهم لتوبتهم وتبديلهم ظلمهم - وهو السوء - حسناً بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً .

فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع والمراد بالظلم مطلق المعصية وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيء ، والمعنى : لكن من ظلم باقتراف المعصية ثم بذل ذلك حسناً بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سيء فإني غفور رحيم أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخاف بعد ذلك شيئاً .

قوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٍ﴾ الخ ، فسر السوء بالبرص وقد تقدم ، وقوله : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ يمكن أن يستظهر من السياق أولاً أن ﴿فِي تِسْعِ﴾ حال من الآيتين جميعاً ، والمعنى : آيتيك هاتين الآيتين - العصا واليد - حال كونهما في تِسْعِ آيَاتٍ .

ثانياً : أن الآيتين من جملة الآيات التسع ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١) ، كلام في تفصيل الآيات التسع ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مَبْصُورَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ المبصرة بمعنى الواضحة الجليلة ، وفي قولهم : ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إزراء وإهانة بالآيات حيث أهملوا الدلالة على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبؤا بها إلا بمقدار أنها أمر ما .

قوله تعالى : ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ الخ ، قال الراغب : الجحد نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه . انتهى . والإستيقان والإيقان بمعنى .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ
مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً
شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي
وَجَدْتُ أَمْرَآةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ
سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ
إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا
إِنِّي آتِيَةٌ إِلَيْكُمْ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ
يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمراً حَتَّى
تَشْهَدُونَ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَإَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ

بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ
 أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ
 تَفَرِّحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ
 يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ
 أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ
 الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ
 فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ
 أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ
 كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
 لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
 وَأَوْتَيْنَا آلَ عَادَ مِنْ قَبْلُهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ
 فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ
 قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ (٤٤) .

(بيان)

نبذة من قصص داود وسليمان عليهما السلام وفيها شيء من عجائب أخبار
 سليمان بما آتاه الله من الملك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ الخ ، في تنكير العلم إشارة إلى
 تفخيم أمره ، ومما أشير فيه إلى علم داود من كلامه تعالى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾

وفصل الخطاب^(١) . ومما أُشير فيه إلى علم سليمان قوله : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا
آتَيْنَا حَكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٢) ، وذيل الآية يشملهما جميعاً .

وقوله : ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد
بالتفضيل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤيده سياق الآية ، وإما التفضيل بمطلق ما
خصَّهما الله به من المواهب كتسخير الجبال والطير لداود وتليين الحديد له وإيتائه
الملك ، وتسخير الجن والوحش والطير وكذا الريح لسليمان وتعليمه منطق الطير وإيتائه
الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل .

والآية أعني قوله : ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الخ ، على أي حال بمنزلة حكاية
اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدَّعي الذي تشير إليه بشارة
صدر السورة أن الله سبحانه سيخص المؤمنين بما تقرُّ به عيونهم ومثلها ما سيأتي من
اعترافات سليمان في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ الخ ، أي ورثه ماله وملكه ، وأما قول
بعضهم : المراد به وراثة النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها
الانتقال ، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصح في العلم الفكري
الاكتسابي والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم وهبٍ ليس مما
يكتسب بالفكر فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا
من غير نبي .

وقوله : ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ ظاهر السياق أنه ﷺ يباهي
عن نفسه وأبيه وهو منه ﷺ تحديث بنعمة الله كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدِّثْ﴾^(٣) ، وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير في قوله : ﴿عَلَّمْنَا﴾
و ﴿أُوتَيْنَا﴾ لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء في الإخبار عن
أنفسهم - فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعاية لسياسة الملك - فالسياق
السابق لا يساعد عليه كل المساعدة .

(١) ص : ٢٠ .

(٢) الأنبياء : ٧٩ .

(٣) الضحى : ١١ .

والمراد بالناس ظاهر معناه وهو عامة المجتمعين من غير تمييز لبعضهم من بعض وقول بعضهم إن المراد بهم عظماء أهل مملكته أو علماؤهم غير سديد .

والمنطق والنطق على ما نتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلفة الذائلة بالوضع على معان مقصودة للناطق المسماة كلاماً ولا يكاد يقال - على ما ذكره الراغب - إلا للإنسان لكن القرآن الكريم يستعمله في معنى أوسع من ذلك وهو دلالة الشيء على معنى مقصود لنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(١) ، وهو إما من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن في أغلب المعاني والمفاهيم المقصورة في الاستعمالات على المصاديق الجسمانية المادية كالرؤية والنظر والسمع واللوح والقلم والعرش والكرسي وغيرها ، وإما لأن اللفظ معنى أعم واختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثرة الاستعمال .

وكيف كان فمنطق الطير هو ما تدل به الطير بعضها على مقاصدها ، والذي نجده عند التأمل في أحوالها الحيوية هو أن لكل صنف أو نوع منها أصواتاً ساذجة خاصة في حالاتها الخاصة الاجتماعية حسب تنوع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد وحال المغالبة والغلبة وحال الوحشة والفرع وحال التضرع أو الاستغاثة إلى غير ذلك ونظير الطير في ذلك سائر الحيوان .

لكن لا ينبغي الإرتياب في أن المراد بمنطق الطير في الآية معنى أدق وأوسع من ذلك .

أما أولاً : فلشهادة سياق الآية على أنه ﷺ يتحدث عن أمر اختصاصي ليس في وسع عامة الناس أن ينالوه وإنما ناله بعناية خاصة إلهية ، وهذا المقدار المذكور من منطق الطير مما يسع لكل أحد أن يطلع عليه ويعرفه .

وأما ثانياً : فلأن ما حكاه الله تعالى في الآيات التالية من محاوراة سليمان والهدهد يتضمن معارف عالية متنوعة لا يسع لما نجده عند الهدهد من الأصوات المعدودة أن تدل عليها بتمييز لبعضها من بعض ففي كلام الهدهد ذكر الله سبحانه ووحدانيته وقدرته وعلمه وربوبيته وعرشه العظيم وذكر الشيطان وتزيينه الأعمال

والهدى والضلال وغير ذلك ، وفيه ذكر الملك والعرش والمرأة وقومها وسجدتهم للشمس ، وفي كلام سليمان أمره بالذهاب بالكتاب وإلقائه إليهم ثم النظر فيما يرجعون ، وهذه كما لا يخفى على الباحث في أمر المعاني المتعمق فيها معارف جمّة لها أصول عريقة يتوقف الوقوف عليها على ألوف وألوف من المعلومات ، وأنّي تفي على إفادة تفصيلها أصوات ساذجة معدودة .

على أنه لا دليل على أن كل ما يأتي بها الحيوان في نطقه من الأصوات أو خصوصيات الصوت يفي حسناً بإدراكه أو تمييزه ، ويؤيده ما نقل من قول النملة في الآيات التالية وهو من منطق الحيوان قطعاً ولا صوت للنملة يناله سمعنا ويؤيده أيضاً ما يراه علماء الطبيعة اليوم أن الذي يناله سمع الإنسان من الصوت عدد خاص من الارتعاش المادي وهو ما بين ستة عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين ألفاً في الثانية ، وأن الخارج من ذلك في جانبي القلة والكثرة لا يقوى عليه سمع الإنسان وربما ناله سائر الحيوان أو بعضها .

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم ولطيف الإدراك عند أنواع من الحيوان كالفرس والكلب والقرود والدب والزنبور والنملة وغيرها على أمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الإنسان .

وقد تبين بما مر أن ظاهر السياق أن للطير منطقاً علمه الله سليمان ، وظهر به فساد قول من قال إن نطق الطير كان معجزة لسليمان وأما هي في نفسها فليس لها نطق هذا .

وقوله : ﴿وَأوتينا من كل شيء﴾ أي أعطينا من كل شيء ، و﴿كل شيء﴾ ، وإن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجوداً - لأن مفهوم شيء من أعم المفاهيم وقد دخل عليه كلمة الاستغراق - لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمة بل النعم التي يمكن أن يؤتاها الإنسان فيتنعم بها تقيد به معنى كل شيء وكان معنى الجملة : وأعطانا الله من كل نعمة يمكن أن يعطاها الإنسان فيتنعم بها مقداراً معتداً به كالعلم والنبوة والملك والحكم وسائر النعم المعنوية والمادية .

وقوله : ﴿إن هذا هو الفضل المبين﴾ شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر واختيال لاسناده الجميع إلى الله بقوله : ﴿علمنا﴾ و﴿أوتينا﴾ ، واحتمل

بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان والسياق يأباه .

قوله تعالى : ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون﴾ الحشر هو جمع الناس وإخراجهم لأمر بإزعاج والوزع المنع وقيل الحبس ، والمعنى كما قيل : وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يمنعون من التفرق واختلاط كل جمع بآخر برد أولهم إلى آخرهم وحبس كل في مكانه .

ويستفاد من الآية أنه كان له جنود من الجن والطير يسرون معه كجنوده من الإنس .

وكلمة الحشر ووصف المحشورين بأنهم جنود ، وسياق الآيات التالية كل ذلك دليل على أن جنوده كانوا طوائف خاصة من الجن والإنس والطير سواء كانت ﴿من﴾ في الآية للتبويض أو للبيان .

وقد أغرب في التفسير الكبير فزعم أن الآية تدل على أن جميع الجن والإنس والطير كانوا جنوده وقد ملك الأرض كلها وأن الله تعالى جعل الطير في زمانه عقلاء مكلفين ثم عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله وقال بمثله في النملة التي تكلمت ، قال في تفسير الآية : والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده ، ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده ، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف ، فلذلك قلنا : إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره . انتهى .

ووجوه التحكم فيه غنية عن البيان .

وتقديم الجن في الذكر على الإنس والطير لكون تسخيرهم ودخولهم تحت الطاعة عجباً ، وذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضاً عجباً رعاية لأمر المقابلة بين الجن والإنس .

قوله تعالى : ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾ الآية ، ﴿حتى﴾ غاية لما يفهم من الآية السابقة ، وضمير الجمع لسليمان وجنوده ، وتعدية الإتيان بعلى قيل : لكون الإتيان من فوق ، ووادي النمل واد بالشام على ما قيل ، وقيل : في أرض الطائف ،

وقيل : في أقص اليمن ، والحطم الكسر .

والمعنى : فلما سار سليمان وجنوده حتى أتوا على وادي النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنكم سليمان وجنوده أي لا يطأنكم بأقدامهم وهم لا يشعرون . وفيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض .

قوله تعالى : ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها ﴾ إلى آخر الآية ، قيل : التبسم دون الضحك ، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازاً .

ولا منافاة بين قوله ﷺ : ﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ وبين فهمه كلام النملة إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان أو كلام بعضها كالنملة .

وقد تسلم جمع منهم دلالة قوله : ﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ على نفي ما عداه فتكلفوا في توجيه فهمه ﷺ قول النملة تارة بأنه كانت قضية في واقعة ، وأخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير ، وثالثة بأن كلامها كان من معجزات سليمان ﷺ ، ورابعة بأنه ﷺ لم يسمع منها صوتاً قط وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى هذا .

وما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام . على أن سياق الآيات وحده كافٍ في دفعها .

وقوله : ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ الإيزاع الإلهام . تبسم ﷺ مبتهجاً مسروراً بما أنعم الله عليه حتى أوقفه هذا الموقف وهي النبوة والعلم بمنطق الحيوان والملك والجنود من الجنّ والإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بما فيه رضاه سبحانه .

وقد جعل الشكر للنعمة التي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصة به ، وللنعمة التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوة والملك والحكمة وفصل الخطاب وغيرها وأنعم على أمه حيث زوّجها من داود النبي ورزقها سليمان النبي وجعلها من أهل بيت النبوة .

وفي كلامه هذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم

الله عليهم^(١) وهم إحدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى : ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾^(٢) .

وقوله : ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ عطف على قوله : ﴿أن أشكر نعمتك﴾ ومسألته هذه : ﴿أوزعني أن أعمل﴾ الخ ، أمر أرفع قدراً وأعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجية بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والإيزاع الذي سألته دعوة باطنية في الإنسان إلى السعادة ، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذي أكرم الله به إبراهيم وآله فيما يخبر عنه بقوله : ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾^(٣) ، وهو التأييد بروح القدس على ما مر في تفسير الآية .

وقوله : ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي اجعلني منهم ، وهذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات وهو صلاح النفس في جوهرها الذي يستعد به لقبول أي كرامة إلهية .

ومن المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدراً من صلاح العمل ففي قوله : ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ تدرّج في المسألة من الأدنى إلى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوباً إلى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات ولذا سأل صلاح الذات من ربه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل .

وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيذان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب وأغزرها العبودية وقد وصفه الله بها في قوله : ﴿نعم العبد إنه أواب﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ قال الراغب : التفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء والتعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالى : ﴿وتفقد الطير﴾ . انتهى .

(١) وفيه تبرئة ساحتها عما في التوراة الدائرة ففي التوراة أنها كانت امرأة أوريا فجرها داود ثم كاد في قتل أوريا فقتل في بعض الحروب فأدخلها في أزواجه فولدت له سليمان .

استفهم أولاً متعجباً من حال نفسه إذ لا يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكله ويستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته .

والمعنى : ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمة لموكبي بل أكان من الغائبين .

قوله تعالى : ﴿لَاعَذِبْنَهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^١ اللامات للقسم والسلطان المبين البرهان الواضح ، يقضي ^{ثلاثة} على الهدهد أحد ثلاث خصال : العذاب الشديد والذبح وفيهما شقاؤه ، والإتيان بحجة واضحة وفيه خلاصه ونجاته .

قوله تعالى : ﴿فَمَكَثْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَمِينٍ﴾ ضمير ﴿فمكث﴾ لسليمان ويحتمل أن يكون للهدهد ويؤيد الأول سابق السياق والثاني لاحقه ، والمراد بالإحاطة العلم الكامل ، وقوله : ﴿وجئتُك﴾ الخ ، بمنزلة عطف التفسير لقوله : ﴿أحطت﴾ الخ ، وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يومئذ والنبا الخبر الذي له أهمية ، واليقين ما لا شك فيه .

والمعنى : فمكث سليمان - أو فمكث الهدهد - زماناً غير بعيد - ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاقبه - فقال أحطت من العلم بما لم تحط به وجئتُك من سبأ بخبر مهم لا شك فيه .

ومنه يظهر أن في الآية حذفاً وإيجازاً ، وقد قيل : إن في قول الهدهد : ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ كسراً لسورة سليمان ^{ثلاثة} فيما شدد عليه .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾^٢ الضمير في ﴿تملكهم﴾ لأهل سبأ وما يتبعها وقوله : ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ وصف لسعة ملكها وعظمتها وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنود مجندة ورعية مطيعة ، وخصّ بالذكر من بينها عرشها العظيم .

قوله تعالى : ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الخ ، أي إنهم من عبدة الشمس من الوثنيين .

وقوله : ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ بمنزلة عطف التفسير لما سبقه وهو مع ذلك توطئة لقوله بعد : ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ لأن تزوين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم وسائر تقرباتهم هو الذي صرفهم عن سبيل الله وهي عبادته وحده .

وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها إليه تعالى إشارة إلى أنها السبيل المتعينة للسبيلية بنفسها للإنسان بالنظر إلى فطرته بل لكل شيء بالنظر إلى الخلقة العامة .

وقوله : ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ تفريع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء ، فافهمه .

قوله تعالى : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ القراءة الدائرة ﴿ألا﴾ - بتشديد اللام - مؤلف من «أن ولا» وهو عطف بيان من ﴿أعمالهم﴾ ، والمعنى : زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله ، وقيل : بتقدير لام التعليل ، والمعنى : زين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله .

والخبء على ما في مجمع البيان المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال : خبأته أخبئه خبأً وما يوجد الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة . انتهى .

ففي قوله : ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استعارة كأن الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحداً بعد آخر فيكون تسمية الإيجاد بعد العدم إخراجاً للخبء قريباً من تسميته بالفطر وتوصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشق كأنه يشق العدم فيخرج الأشياء .

ويمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنه مفتقر إلى بيان موضعه غير هذا الموضع . وقيل : المراد بالخبء الغيب وإخراجه العلم به وهو كما ترى .

وقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالتاء على الخطاب أي يعلم سرّكم وعلايتكم ، وقرأ الأكثرون بالياء على الغيبة وهو أرجح .

وملخص الحجة : إنهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيماً لها على ما أودع

الله سبحانه في طباعها من الآثار الحسنة والتدبير العام للعالم الأرضي وغيره ، والله الذي أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود ومن الغيب إلى الشهادة فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله - ومن جملتها الشمس وتدبيرها - أولى بالتعظيم وأحق أن يسجد له ، مع أنه لا معنى لعبادة ما لا شعور له بها ولا شعور للشمس بسجدهم والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجدة والتعظيم لا غير .

وبهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلواً : ﴿الله لا إله إلا هو﴾ الخ .

قوله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ من تمام كلام الهدهد وهو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمني السابق وإظهار الحق قبال باطلهم ولذا أتى أولاً بالتهليل الدال على توحيد العبادة ثم ضم إليه قوله : ﴿رب العرش العظيم﴾ الدال على انتهاء تدبير الأمر إليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده أزمة الأمور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك .

وفي قوله : ﴿رب العرش العظيم﴾ مناسبة محاذاة أخرى مع قوله في وصف ملكة سبأ : ﴿ولها عرش عظيم﴾ ولعل قول الهدهد هذا هو الذي دعا - أو هو من جملة ما دعا - سليمان عليه السلام أن يأمر أن يأتوا بعرشها إليه ليخضع لعظمة ربه كل عظمة .

قوله تعالى : ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ الضمير لسليمان عليه السلام . أحال القضاء في أمر الهدهد إلى المستقبل فلم يصدقه في قوله لعدم بيّنة عليه بعد ولم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده أن يجرب ويتأمل .

قوله تعالى : ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ حكاية قول سليمان خطاباً للهدهد كأنه قيل : فكتب سليمان كتاباً قال للهدهد : اذهب بكتابي هذا إليهم أي إلى ملكة سبأ وملاها فألقه إليهم ثم تول عنهم أي تنح عنهم وقع في مكان تراههم فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه .

وقوله : ﴿فألقه﴾ بسكون الهاء وصللاً ووقفاً في جميع القراءات وهي هاء السكت ، ومما قيل في الآية : إن قوله ﴿ثم تول عنهم فانظر﴾ الخ ، من قبيل التقديم والتأخير والأصل فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم . وهو كما ترى .

قوله تعالى : ﴿قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فأخذ الهدد الكتاب وحمله إلى ملكة سبأ حتى إذا أتتها ألقاه إليها فأخذتها ولما قرأتها قالت لملاها وأشرف قومها يا أيها الملوؤ «الخ» .

فقوله : ﴿قالت يا أيها الملوؤ إني ألقى إليّ كتاب كريم﴾ حكاية ذكرها لملاها أمر الكتاب وكيفية وصوله إليها ومضمونه ، وقد عظّمته إذ وصفته بالكرم .

وقوله : ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي والسبب فيه أنه من سليمان ولم يكد يخفي عليها جبروت سليمان وما أوتيته من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد : ﴿وأوتينا العلم من قبله وكنا مسلمين﴾ .

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم : أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يروونه رب الأرباب وإن لم يعبدوه ، وعبدوا الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظمونه ويعظمون صفاته وإن كانوا يفسرون الصفات بنفي النقائص والأعدام فيفسرون العلم والقدرة والحياة والرحمة مثلاً بانتفاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً ، كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً ، وعلى هذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله : ﴿أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾ وأن مفسرة .

ومن العجيب ما عن جمع من المفسرين أن قوله : ﴿إنه من سليمان﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدّر كأنه قيل : ممن الكتاب وماذا فيه فقالت : إنه من سليمان الخ ، وعلى هذا يكون قوله : وإنه بسم الله بياناً للكتاب أي لمتنه وأن الكتاب هو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾ .

ويتوجه عليهم أولاً : وقوع لفظة أن زائدة لا فائدة لها ولذا قال بعضهم : إنها مصدرية و﴿لا﴾ نافية لا ناهية وهو وجه سخيف كما سيأتي .

وثانياً : بيان الوجه في كون الكتاب كريماً فقيل : وجه كرامته أنه كان مختوماً ففي الحديث : إكرام الكتاب ختمه حتى ادّعى بعضهم أن معنى كرامة الكتاب ختمه ، يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته ، وقيل : إنها سمته كريماً لجودة

خطه وحسن بيانه ، وقيل : لوصوله إليها على منهاج غير عادي ، وقيل : لظنها بسبب إلقاء الطير أنه كتاب سماوي إلى غير ذلك من الوجوه .

وأنت خير بأنها تحكمات غير مقنعة ، والظاهر أن الذي أوقعهم فيما وقعوا حملهم قوله : ﴿ وإنه بسم الله ﴾ إلى قوله ﴿ مسلمين ﴾ على حكاية متن الكتاب وذلك ينافي حمل قوله : ﴿ وإنه من سليمان وإنه بسم الله ﴾ الخ ، على تعليل كرامة الكتاب ويدفعه أن ظاهر أن المفسرة في قوله : ﴿ أن لا تعلوا علي ﴾ الخ ، أنه نقل لمعنى الكتاب ومضمونه لا حكاية متنه فمحصل الآيتين أن الكتاب كان مبدؤاً بسم الله الرحمن الرحيم وأن مضمونه النهي عن العلو عليه والأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلاً .

قوله تعالى : ﴿ أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾ أن مفسرة تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة إليه .

وقول بعضهم : إنها مصدرية و ﴿ لا ﴾ نافية أي عدم علوكم علي ، سخيف لاستلزامه أولاً : تقدير مبتدأ أو خبر محذوف من غير موجب ، ثانياً : عطف الإنشاء وهو قوله : ﴿ وأتوني ﴾ على الإخبار .

والمراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه ، وبقوله : ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله : ﴿ أن لا تعلوا علي ﴾ دون الإسلام بالمعنى المصطلح وهو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية ، ولو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال : أن لا تعلوا على الله .

وكون سليمان عليه السلام نبياً شأنه الدعوة إلى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً وكانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم وقد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي ، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور وهذا استشارة منها لهم تقول : أشيروا علي في هذا الأمر الذي واجهته - وهو الذي يشير إليه كتاب سليمان - وإنما أستشيركم فيه لأنني لم أكن حتى

اليوم أستبد برأيي في الأمور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم .

فالآية تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملاها بعد الفصل الأول الذي أخبرتهم فيه بكتاب سليمان عليه السلام وكيفية وصوله وما فيه .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ القوة ما يتقوى به على المطلوب وهي ههنا الجند الذي يتقوى به على دفع العدو وقتاله ، والبأس الشدة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة .

والآية تتضمن جواب الملا لها يسمعونها أولاً ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون : طيبي نفساً ولا تحزني فإن لنا من القوة والشدة ما لا نهاب به عدواً وإن كان هو سليمان ثم الأمر إليك مري بما شئت فنحن مطيعوك .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ إفساد القرى تخريبها وإحراقها وهدم أبينتها ، وإذلال أعزة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكم .

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين - زيادة التبصر في أمر سليمان عليه السلام بأن ترسل إليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوته وملكه فيخبر الملكة بما رأى حتى تصمم هي العزم على أحد الأمرين : الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملا حيث بدأوا في الكلام معها بقولهم نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، أنهم يميلون إلى القتال لذلك أخذت أولاً تدم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت : ﴿إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ الخ ، أي إن الحرب لا تنتهي إلا إلى غلبة أحد المتحاربين وفيها فساد القرى وذلة أعزتها فليس من الحزم الإقدام عليها مع قوة العدو وشوكته مهما كان إلى السلم والصلح سبيل إلا لضرورة ورأي الذي أراه أن أرسل إليهم بهدية ثم أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب أو السلم .

فقوله : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا﴾ الخ ، توطئة لقوله بعد : ﴿وَإِنِّي مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظُرُهُمْ﴾ الخ .

وقوله : ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أبلغ وأكد من قولنا مثلاً : استذلوا أعزتها لأنه مع الدلالة على تحقق الذلة يدل على تلبسهم بصفة الذلة .

وقوله : ﴿وكذلك يفعلون﴾ مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله : ﴿أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ على أصل الوقوع ، وقيل : إن الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبأ ، وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق .

قوله تعالى : ﴿وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ أي مرسله إلى سليمان وهذا نوع من التجبر والاعتزاز الملوكي تصون لسانها عن اسمه وتنسب الأمر إليه وإلى من معه جميعاً وأيضاً تشير به إلى أنه يفعل ما يفعل بأيدي أعضاده وجنوده وإمداد رعيته .

وقوله : ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ أي حتى اعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال وهذا - كما تقدم - هو رأي ملكة سبأ ، ويعلم من قوله : ﴿المرسلون﴾ أن الحامل للهدية كان جمعاً من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد : ﴿ارجع إليهم﴾ أنه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم .

قوله تعالى : ﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ ضمير جاء للمال الذي أهدي إليه أو للرسول الذي جاء بالهدية .

والاستفهام في قوله : ﴿أتمدونن بمال﴾ للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب ، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم : ﴿وإني مرسله إليهم بهدية﴾ كما أشرنا إليه .

وجوز أن يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ إليهم خاصة ، وتنكير المال للتحقير ، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوة .

والمعنى : أتمدونني بمال حقير لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوة والملك والثروة خير مما آتاكم .

وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدَيْتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أي إن إمدادكم إياي بمال لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله قبيح وفرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح .

وقيل : المراد بهديتكم الهدية التي تهدي إليكم ، والمعنى : بل أنتم تفرحون بما يهدي إليكم من الهدية لحبكم زيادة المال وأما أنا فلا أعتد بمال الدنيا هذا . ويُعبده ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بَجُنُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الخطاب لرئيس المرسلين ، وضماثر الجمع راجعة إلى ملكة سبأ وقومها ، والقبل الطاقة ، وضمير ﴿بها﴾ لسبأ ، وقوله : ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ تأكيد لما قبله ، واللام في ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ و ﴿لَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾ للقسَم .

لما كان ظاهر تبديلهم أمثال أمره - وهو قوله : ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ - من إرسال الهدية هو الاستنكاف عن الإسلام قَدَّر بحسب المقام أنهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها ولذلك فَرَّع إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ الخ ، ولم يقل : ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينهم الخ ، وإن كان مرجع المعنى إليه فإن إرسال الجنود وإخراجهم من سبأ على حال الذلة كان مشروطاً به على أي حال .
والسياق يشهد أنه ^{بالتلخيص} رُدَّ إليهم هديتهم ولم يقبلها منهم .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ كلام تكلم به بعد رد الهدية وإرجاع الرسل ، وفيه إخباره أنهم سيأتونه مسلمين وإنما أراد الإتيان بعرضها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربه ومعجزة باهرة لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له ويستفاد ذلك من الآيات التالية .

قوله تعالى : ﴿قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ العفريت - على ما قيل - المارد الخبيث ، وقوله : ﴿آتِيكَ بِهِ﴾ اسم فاعل أو فعل مضارع من الإتيان ، والأول أنسب للسياق لدلالته على التلبس بالفعل وكونه أنسب لعطف قوله : ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ الخ ، وهو جملة اسمية عليه . كذا قيل .

وقوله : ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرشها لقوي لا يثقل عليّ حملة ولا يجهدني نقله ، أمين لا أخونك في هذا الأمر .

قوله تعالى : ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك﴾ مقابلته لمن قبله دليل على أنه كان من الإنس ، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه ، وقيل : هو الخضر ، وقيل : رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، وقيل : جبريل ، وقيل : هو سليمان نفسه ، وهي وجوه لا دليل على شيء منها .

وأياً ما كان وأي من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها إليه في أقل من طرفة العين ، وقد اعتنى بشأن عمله أيضاً إذ نكر فقليل : علم من الكتاب أي علم لا يحتمل اللفظ وصفه .

والمراد بالكتاب الذي هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماوية أو اللوح المحفوظ ، والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علماً يسهل له الوصول إلى هذه البغية وقد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، وربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحي القيوم ، وقيل : ذو الجلال والإكرام ، وقيل : الله الرحمان ، وقيل : هو بالعبرانية آهياً شراهياً ، وقيل : إنه دعا بقوله : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت إيتني بعرشها . إلى غير ذلك مما قيل .

وقد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذي له التصرف في كل شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم التي تدل عليها وتكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسم له هذا الشأن أو بعض هذا الشأن فهو حقيقة الاسم الخارجية التي ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعاً من الانطباق وهي الاسم حقيقة واللفظ الدال عليها اسم الاسم .

ولم يرد في لفظ الآية نبأ من هذا الاسم الذي ذكره بل الذي تتضمنه الآية أنه كان عنده علم من الكتاب ، وأنه قال : أنا آتيك به ، ومن المعلوم مع ذلك أن الفعل فعل الله حقيقة ، وبذلك كله يتحصل أنه كان له من العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربه شيئاً بالتوجه إليه لم يتخلف عن الاستجابة وإن شئت فقل : إذا شاء الله سبحانه .

ويتبين مما تقدم أيضاً أن هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكرية التي تقبل الاكتساب والتعلم .

وقوله : ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ الطرف - على ما قيل - اللحظ والنظر وارتداد الطرف وصول المنظور إليه إلى النفس وعلم الإنسان به ، فالمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به .

وقيل : الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر ، وارتداده هو انضمامها ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد فقليل : قبل أن يرتد إليك طرفك ولم يقل : قبل أن يرد . هذا .

وقد أخطأ فالطرف كالتنفس من أفعال الإنسان الاختيارية غير أن الذي يبعث إليه هو الطبيعة كما في التنفس ولذلك لا يحتاج في صدوره إلى ترو سابق كما يحتاج إليه في أمثال الأكل والشرب ، فالفعل الاختياري ما يرتبط إلى إرادة الإنسان وهو أعم مما يسبقه التروي ، والذي أوقع هذا القائل فيما وقع ظنه التساوي بين الفعل الصادر عن اختيار والصادر عن ترو ، ولعل النكتة في إثارة الارتداد على الرد هي أن الفعل لعدم توقفه على التروي كأنه يقع بنفسه لا عن مشيئة من اللاحظ .

والخطاب في قوله : ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ لسليمان عليه السلام فهو الذي يريد الإتيان به إليه وهو الذي يراد الإتيان به إليه .

وقيل : الخطاب للعفريت القائل : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك والمراد بالذي عنده علم من الكتاب عند هذا القائل هو سليمان ، وإنما قاله له إظهاراً لفضل النبوة وأن الذي أقدره الله عليه بتعليمه علماً من الكتاب أعظم مما يتبجح به العفريت من القدرة ، فالمعنى : قال سليمان للعفريت لما قال ما قال : أنا آتيك بالعرش قبل ارتداد طرفك .

وقد أصر في التفسير الكبير على هذا القول وأورد لتأييده وجوهاً وهي وجوه ردية وأصل القول لا يلائم السياق كما أومأنا إليه .

قوله تعالى : ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ إلى آخر الآية ، أي لما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال هذا ، أي حضور العرش واستقراره عندي في أقل من طرفة العين من فضل ربي من غير استحقاق مني

ليبلوني أي يمتحنني أشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أي يعود نفعه إليه لا إلى ربي ومن كفر فلم يشكر فإن ربي غني كريم - وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل - .

وقيل : المشار إليه بقوله : ﴿هذا﴾ هو التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات .

وفيه أن ظاهر قوله : ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال﴾ الخ ، أن هذا الشئ مرتبط بحال الرؤية والذي في حال الرؤية هو حضور العرش عنده دون التمكن من الإحضار الذي كان متحققاً منذ زمان .

وفي الكلام حذف وإيجاز ، والتقدير فأذن له سليمان في الإتيان به كذلك فأتى به كما قال : ﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾ وفي حذف ما حذف دلالة بالغة على سرعة العمل كأنه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك وبين رؤيته مستقراً عنده فصل أصلاً .

قوله تعالى : ﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ قال في المفردات : تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف ، قال تعالى : ﴿قال نكروا لها عرشها﴾ وتعريفه جعله بحيث يعرف . انتهى .

والسياق يدل على أن سليمان عليه السلام إنما قاله حينما قصده ملكة سبأ وملأها لما دخلوا عليه ، وإنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوته لها ، ولذا أمر بتنكير العرش ثم رتب عليه قوله : ﴿ننظر أتهتدي﴾ الخ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ أي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان : ﴿أهكذا عرشك﴾ وهو كلمة اختبار .

ولم يقل : أهذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل : أهكذا عرشك ؟ فاستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار إليه في هيئته وصفاته ، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير .

وقوله : ﴿قالت كأنه هو﴾ المراد به أنه هو وإنما عبرت بلفظ التشبيه تحريزاً من

الطيش والمبادرة إلى التصديق من غير تثبت ، ويكنى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالباً بالتشبيه .

وقوله : ﴿وَأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ ضمير ﴿قبلها﴾ لهذه الآية أي الإتيان بالعرش أو لهذه الحالة أي رؤيتها له بعدما جاءت ، وظاهر السياق أنها تنمة كلام الملكة فهي لما رأت العرش وسئلت عن امره أحست أن ذلك منهم تلويح إلى ما أتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها : ﴿وَأوتينا العلم من قبلها﴾ الخ ، أي لا حاجة إلى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية أو هذه الحالة وكنا مسلمين لسليمان طائعين له .

وقيل : قوله : ﴿وَأوتينا العلم﴾ الخ ، من كلام سليمان ، وقيل : من كلام قوم سليمان ، وقيل من كلام الملكة ، لكن المعنى وأوتينا العلم بإتيان العرش قبل هذه الحال - وهي جميعاً وجوه ردية - .

قوله تعالى : ﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾ الصد : المنع والصرف ، ومتعلق الصد الإسلام لله وهو الذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، وأما قولها في الآية السابقة : ﴿وكنا مسلمين﴾ فهو إسلامها وانقيادها لسليمان ^{عليه السلام} .

هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه أخر في معنى الآية أضربنا عنها .

وقوله : ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ في مقام التعليل للصد ، والمعنى : ومنعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدم في نبأ الهدهد والسبب فيه أنها كانت من قوم كافرين فاتبعتهم في كفرهم .

قوله تعالى : ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ إلى آخر الآية ، الصرح هو القصر وكل بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف ، واللجة المعظم من الماء والممرد اسم مفعول من التمريد وهو التمليس ، والقوارير الزجاج .

وقوله : ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ كأن القائل بعض خدام سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها إلى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك والعظماء على أمثالهم .

وقوله : ﴿فلما رآته حسبه لجة وكشفت عن ساقيه﴾ أي لما رأت الصرح ظنت أنه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء وكشفت عن ساقيه بجمع ثيابها لثلاث تبل بالماء أذيالها .

وقوله : ﴿قال إنه صرح ممرد من قوارير﴾ القائل هو سليمان نبهها أنه ليس بلجة بل صرح ممسك من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد كانت رأت سابقاً ما رأت من أمر هدهد ورد الهدية والإتيان بعرشها لم تشك أن ذلك من آيات نبوته من غير أن يؤتى بحزم أو تدبير وقالت عند ذلك : رب إنني ظلمت نفسي الخ .

وقوله : ﴿قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ ، استغاثت أولاً بربها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبد الله من بدء أو من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان .

وفي قوله : ﴿وأسلمت مع سليمان لله﴾ التفات بالنسبة إليه تعالى من الخطاب إلى الغيبة ووجه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت : رب إنني ظلمت نفسي إلى التوحيد الصريح فإنها تشهد أن إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان وهو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين وهو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العبادة الذي لا يقول به مشرك .

(كلام في قصة سليمان عليه السلام)

١ - ما ورد من قصصه في القرآن : لم يرد من قصصه عليه السلام في القرآن الكريم إلا نبذة يسيرة غير أن التدبر فيها يهدي إلى عامة قصصه ومظاهر شخصيته الشريفة .

منها : وراثته لأبيه داود قال تعالى : ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ (١) ، وقال ﴿وورث سليمان داود﴾ (٢) .

ومنها : إيتاؤه الملك العظيم وتسخير الجن والطير والريح له وتعليمه منطق الطير

(١) ص : ٣٠ .

(٢) النمل : ١٦ .

وقد تكرر ذكر هذه النعم في كلامه تعالى كما في سورة البقرة الآية ١٠٢ والأنبياء الآية ٨١ ، والنمل الآية ١٦ - ١٨ ، وسبأ الآية ١٢ - ١٣ وص الآية ٣٥ - ٣٩ .

ومنها : الإشارة إلى قصة إلقاء جسد على كرسيه كما في سورة ص الآية ٣٣ .

ومنها : الإشارة إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما في سورة ص الآية ٣١ - ٣٣ .

ومنها : الإشارة إلى تفهيمه الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث كما في سورة الأنبياء الآية ٧٨ - ٧٩ .

ومنها : الإشارة إلى حديث النملة كما في سورة النمل الآية ١٨ - ١٩ .

ومنها : قصة الهدهد وما يتبعها من قصته ﷺ مع ملكة سبأ سورة النمل الآية ٢٠ - ٤٤ .

ومنها : الإشارة إلى كيفية موته ﷺ كما في سورة سبأ الآية ١٤ .

وقد أوردنا ما يخص بكل من هذه القصص من الكلام في ذيل الآيات المشيرة إليها الموضوعة في هذا الكتاب .

٢ - الثناء عليه في القرآن : ورد اسمه ﷺ في بضعة عشر موضعاً من كلامه تعالى وقد أكثر الثناء عليه فسماه عبداً أواباً قال تعالى : ﴿نسعم العبد إنه أواب﴾^(١) ، ووصفه بالعلم والحكم قال تعالى : ﴿ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾^(٢) وقال ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾^(٣) وقال : ﴿وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾^(٤) ، وعده من النبيين المهديين قال تعالى : ﴿وايوب ويونس وهارون وسليمان﴾^(٥) وقال : ﴿ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان﴾^(٦) .

٣ - ذكره ﷺ في العهد العتيق : وقعت قصته في كتاب الملوك الأول وقد

(١) النساء : ١٦٣ .

(٢) الأنعام : ٨٤ .

(٣) النمل : ١٥ .

(٤) النمل : ١٦ .

(٥) الأنبياء : ٧٩ .

(٦) النمل : ١٦ .

أطيل فيه في حشمته وجلالة أمره وسعة ملكه ووفور ثروته وبلوغ حكمته غير أنه لم يذكر فيه شيء من قصصه المشار إليها في القرآن إلا ما ذكر أن ملكة سبأ لما سمعت خبر سليمان وبناءه بيت الرب باورشليم وما أوتيته من الحكمة أتت إليه ومعها هدايا كثيرة فلاقته وسألته عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثم رجعت^(١).

وقد أساء العهد العتيق القول فيه عليه السلام فذكر^(٢) أنه عليه السلام انحرف في آخر عمره عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام فسجد لأوثان كانت تعبدتها بعض أزواجه.

وذكر أن والدته كانت زوج أوريا حتي فعشقها داود عليه السلام ففجر بها فحبلت منه فاحتال في قتل زوجها أوريا حتى قتل في بعض الحروب فضمها إلى أزواجه فحبلت منه ثانياً وولدت له سليمان.

والقرآن الكريم ينزهه ساحتهم عليه السلام عن أولى الرميتين بما ينزه به ساحة جميع الأنبياء بالنص على هدايتهم وعصمتهم وقال فيه خاصة : ﴿وما كفر سليمان﴾^(٣).

وعن الثانية بما يحكيه من دعائه عليه السلام لما سمع قول النملة : ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي﴾^(٤) ، فقد بينا في تفسيره أن فيه دلالة على أن والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

٤ - الروايات الواردة في قصصه عليه السلام : الأخبار المروية في قصصه وخاصة في قصة الهدد وما يتبعها من أخباره مع ملكة سبأ يتضمن أكثرها أموراً غريبة قلماً يوجد نظائرها في الأساطير الخرافية يأبأها العقل السليم ويكذبها التاريخ القطعي وأكثرها مبالغة ما روي عن أمثال كعب ووهب.

وقد بلغوا من المبالغة أن ما رويوا أنه عليه السلام ملك جميع الأرض ، وكان ملكه سبعمائة سنة ، وأن جميع الإنس والجن والوحش والطير كانوا جنوده ، وأنه كان

(١) الاصحاح العاشر من الملوك الأول.

(٢) الاصحاح الحادي عشر والثاني عشر من كتاب صموئيل الثاني.

(٣) البقرة : ١٠٢.

(٤) النمل : ١٩.

يوضع في مجلسه حول عرشه ستمائة ألف كرسي يجلس عليها ألوف من النبيين ومئات الألوف من أمراء الإنس والجن .

وأن ملكة سبا كانت أمها من الجن ، وكانت قدمها كحافر الحمامة وكانت تستر قدميها عن أعين النظار حتى كشفت عن ساقها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها ، وقد بلغ من شوكتها أنه كان تحت يدها الأربعمئة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربعمئة ألف مقاتل ولها ثلاثمئة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار التي لا يسعنا إلا أن نعدّها من الإسرائيليات ونصفح عنها^(١) .

(بحث روائي)

في الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك وبلغها ذلك جاءت إليه وقالت له : يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً أفعلني عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : وورث سليمان داود . الحديث .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يحبس أولهم على آخرهم .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال : والناظرة في بعض اللغة هي المنتظرة ألم تسمع إلى قوله : ﴿ فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

وفي البصائر بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن اسم الله الأعظم على ثلاث وسبعين حرفاً وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت

(١) وعلى من يريد الوقوف عليها أن يراجع جوامع الأخبار كالدر المشور والعرائس والبحار ومطولات التفاسير .

أسرع من طرفة عين ، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أقول : وروى هذا المعنى أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه في الكافي عن جابر عن أبي جعفر وعن النوفلي عن أبي الحسن صاحب العسكر عليهما السلام .

وقوله : «إن الاسم الأعظم كذا حرفاً وكان عند آصف حرف تكلم به» لا ينافي ما قدمنا أن هذا الاسم ليس من قبيل الألفاظ فإن نفس هذا السياق يدل على أن المراد بالحرف غير الحرف اللفظي والتعبير به من جهة أن المعهود عند الناس من الاسم الاسم اللفظي المؤلف من الحروف الملفوظة .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ذكر في ذلك وجوه - إلى أن قال - والخامس أن الأرض طويت له وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : وما رواه من الطي لا يغير ما تقدمت روايته من الخسف .

والذي نقله من الوجوه الأخر خمسة :

أحدها : أن الملائكة حملته إليه .

الثاني : أن الريح حملته .

الثالث : أن الله خلق فيه حركات متوالية .

الرابع : أنه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان .

الخامس : أن الله أعدمه في موضعه وأعادته في مجلس سليمان .

وهناك وجه آخر ذكره بعضهم وهو أن الوجود بتجدد الأمثال بإيجاده وقد أفاض الله الوجود لعرشها في سبأ ثم في الآن التالي عند سليمان . وهذه الوجوه بين ممتنع كالخامس وبين ما لا دليل عليه كالباقي .

وفيه وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال : التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم فسأله . قال : فدخلت على أخي علي بن محمد عليه السلام إذ دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له : جعلت فداك إن ابن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها فضحك ثم قال : هل أفتيه فيها قلت :

لا . قال : ولم ؟ قلت : لم أعرفها قال : ما هي ؟ قلت : قال : أخبرني عن سليمان أكان محتاجاً إلى علم آصف بن برخيا ؟ ثم ذكرت المسائل الأخر .

قال : اكتب يا أخي بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنه أحب أن تعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود ليعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق .

أقول : وأورد الرواية في روح المعاني عن المجمع ثم قال : وهو كما ترى انتهى ولا ترى لاعتراضه هذا وجهاً غير أنه رأى حديث الإمامة فيها فلم يعجبه .

وفي نور الثقلين عن الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : كن لما لا ترجو أرحى منك لما ترجو - إلى أن قال - وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه السلام .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) .

(بيان)

إجمال من قصة صالح النبي ﷺ وقومه ، وجانب الإنذار في الآيات يغلب على جانب التبشير كما تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ إلى قوله ﴿ يختصمون ﴾ الاختصام والتخاصم التنازع وتوصيف التثنية بالجمع أعني قوله : ﴿ فريقان ﴾ بقوله : ﴿ يختصمون ﴾ لكون المراد بالفريقين مجموع الأمة و ﴿ إذا ﴾ فجائية .

والمعنى : وأقسم لقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم ونسيهم صالحاً وكان المرجو أن يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن وكافر يختصمون ويتنازعون في الحق كل يقول : الحق معي ، ولعل المراد باختصامهم ما حكاه الله عنهم في موضع آخر بقوله : ﴿ قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ (١) .

ومن هنا يظهر أن أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به والآخر المستكبرون وباقي المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم .

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ الخ الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة المبادرة إلى سؤال العذاب قبل الرحمة التي سببها الإيمان والاستغفار .

وبه يظهر أن صالحاً ﷺ إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقة وقالوا له : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ تحضيضاً إلى الإيمان والتوبة لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعداً غير مكذوب .

قوله تعالى : ﴿ قالوا طيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ الخ التطير هو التشأم ، وكانوا يتشأمون كثيراً بالطير ولذا سموا التشأم . تطيراً ونصيب الإنسان من الشر طائراً كما قيل .

فقولهم خطاباً لصالح : ﴿أطيرنا بك وبمن معك﴾ أي تشأمننا بك وبمن معك ممن آمن بك ولزمتك لما أن قيامك بالدعوة وإيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن والبلايا فلسنا نؤمن بك .

وقوله خطاباً للقوم : ﴿طائركم عند الله﴾ أي نصيبكم من الشر وهو الذي تستوجه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه .

ولذا أضرب عن قوله : ﴿طائركم عند الله﴾ بقوله : ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي تختبرون بالخير والشر ليمتاز مؤمنكم من كافرينكم ومطيعكم من عاصيكم .

ومعنى الآية : قال القوم : تطيرنا بك يا صالح وبمن معك فلن نؤمن ولن نستغفر قال صالح : طائركم الذي فيه نصيبكم من الشر عند الله وهو كتاب أعمالكم ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتى نسوق إليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون وتمتحنون بهذه الأمور ليمتاز مؤمنكم من كافرينكم ومطيعكم من عاصيكم .

وربما قيل : إن الطائر هو السبب الذي منه يصيب الإنسان ما يصيبه من الخير والشر ، فإنهم كما كانوا يتشأمون بالطير كانوا أيضاً يتيمنون به والطائر عندهم الأمر الذي يستقبل الإنسان بالخير والشر كما في قوله تعالى : ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً﴾^(١) ، وإذ كان ما يستقبل الإنسان من خير أو شر هو بقضاء من الله سبحانه مكتوب في كتاب فالطائر هو الكتاب المحفوظ فيه ما قدر للإنسان .

وفيه أن ظاهر ذيل آية الإسراء أن المراد بالطائر هو كتاب الأعمال دون كتاب القضاء كما يدل عليه قوله : ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيماً﴾ .

وقيل : معنى ﴿بل أنتم تفتنون﴾ أي تعذبون ، وما ذكرناه أولاً أنسب .

قوله تعالى : ﴿وكان في المدينة تسعة رهط﴾ الخ قال الراغب : الرهط العصابة دون العشرة وقيل إلى الأربعين انتهى ، وقيل : الفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة انتهى .

قيل : المراد بالرهط الأشخاص ولذا وقع تمييزاً للتسعة لكونه في معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعة رجال .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ التماس المشاركة في القسم ، والتبئيت القصد بالسوء ليلاً ، وأهل الرجل من يجمعه وإياهم بيت أو نسب أو دين ، ولعل المراد بأهله زوجته وولده بقرينة قوله بعد : ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا﴾ ، وقوله : ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ معطوف على قوله : ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ فيكون من مقول القول .

والمعنى : قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله : لنقتله وأهله بالليل ثم نقول لوليّه إذا عقبنا وطلب الثار : ما شهدنا هلاك أهله وإنا لصادقون في هذا القول ، ونفي مشاهدة مهلك أهله نفي لمشاهدة مهلك نفسه بالملازمة أو الأولوية ، على ما قيل .

وربما قيل : إن قوله : ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ حال من فاعل نقول أي نقول لوليّه كذا والحال أنا صادقون في هذا القول لأننا شهدنا مهلكه وأهله جميعاً لا مهلك أهله فقط .

ولا يخفى ما فيه من التكلف وقد وجهه بوجه آخر أشد تكلفاً منه ولا ملزم لأصل الحالية .

قوله تعالى : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أما مكرهم فهو التواطى على تبئيته وأهله والتقسام بشهادة السياق السابق وأما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعاً بشهادة السياق اللاحق .

قوله تعالى : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ التدمير الإهلاك ، وضمائر الجمع للرهط ، وكون عاقبة مكرهم هو إهلاكهم وقومهم من جهة أن مكرهم استدعى المكر الإلهي على سبيل المجازاة ، واستوجب ذلك إهلاكهم وقومهم .

قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ الخ ، الخاوية الخالية من الخواء بمعنى الخلاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه تبشير للمؤمنين

بالإنجاء ، وقد أردفه بقوله : ﴿وكانوا يتقون﴾ إذ التقوى كالمجن للإيمان وقد قال تعالى : ﴿والعاقبة للمتقين﴾^(١) ، وقال : ﴿والعاقبة للتقوى﴾^(٢) .

* * *

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)
 أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ
 قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا
 مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
 الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

(بيان)

إجمال قصة لوط عليه السلام وهي كسابقتها في غلبة جانب الانذار على جانب التبشير .

قوله تعالى : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ معطوف على موضع ﴿أرسلنا﴾ في القصة السابقة بفعل مضمر والتقدير ولقد أرسلنا لوطاً . كذا قيل ، ويمكن أن يكون معطوفاً على أصل القصة بتقدير اذكر والفاحشة هي الخصلة البالغة في الشناعة والمراد بها اللواط .

وقوله : ﴿وأنتم تبصرون﴾ أي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضاً وينظر بعضكم إلى بعض حين الفحشاء فهو على حد قوله في موضع آخر : ﴿وتأتون في ناديك المنكر﴾^(٣) ، وقيل : المراد إبصار القلب ومحصله العلم بالشناعة وهو بعيد .

(١) الأعراف : ١٢٨ .

(٢) طه : ١٣٣ .

(٣) العنكبوت : ٢٩ .

قوله تعالى : ﴿أَنتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بل أنتم قوم تجهلون ﴿ الاستفهام للإنكار ، ودخول أداتي التأكيد - إن واللام - على الجملة الاستفهامية للدلالة على أن مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدق أحد والجملة على أي حال في محل التفسير للفحشاء .

وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي مستمرّون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم فلستم بمرتدعين ، ووضع ﴿تجهلون﴾ بصيغة الخطاب موضع «يجهلون» من وضع المسبب موضع السبب كأنه قيل : «بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون» .

قوله تعالى : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتزهدون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى : ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) ، وقوله : ﴿قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي جعلناها من الباقيين في العذاب .

قوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ المراد بالمطر الحجارة من سجيل لقوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾^(٢) ، فقوله : ﴿مَطَرًا﴾ يدل بتكثيره على النوعية أي أنزلنا عليهم مطراً له نبا عظيم .

* * *

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ (٥٩) أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ إِنْهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌ لِّهْمُ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

(١) الذاريات : ٣٦ .

(٢) الحجر : ٧٤ .

خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءِإِلَهُ مَعَ
 اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
 وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءِإِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا
 تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ
 الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءِإِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ ءِإِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ
 لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
 يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلْ أَدَارِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا
 بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءِإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَئِنَّا
 لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا
 يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ
 عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي
 إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ
 لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

(بيان)

انتقال من القصص التي قصها سبحانه وهي نماذج من سته الجارية في النوع الإنساني من حيث هدايته وإراءته لهم طريق سعادتهم في الحياة وإكرامه من اهتدى منهم إلى الصراط المستقيم بالاصطفاء وعظيم الآلاء وأخذه من أشرك به وأعرض عن ذكره ومكر به بعذاب الاستئصال وأليم النكال .

إلى حمده والسلام على عباده المصطفين وتقرير أنه هو المستحق للعبودية دون غيره مما يشركون ثم سرد الحديث في التوحيد وإثبات المعاد وما يناسب ذلك من متفرقات المعارف الحققة فسياق آيات السورة شبيه بما في سورة مريم من السياق على ما مر .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَ مَا يَشْرِكُونَ ﴾ لما قص من قصص الأنبياء وأمهم ما قص وفيها بيان سته الجارية في الأمن الماضين وما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان كما في الأنبياء منهم وما فعل بالكافرين من العذاب والتدمير - ولم يفعل إلا الخير الجميل ولا جرت سته إلا على الحكمة البالغة - انتقل منها إلى أمر نبيه بأن يحمده ويشني عليه وإن يسلم على المصطفين من عباده وقرر أنه تعالى هو المتعين للعبادة .

فهو انتقال من القصص إلى التحميد والتسليم والتوحيد وليس باستنتاج وإن كان في حكمه وإلا قيل : فقل الحمد لله « الخ » أو فالحمد خير « الخ » .

فقوله : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أمر بتحميده وفيه إرجاع كل حمد إليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقة أن مرجع كل خلق وتدبير إليه وهو المفيض كل خير بحكمته والفاعل لكل جميل بقدرته .

وقوله : ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ معطوف على ما قبله من مقول القول وفي التسليم لأولئك العباد المصطفين نفي كل ما في نفس المسلم من جهات التمانع والتضاد لما عندهم من الهداية الإلهية وآثارها الجميلة - على ما يقتضيه معنى السلام - ففي الأمر بالسلام أمر ضمني بالتهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى وآثاره فهو بوجه في معنى قوله تعالى : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^(١) ، فافهمه .

وقوله : ﴿إله خير أما يشركون﴾ من تمام الخطاب للنبي ﷺ والاستفهام للتقرير ومحصل المراد أنه إذا كان الثناء كله لله وهو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم ولا خلق ولا تدبير لهم يحمدون عليه ولا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم .

قوله تعالى : ﴿أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء﴾ إلى آخر الآية ، الحقائق جمع حديقة وهي البستان المحدود المحوَّط بالحيطان وذات بهجة صفة حقائق ، قال في مجمع البيان : ذات بهجة أي ذات منظر حسن يتهجج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجماعة ولو أراد تأنيث الأعيان لقال : ذوات . انتهى .

وأم في الآية منقطعة تفيد معنى الاضراب ، و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف وكذا الشق الآخر من التريد والاستفهام للتقرير وحملهم على الإقرار بالحق والتقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات والأرض «الخ» خير أم ما يشركون . والأمر على هذا القياس في الآيات الأربع التالية .

ومعنى الآية : بل أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم أي لنفعمكم من السماء وهي جهة العلو ماء وهو المطر فأنبتنا به أي بذلك الماء بساتين ذات بهجة ونضارة ما كان لكم أي لا تملكون وليس في قدرتكم أن تنبتوا شجرها إله آخر مع الله سبحانه - وهو إنكار وتوبيخ .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب بالنسبة إلى المشركين والنكته فيه تشديد التوبيخ بتبديل الغيبة حضوراً فإن مقام الآيات السابقة على هذه الآية مقام

التكلم ممن يخاطب أحد خواصه بحضرة من عبيده المتمردين المعرضين عن عبوديته يبث إليه الشكوى وهو يسمعهم حتى إذا تمت الحجة وقامت البينة كما في قوله : ﴿ءالله خير أما يشركون﴾ هاج به الوجد والأسف فتوجه إليهم بعد الإعراض فأخذ في حملهم على الإقرار بالحق بذكر آية بعد آية وإنكار شركهم وتوبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره وعدم علم أكثرهم وقلة تذكرهم مع تعاليه عن شركهم وعدم برهان منهم على ما يدعون .

وقوله : ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي عن الحق إلى الباطل وعن الله سبحانه إلى غيره وقيل : أي يعدلون بالله غيره ويساؤون بينهما .

وفي الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إلى المشركين ورجوع إلى خطاب النبي ﷺ والإضراب فيه لبيان أن لا جدوى للسير في حملهم على الحق فإنهم عادلون عنه .

قوله تعالى : ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ إلى آخر الآية ، القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أي القار المستقر ، والخلال جمع خلل بفتحيتين وهو الفرجة بين الشيئين ، والرواسي جمع راسية وهي الثابتة والمراد بها الجبال الثابتات ، والحاجز هو المانع المتخلل بين الشيئين .

والمعنى : بل أمن جعل الأرض مستقرة لا تميد بكم وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً وجعل لها جبلاً ثابتة وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون ؟ والكلام في قوله : ﴿ءإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ كالكلام في نظيره من الآية السابقة .

قوله تعالى : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ المراد بإجابة المضطر إذا دعاه استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم وإنما أخذ وصف الاضطراب ليتحقق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة إذ ما لم يقع الإنسان في مضيقه الاضطراب وكان في مندوحة من المطلوب لم يتمحض منه الطلب وهو ظاهر .

ثم قيده بقوله : ﴿إذا دعاه﴾ للدلالة على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه وإنما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية ويتعلق قلبه

بربه وحده وأما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط أو بالمجموع من ربه ومنها فليس يدعوربه وإنما يدعو غيره .

فإذا صدق في الدعاء وكان مدعو ربه وحده فإنه تعالى يجيبه ويكشف السوء الذي اضطره إلى المسألة كما قال تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ^(١) ، فلم يشترط للاستجابة إلا أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلقاً به وحده ، وقال أيضاً : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ^(٢) ، وقد فصلنا القول في معنى الدعاء في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل الآية .

وبما مر من البيان يظهر فساد قول بعضهم : إن اللام في ﴿ المضطر ﴾ للجنس دون الاستغراق فكم من مضطر يدعو فلا يُجاب فالمراد إجابة دعاء المضطر في الجملة لا بالجملة .

وجه الفساد أن مثل قوله : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وقوله : ﴿ فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ يأبى تخلف الدعاء عن الاستجابة ، وقوله : كم من مضطر يدعو فلا يجاب ، غير مسلم إذا كان دعاء حقيقة لله سبحانه وحده كما تقدم بيانه .

على أن هناك آيات كثيرة تدلّ على أن الإنسان يتوجه عند الاضطرار كركوب السفينة نحو ربه فيدعوه بالإخلاص فيستجاب له كقوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ ^(٣) ، وقوله : ﴿ حتى إذا كتم في الفلك ﴾ إلى قوله ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ ^(٤) ، وكيف يتصور تعلق النفس بتوجهها الغريزي الفطري بأمر لا اطمئنان لها به فما قضاء الفطرة في ذلك إلا كقضائها عند إدراك حاجتها الوجودية إلى من يوجد لها ويدبر أمرها أن هناك أمراً يرفع حاجتها وهو الله سبحانه .

فإن قلت : نحن كثيراً ما نتوسل في حوائجنا من الأسباب الظاهرية بما لا نقطع بفعليته تأثيره في رفع حاجتنا وإنما نتعلق به رجاء أن ينفعنا إن نفع .

(١) المؤمن : ٦٠ .

(٢) البقرة : ١٨٦ .

(٣) يونس : ١٢ .

(٤) يونس : ٢٢ .

قلت : هذا توسل فكري مبدؤه الطمع والرجاء وهو غير التوسل الغريزي الفطري نعم في ضمنه نوع من التوجه الغريزي الفطري وهو التسبب بمطلق السبب ومطلق السبب لا يتخلف ، فافهم .

وظهر أيضاً فساد قول من قال : المراد بالمضطر إذا دعاه المذنب إذا استغفره فإن الله يغفر له وهو إجابته .

وفيه أن إشكال الاستغراق بحاله فما كل استغفار يستتبع المغفرة ولا كل مستغفر يغفر له . على أنه لا دليل على تقييد إطلاق المضطر بالمذنب العاصي .

وذكر بعضهم : أن الاستغراق بحاله لكن ينبغي تقييد الإجابة بالمشيئة كما وقع ذلك في قوله تعالى : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ (١) .

وفيه أن الآية واقعة في سياق لا تصلح معه لتقييد الإجابة في آية المضطر وهو قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ فالساعة من القضاء المحتوم لا يتعلق بكشفها طلب حقيقي ، وأما العذاب الإلهي فإن طلب كشفه بتوبة وإيمان حقيقي فإن الله يكشفه كما كشف عن قوم يونس وإن لم يكن كذلك بل احتيالاً للنجاة منه فلا لعدم كونه طلباً حقيقياً بل مكرراً في صورة الطلب كما حكاه الله عن فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ (٢) ، وحكي عن أقوام آخرين أخذهم بالعذاب : ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ (٣) .

وبالجملة فمورد قوله : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ لما كان مما يمكن أن يكون الطلب فيه حقيقياً أو غير حقيقي كان من اللازم تقييد الكشف والإجابة فيه بالمشيئة فيكشف الله عنهم إن شاء وذلك في مورد حقيقة الطلب والإيمان ولا يكشف إن لم يشأ وهذا غير مورد آية المضطر وسائر آيات إجابة الدعوة الذي يتضمن حقيقة الدعاء من الله سبحانه وحده .

(١) الأنعام : ٤١ .

(٢) يونس : ٩١ .

(٣) الأنبياء : ١٥ .

وقوله : ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ الذي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافة الخلافة الأرضية التي جعلها الله للإنسان يتصرف بها في الأرض وما فيها من الخليفة كيف يشاء كما قال تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(١).

وذلك أن تصرفاته التي يتصرف بها في الأرض وما فيها بخلافته أمور مرتبطة بحياته متعلقة بمعاشه فالسوء الذي يوقعه موقع الاضطراب ويسأل الله كشفه لا محالة شيء من الأشياء التي تمنعه التصرف أو بعض التصرف فيها وتغلق عليه باب الحياة والبقاء وما يتعلق بذلك أو بعض أبوابها ففي كشف سوء عنه تتميم لخلافته .

ويتضح هذا المعنى مزيد اتضاح لو حمل الدعاء والمسألة في قوله : ﴿إذا دعاه﴾ على الأعم من الدعاء اللساني كما هو الظاهر من قوله تعالى : ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾^(٢) ، وقوله : ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾^(٣) ، إذ يكون على هذا جميع ما أوتي الإنسان ورزقه من التصرفات من مصاديق كشف سوء عن المضطر المحتاج إثر دعائه فجعله خليفة يتبع إجابة دعائه وكشف سوء الذي اضطره عنه .

وقيل : المعنى ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض تسكنون مساكنهم وتتصرفون فيها بعدهم هذا . وما قدمناه من المعنى أنسب منه للسياق .

وقيل : المعنى : ويجعلكم خلفاء من الكفار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى بعد شركهم وعنادهم . وفيه أن الخطاب في الآية كسائر الآيات الخمس التي قبلها للكفار لا للمؤمنين كما عليه بناء الوجه .

وقوله : ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ خطاب توبيخي للكفار ، وقرئ «يذكرون» بالياء للغيبة وهو أرجح لموافقته ما في ذيل سائر الآيات الخمس كقوله : ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ وغيرها ، فإن الخطاب فيها جميعاً للنبي ﷺ بطريق الالتفات كما مر بيانه .

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) إبراهيم : ٣٤ .

(٣) الرحمن : ٢٩ .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ الخ ، والمراد بظلمات البر والبحر ظلمات الليالي في البر والبحر ففيه مجاز عقلي ، والمراد بإرسال الرياح بشراً إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله ، والرحمة المطر ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الخ ، بدء الخلق إيجاده ابتداء لأول مرة وإعادته إرجاعه إليه بالبعث وتبكيث المشركين بالبدء والإعادة مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الخ ، بناء على ثبوت المعاد بالأدلة القاطعة في كلامه فاخذ كالمسلم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه في الآيات التالية .

وقيل : المراد ببدء الخلق ثم إعادته إيجاد الواحد من نوعه ثم إهلاكه وإيجاد نظيره بعده وبالجمله إيجاد المثل بعد المثل فلا يرد أن المشركين منكرون للمعاد فكيف يحتج به عليهم . هذا وهو بعيد من ظاهر الآية .

وما يتضمنه الآية من لطائف الحقائق القرآنية يفيد أن لا بطلان في الوجود مطلقاً بل ما أوجده الله تعالى بالبدء سيرجع إليه بالإعادة وما نشاهده من الهلاك فيها فقدان منا له بعد وجدانه .

وأما ما أجمع عليه المتكلمون من امتناع إعادة المعدوم في بعض الموجودات كالاعراض واختلفوا في جواز إعادة بعض آخر كالجواهر ، لا ارتباط له بمسألة البعث على ما تقرره الآية ، فإن البعث ليس من باب إعادة المعدوم حتى يمتنع بامتناع إعادته لو امتنعت بل البعث عود الخلق ورجوعه وهو خلق من غير بطلان إلى ربه المبدئ له .

وقوله : ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء والعود وهو رزقهم بأسباب سماوية كالأمطار وأسبابها الأرضية كعامة ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات .

وقوله : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لما ذكر سبحانه فصولاً مشتملة على عامة الخلق والتدبير مع الإشارة إلى ارتباط التدبير ببعضه ببعض وارتباط الجميع إلى الخلق وعاد الخلق بالتدبير بذلك أمراً واحداً منتسباً إليه قائماً به تعالى وثبت بذلك

أنه تعالى هو رب كل شيء وحده لا شريك له وكان لازم ذلك إبطال ألوهية الآلهة التي يدعونها من دون الله .

- وذلك أن الألوهية وهي استحقاق العبادة تتبع الربوبية التي هي تدبير عن ملك فالعبادة على ما يتداولونها إما لتكون شكراً للنعمة أو اتقاء للنقمة وعلى أي حال ترتبط بالتدبير الذي هو من شؤون الربوبية .

- وكان إبطال ألوهية الآلهة من دون الله هو الغرض من الفصول الموردة في هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول : ﴿ءإله مع الله﴾ .

أمر نبيه ﷺ بقوله : ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعون من ألوهية آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون في دعواهم أذ لو استدلوا على ألوهيتها بشيء كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئاً من تدبير العالم والحال أن جميع الخلق والتدبير له تعالى وحده .

قوله تعالى : ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيا ن يعثون﴾ لما أمره ﷺ بعد إبطال ألوهية آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير إليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانياً أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان ألوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالسعة وأنهم أيا ن يعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن في السماوات والأرض - ومنهم آلهتهم الذين هم الملائكة والجن وقديسوا البشر - الغيب وما يشعرون أيا ن يعثون ، ولو كان آلهة لهم تدبير أمر الخلق - ومن التدبير الجزاء يوم البعث - لعلموا بالساعة .

وقد ظهر بهذا البيان أن قوله : ﴿لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ برهان مستقل على بطلان ألوهية آلهتهم واختصاص الإلوهية به تعالى وحده وأن قوله : ﴿وما يشعرون أيا ن يعثون﴾ من عطف أوضح أفراد الغيب عليه وأهمها علماً بالنسبة إلى أمر التدبير .

وظهر أيضاً أن ضميري الجمع في ﴿وما يشعرون أيا ن يعثون﴾ لمن في السماوات لعدم تمام البيان بدونه .

فقول بعضهم : إن الضمير للمشركون وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لثلاث

يلزم التفكيك بينه وبين الضمائر الآتية الراجعة إليهم قطعاً .

فيه أنه ينافي ما سيقى له الآية الكريمة من البيان كما قدمنا الإشارة إليه والتفكيك بين الضمائر مع وجود القرينة لا بأس به .

قوله تعالى : ﴿بَلْ أَدَارِكْ عَلِمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ أَدَارِكْ فِي الْأَصْلِ تَدَارِكُ وَالتَّدَارِكُ تَتَابَعُ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ بَعْضُهَا بَعْدَ بَعْضٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ وَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ ، وَمَعْنَى تَدَارِكْ عَلِمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ صَرَفُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي غَيْرِهَا حَتَّى نَفَدَ عَلِمَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ يَدْرِكُونَ بِهِ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾^(١) وَ﴿عَمُونَ﴾ جَمْعُ عَمِيَ .

لَمَّا انْتَهَى احْتِجَاجُهُ تَعَالَى إِلَى ذِكْرِ عَدَمِ شُعُورِ أَحَدٍ غَيْرِهِ تَعَالَى بِوَقْتِ الْبَعْثِ وَتَبَكُّيَتِ الْمُشْرِكِينَ بِذَلِكَ رَجَعَ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ وَذَكَرَهُ أَنَّهُمْ فِي مَعْزَلٍ عَنِ الْخُطَابِ بِذَلِكَ إِذْ لَا خَبَرَ لَهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ فَضْلاً عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ صَرَفُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي جِهَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَهُمْ فِي جَهْلٍ مُطْلَقٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أُمُورِ الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْآخِرَةِ يَرْتَابُونَ فِي أَمْرِهَا كَمَا يَظْهَرُ مِنْ احْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَى نَفْيِهَا الْمَبْنِيَةِ عَلَى الْاسْتِبْعَادِ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ وَاللَّهُ أَعْمَى قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّصَدِيقِ بِهَا وَالْإِعْتِقَادِ بِوُجُودِهَا .

وَقَدْ ظَهَرَ بِهَذَا الْبَيَانُ أَنَّ تَكَرَّرَ كَلِمَةُ الْإِضْرَابِ لِبَيَانِ مَرَاتِبِ الْحَرَمَانِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْآخِرَةِ وَأَنَّهُمْ فِي أَعْلَاهَا ، فَقَوْلُهُ : ﴿بَلْ أَدَارِكْ عَلِمَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهَا كَأَنَّهُمْ لَمْ تَقْرَعْ سَمْعَهُمْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أَيُّ أَنَّهُ قَرَعَ سَمْعَهُمْ خَبَرَهَا وَوَرَدَ قُلُوبَهُمْ لَكِنَّهُمْ ارْتَابُوا وَلَمْ يَصْدُقُوا بِهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ أَيُّ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْقَطِعُوا عَنِ الْإِعْتِقَادِ بِهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَبِاخْتِيَارِ مَنْهُمْ بَلَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْمَى أَبْصَارَ قُلُوبِهِمْ فَصَارُوا عَمِينَ فَهِيَ هَاتِ أَنْ يَدْرِكُوا مِنْ أَمْرِهَا شَيْئاً .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِتَدَارِكْ عَلِمَهُمْ تَكَامُلُهُ وَبَلُوغُهُ حَدَّ الْيَقِينِ لِتَكَامُلِ الْحُجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى حَقِّقَةِ الْبَعْثِ وَالْجُمْلَةِ مَسْوَقةً لِلتَّهْكُمِ ، وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَلَاثِمُ مَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْإِضْرَابِ بِالشَّكِّ وَالْعَمَى .

وقوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا ءإذا كنا تراباً وآبأؤنا أثنا لمخرجون﴾ إلى قوله ﴿الأولين﴾ حكاية حجة منهم لنفي البعث مبنية على الاستبعاد أي كيف يمكن أن نخرج من الأرض بشراً تامين كما نحن اليوم وقد متنا وكنا تراباً نحن وآبأؤنا كذلك ؟ .

وقوله : ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآبأؤنا من قبل﴾ حجة أخرى منهم مبنية على الاستبعاد أي لقد وعدنا هذا وهو البعث بعد الموت نحن وآبأؤنا وعُده قبل أن يعدنا هذا النبي والذين وعدوا قبلاً هم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعده به ولو كان خبراً صادقاً ووعداً حقاً لوقع إلى هذا اليوم وإذا لم يقع فهو من الخرافات التي اختلقها الأولون وكانوا مولعين باختلاف الأوهام والخرافات والإصغاء إليها .

قوله تعالى : ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ إنذار وتخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المجرمين المكذبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإن في النظر إلى عاقبة أمرهم على ما تدل عليه مساكنهم الخبرة وديارهم الخالية كفاية للمعتبرين من أولي الأبصار ، وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم . كذا قيل .

ويمكن أن تقرر الآية حجة تدل على المعاد وتقريبها أن انتهاء عاقبة أمر المجرمين إلى عذاب الاستئصال دليل على أن الإجمام والظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه وأن العمل إحساناً كان أو إجراماً محفوظ على عامله سيحاسب عليه وإذا لم تقع عامة هذا الحساب والجزاء - وخاصة على الأعمال الصالحة - في الدنيا فذلك لا محالة في نشأة أخرى وهي الدار الآخرة .

فتكون الآية في معنى قوله تعالى : ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾^(١) ، ويؤيد هذا التقرير قوله : ﴿عاقبة المجرمين﴾ ولو كان المراد تهديد مكذبي الرسل وتخويفهم كان الأنسب أن يقال : عاقبة المكذبين ، كما تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي لا يجزئك إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضيق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدّهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله وليسوا بمعجزيه وسيجزئهم بأعمالهم .

فالآية مسوقة لتطيب نفس النبي ﷺ ، وقوله : ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ الخ ، معطوف على ما قبله عطف التفسير .

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاة أعم من الدنيا والآخرة ، والسياق يؤيد ذلك والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قالوا : إن اللام في ﴿ردف لكم﴾ مزيدة للتأكيد ، كالباء في قوله : ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) ، والمعنى تبعكم ولحق بكم ، وقيل : إن ردف مضمن معنى فعل يعدى باللام .

والمراد ببعض الذي يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل ، وهو ملازم لعذابهم ، وعذابهم في الدنيا بعض العذاب الذي يستعجلونه باستنجاز الوعد ، ولعل مراد الآية به عذاب يوم بدر كما قيل .

قالوا : إن «عسى ولعل» من الله تعالى واجب لأن حقيقة الترجي مبنية على الجهل ولا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ﴾ سيردكم ويأتيكم العذاب محققاً .

وفيه أن معنى الترجي والتمني ونحوهما كما جاز أن يقوم بنفس المتكلم يجوز أن يقوم بالمقام أو بالسامع أو غيرهما وهو في كلامه تعالى قائم بغير المتكلم من المقام وغيره وما في الآية من الجواب لما أرجع إلى النبي ﷺ كان الرجاء المدلول عليه بكلمة عسى قائماً بنفسه الشريفة والمعنى : قل أرجو أن يكون ردف لكم العذاب .

وفي تفسير أبي السعود : وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها ، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار ، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده انتهى وهو وجه وجيه .

ومعنى الآية : قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد : أرجو أن يكون تبعكم بعض الوعد الذي تستعجلونه وهو عذاب الدنيا الذي يقربكم من عذاب الآخرة ويؤديكم إليه ، وفي التعبير بقوله : ﴿ردف لكم﴾ إيماء إلى قربه .

قوله تعالى : ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ معنى الآية في نفسها ظاهر ووقوعها في سياق التهديد والتخويف يفيد أن تأخيرها تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله .

قوله تعالى : ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم وما يستحقونه بالكفر والجحود فإنه يعلم ما تستره وتخفيه صدورهم وما يظهرونه .

ثم أكد ذلك بأن كل غائبة - وهي ما من شأنه أن يغيب ويخفي في أي جهة من جهات العالم كان - مكتوب محفوظ عنده تعالى وهو قوله : ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ .

قوله تعالى : ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ إلى قوله ﴿العزیز العليم﴾ تطيب لنفس النبي ﷺ وتمهيد لما سيذكره من حقبة دعوته وتقوية لإيمان المؤمنين به ، وبهذا الوجه يتصل بقوله قبلاً : ﴿فلا تحزن عليهم﴾ الخ المشعر بحقية دعوته .

فقوله : ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ يشير إلى ما يقصه القرآن من قصص الأنبياء ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من أمرهم ومنه أمر المسيح ﷺ ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من المعارف والأحكام .

وقوله : ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ يشير إلى أنه يهدي المؤمنين بما قصه

على بني إسرائيل إلى الحق وأنه رحمة لهم تطمئن به قلوبهم ويثبت الإيمان بذلك في نفوسهم .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أن القضاء بينهم إلى الله فهو ربه العزيز الذي لا يغلب في أمره العليم لا يجهل ولا يخطئ في حكمه فهو القاضي بينهم بحكمه فلترض نفس النبي ﷺ بربه العزيز العليم قاضياً حكماً ولترجع الأمر إليه كما ينبغي أن تفعل مثل ذلك في حق المشركين ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون .

قوله تعالى : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ تفريع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين واختلاف بني إسرائيل أي إن أمرهم جميعاً إلى الله لا إليك فاتخذة وكيلاً فهو كافيك ولا تخافن شيئاً إنك في أمن من الحق .

قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تعليل للأمر بالتوكل أي إنما أمرناك بالتوكل على الله في أمر إيمانهم وكفرهم لأنهم موتى وليس في وسعك أن تسمع الموتى دعوتك وإنهم صم لا يسمعون وعمي ضالون لا تقدر على إسماع الصم إذا ولّوا مدبرين - ولعله قيد عدم إسماع الصم بقوله : ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الإشارة - ولا على هداية العمي عن ضلالتهم ، وإنما الذي تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الدالة علينا وتهديهم فإنهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقّة مسلمون لنا مصدّقون بما تدلّ عليه .

وقد تبين بهذا البيان أولاً : أن المراد بالإسماع الهداية .

وثانياً : أن المراد بالآيات الحجج الدالة على التوحيد وما يتبعه من المعارف الحقّة .

وثالثاً : أن من تعقل الحجج الحقّة من آيات الآفاق والأنفس بسلامة من العقل ثم استسلم لها بالإيمان والانقياد ليس هو من الموتى ولا ممن ختم الله على سمعه وبصره .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ قال : هم آل محمد عليهم السلام .

أقول : ورواه أيضاً في جمع الجوامع عنهم عليهم السلام مرسلاً مضمراً ، وقد عرفت فيما تقدم من البيان في ذيل الآية أن الذي يعطيه السياق أن المراد بهم بحسب مورد الآية الأنبياء المنعمون بنعمة الاصطفاء وقد قصَّ الله قصص جمع منهم فقوله عليه السلام - لو صحَّت الرواية - هم آل محمد عليهم السلام من قبيل الجري والانطباق .

ونظيرها ما رواه في الدر المنثور عن عدَّة من أصحاب الكتب عن ابن عباس في الآية قال : هم أصحاب محمد فهو - لو صحَّت الرواية - إجراء منه وتطبيق .

ومنه يظهر ما رواه أيضاً عن عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوري في الآية قال : نزلت في أصحاب محمد خاصة ، فلا نزول ولا اختصاص .

وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى : ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ قال : عن الحق .

وفيه في قوله تعالى : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ الآية ، حدثني أبي عن الحسن بن علي بن فضال عن صالح بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : نزلت في القائم من آل محمد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عز وجل فأجابه ويكشف سوء ويجعله خليفة في الأرض .

أقول : والرواية أيضاً من الجري والآية عامة .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأن الله تعالى يقول : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف سوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ فالخلافة من الله عز وجل فإن كان خيراً فهو يذهب به وإن كان شراً فهو يؤخذ به ، عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء فقد تقدم أن المراد بالخلافة في الآية - على ما يشهد به السياق - الخلافة الأرضية المقدرة لكل إنسان وهو السلطة على ما في

الأرض بأنواع التصرف دون الخلافة بمعنى الحكومة على الأمة بإدارة رحي مجتمعهم .

ومع الغض عن ذلك فمتن الرواية لا يخلو عن تدافع فإن كان المراد بكون الخلافة من الله تعالى أن سلطانه على الناس بتقدير من الله وبعبارة أخرى انتسابها التكويني إلى الله سبحانه كما ورد في ملك نمرود من قوله تعالى : ﴿أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾^(١) ، وقوله حكاية عن فرعون : ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِّصْرَ﴾^(٢) ، فمن البين أن الخلافة بهذا المعنى لا تستتبع وجوب الطاعة وحرمة المخالفة وإلا كان نقضاً لأصل الدعوة الدينية وإيجاباً لطاعة أمثال نمرود وفرعون وكم لها من نظير ، وإن كان المراد به الجعل الوضعي الديني وبعبارة أخرى انتسابها التشريعي إلى الله تعالى ثم وجبت طاعته فيما يأمر به وإن كان معصية كان ذلك نقضاً صريحاً للأحكام ، وإن كان الواجب طاعته في غير معصية الله لقوله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » جازت مفارقة الجماعة في الجملة وهو يناقض صدر الرواية .

ونظير الإشكال يجري في قوله ذيلًا : «عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به» فلو كان المراد مما أمر الله به طاعته مقام الخلافة وإن كان في معصية كان نقضاً صريحاً لتشريع الأحكام وإن كان المراد به طاعة الله وإن استلزم معصية مقام الخلافة كان ناقضاً لصدر الرواية .

وقد اتضح اليوم بالأبحاث الاجتماعية أن إمضاء حكومة من لا يحترم القوانين المقدسة الجارية لا يرضى به مجتمع عاقل رشيد فمن الواجب تنزيهه ساحة مشرع الدين عن ذلك ، والقول بأن مصلحة حفظ وحدة الكلمة واتفاق الأمة أهم من حفظ بعض الأحكام بالمفارقة معناه جواز هدم حقيقة الدين لحفظ اسمه .

وفي الدر المشثور أيضاً أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله

(١) البقرة : ٢٥٨ .

(٢) الزخرف : ٥١ .

الفرية . قلت : وما هن ؟ قالت : من زعم محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال : وكنت متكئاً فجلست وقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي عليّ ألم يقل الله : ﴿ولقد رآه في الافق المبين﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ ؟ .

فقلت : أنا أول هذه الأمة سأل هذا رسول الله ﷺ فقال : جبريل . لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيتُه منهبطاً من السماء ساداً أعظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . قالت : ألم تسمع الله عز وجل يقول : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ ؟ أو لم تسمع الله يقول : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ إلى قوله ﴿عليّ حكيم﴾ .

ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله جل ذكره يقول : ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ .

قالت : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ .

أقول : وفي متن الرواية شيء أما آيات الرؤية فإنما تنفي رؤية الحس دون رؤية القلب وهي من الرؤية وراء الإيمان الذي هو الاعتقاد وقد أشبعنا الكلام فيها في الموارد المناسبة له .

وأما قوله تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلغ﴾ الآية فقد أوضحنا في تفسير الآية أنها خاصة غير عامة ولو فرضت عامة فإنما تدل على أن كل ما أنزل إليه مما فيه رسالة وجب عليه تبليغه ومن الجائز أن ينزل إليه ما يختص علمه به ﷺ فيكتمه عن غيره .

وأما قوله : ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ فلا يدل إلا على اختصاص علم الغيب بالذات به تعالى كسائر آيات اختصاص الغيب به ، ولا ينفي علم الغير به بتعليم منه تعالى كما يشير إليه قوله : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ ^(١) ، وقد حكى الله سبحانه نحواً من

هذا الإخبار عن المسيح عليه السلام إذ قال : ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ﴾ (١) ، ومن المعلوم أن القائل أن النبي عليه السلام كان يخبر الناس بما يكون في غد لا ينبغي كون ذلك بتعليم من الله له .

وقد تواترت الأخبار على تفرقها وتنوعها من طرق الفريقين على إخباره عليه السلام بكثير من الحوادث المستقبلية .

* * *

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) .

(بيان)

هي من تمام الفصل السابق من الآيات تشير إلى البعث وبعض ما يلحق به من الأمور الواقعة فيه وبعض أشراطه وتختتم السورة بما يرجع إلى مفتحتها من الإنذار والتبشير .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ مقتضى السياق - بما أن الآية متصلة بما قبلها من الآيات الباحثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبي ﷺ أو خصوص أهل مكة من قريش وقد كانوا أشدَّ الناس عداوة للنبي ﷺ ودعوته - أن ضمائر ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ و ﴿ لَهُمْ ﴾ و ﴿ تَكَلِّمُهُمْ ﴾ للمشركين المحدث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنيون بالدعوة فالمراد بالحقيقة عامة الناس من هذه الأمة من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورود في كلامه تعالى .

والمراد بوقوع القول عليهم تحقق مصداق القول فيهم وتعنيهم لصدقه عليهم كما في الآية التالية : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أي حقَّ عليهم العذاب ، فالجملة في معنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ وقد كثر ورودها في كلامه تعالى ، والفرق بين التعبيرين أن العناية في ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ بتعنيهم مصداقاً للقول وفي ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ باستقرار القول وثبوته فيهم بحيث لا يزول .

وأما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذي يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (١) ، فإن

المراد بهذه الآيات التي سيريهم غير الآيات السماوية والأرضية التي هي بمرآهم ومسمعهم دائماً قطعاً بل بعض آيات خارقة للعادة تخضع لها وتضطر للإيمان بها أنفسهم في حين لا يوقنون بشيء من آيات السماء والأرض التي هي تجاه أعينهم وتحت مشاهدتهم .

وبهذا يظهر أن قوله : ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ تعليل لوقوع القول عليهم والتقدير لأن الناس ، وقوله : ﴿ كانوا ﴾ لإفادة استقرار عدم الإيقان فيهم والمراد بالآيات الآيات المشهودة من السماء والأرض غير الآيات الخارقة ، وقرئ « إن » بكسر الهمزة وهي أرجح من قراءة الفتح فيؤيد ما ذكرناه وتكون الجملة بلفظها تعليلاً من دون تقدير اللام .

وقوله : ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ بيان لآية خارقة من الآيات الموعودة في قوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وفي كونه وصفاً لأمر خارق للعادة دلالة على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء والبعث بعد الموت وإما أمر يقرب منه ، وأما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدب في الأرض من ذوات الحياة إنساناً كان أو حيواناً غيره فإن كان إنساناً كان تكليمه الناس على العادة وإن كان حيواناً أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقاً للعادة .

ولا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية وأن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هي ؟ وما صفتها ؟ وكيف تخرج ؟ وماذا تتكلم به ؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد إلى الإيهام فهو كلام مرموز فيه .

ومحصل المعنى : أنه إذا آل أمر الناس - وسوف يؤول - إلى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم وبطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل والاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المبيّنة لهم الحق بحيث يضطرون إلى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم .

هذا ما يعطيه السياق ويهدي إليه التدبر في الآية من معناها ، وقد أغرب المفسرون حيث أمعنوا في الاختلاف في معاني مفردات الآية وجملها والمحصل منها وفي حقيقة هذه الدابة وصفها ومعنى تكليمها وكيفية خروجها وزمان خروجها

وعدد خروجها والمكان الذي تخرج منه في أقوال كثيرة لا معول فيها إلا على التحكم ، ولذا أضربنا عن نقلها والبحث عنها ، ومن أراد الوقوف عليها فعليه بالمطولات .

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ الفوج - كما ذكره الراغب - الجماعة المارة بسرعة ، والإيزاع إيقاف القوم وحبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم .

وقوله : ﴿ ويوم نحشر ﴾ منصوب على الظرفية لمقدر والتقدير وإذكر يوم نحشر والمراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل أمة ولا اجتماع لجميع الأمم في زمان واحد وهم أحياء ، و ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من كل أمة ﴾ للتبويض ، وفي قوله : ﴿ ممن يكذب ﴾ للتبيين أول للتبويض .

والمراد بالآيات في قوله : ﴿ يكذب بآياتنا ﴾ مطلق الآيات الدالة على المبدأ والمعاد ومنها الأنبياء والأئمة والكتب السماوية دون الساعة وما يقع فيها وعند قيامها ودون الآيات القرآنية فقط لأن الحشر ليس مقصوراً على الأمة الإسلامية بل أفواج من أمم شتى .

ومن العجيب إصرار بعضهم على أن الكلام نص في أن المراد بالآيات ههنا وفي الآية التالية هي الآيات القرآنية قال : لأنها هي المنطوية على دلائل الصدق التي لم يحيطوا بها مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا مثل الساعة وما فيها انتهى .

وفساده ظاهر لأن عدم كون أمثال الساعة وما فيها مرادة لا يستلزم إرادة الآيات القرآنية مع ظهور أن المحشورين أفواج من جميع الأمم وليس القرآن إلا كتاباً لفوج واحد منهم .

وظاهر الآية أن هذا الحشر في غير يوم القيامة لأنه حشر للبعض من كل أمة لا لجميعهم وقد قال الله تعالى في صفة الحشر يوم القيامة : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ (١) .

وقيل : المراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق فهو حشر بعد حشر .

وفيه أنه لو كان المراد الحشر إلى العذاب لزم ذكر هذه الغاية دفعاً للإبهام كما في قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها ﴾ (١) ، مع أنه لم يذكر فيما بعد هذه الآية إلا العتاب والحكم الفصل دون العذاب والآية كما ترى مطلقة لم يشر فيها إلى شيء يلوح إلى هذا الحشر الخاص المذكور ويزيدها إطلاقاً قوله بعدها : ﴿ حتى إذا جاؤا ﴾ فلم يقل : حتى إذا جاؤا العذاب أو النار أو غيرها .

ويؤيد ذلك أيضاً وقوع الآية والآيتين بعدها بعد نبأ دابة الأرض وهي من أشرط الساعة وقبل قوله : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ إلى آخر الآيات الواصفة لوقائع يوم القيامة ، ولا معنى لتقديم ذكر واقعة من وقائع يوم القيامة على ذكر شروعه ووقوع عامة ما يقع فيه فإن الترتيب الوقوعي يقتضي ذكر حشر فوج من كل أمة لو كان من وقائع يوم القيامة بعد ذكر نفخ الصور وإتيانهم إليه داخرين .

وقد تنبه لهذا الإشكال بعض من حمل الآية على الحشر يوم القيامة فقال : لعل تقديم ذكر هذه الواقعة على نفخ الصور ووقوع الواقعة للإيذان بأن كلا مما تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهية حقيقة بالتذكير على حيالها ولوروعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل داهية واحدة .

وأنت خير بأنه وجه مختلف غير مقنع ، ولو كان كما ذكر لكان دفع توهم كون الحشر المذكور في الآية في غير يوم القيامة بوضع الآية بعد آية نفخ الصور مع ذكر ما يرتفع به الإبهام المذكور أولى بالرعاية من دفع هذا التوهم الذي توهمه .

فقد بان أن الآية ظاهرة في كون هذا الحشر المذكور فيها قبل يوم القيامة وإن لم تكن نصاً لا يقبل التأويل .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤا قال أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ﴾ المراد بالمجيء - بإعانة من السياق - هو الحضور في موطن الخطاب

المدلول عليه بقوله : ﴿قال أكذبتكم﴾ الخ والمراد بالآيات - كما تقدم في الآية السابقة - مطلق الآيات الدالة على الحق ، وقوله : ﴿ولم تحيطوا بها علماً﴾ جملة حالية أي كذبتكم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذبتكم بما لا تعلمون أي رميتموها بالكذب وعدم الدلالة من غير علم ، وقوله : ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ أي غير التكذيب .

والمعنى : حتى إذا حضروا في موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم : أكذبتكم بآياتي حال كونكم لم تحيطوا بها علماً أم أي شيء كنتم تعملون غير التكذيب ، وفي ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشيء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذر .

قوله تعالى : ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ الباء في ﴿بما ظلموا﴾ للسببية و ﴿ما﴾ مصدرية أي وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين ، وقوله : ﴿فهم لا ينطقون﴾ تفریع على وقوع القول عليهم .

وبذلك يتأيد أن المراد بالقول الذي يقع عليهم قوله تعالى : ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(١) ، والمعنى : ولكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا إلى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون .

وربما فسّر وقوع القول عليهم بوجوب العذاب عليهم والأنسب على هذا أن يكون المراد بالقول الواقع عليهم قضاؤه تعالى بالعذاب في حق الظالمين في مثل قوله : ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾^(٢) ، والمعنى : ولكونهم ظالمين قضى فيهم بالعذاب فلم يكن عندهم ما ينطقون به ، والوجه السابق أوجه .

وأما تفسير وقوع القول بحلول العذاب ودخول النار فبعيد من السياق لعدم ملاءمته التفریع في قوله : ﴿فهم لا ينطقون﴾ .

قوله تعالى : ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ لما وصف في الآيات السابقة أن كثيراً من الناس في صمم وعمى

(١) الأنعام : ١٤٤ .

(٢) الشورى : ٤٥ .

من استماع كلمة الحق والنظر في آيات الله والاعتبار بهما ، ثم ذكر دابة الأرض وأنه سيخرجها آية خارقة للعادة تكلمهم ، ثم ذكر أنه سيحشر فجاً من كل أمة من المكذبين فيعاتبهم فتتم عليهم الحجة بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها وبخهم في هذه الآية ولاهمهم على تكذيبهم بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذي يسكنون فيه بالطبع وأن هناك نهراً مبصراً يظهر لهم بها آيات السماء والأرض فلم لم يتبصروا ؟ .

وقوله : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في جعل الليل سكناً يسكنون فيه والنهار مبصراً يبصرون فيه آيات السماء والأرض آيات لقوم فيهم خاصة الإذعان والتصديق للحق اللائح لهم .

والمراد بالآيات العلامات والجهات الدالة فيهما على التوحيد وما يتبعه من حقائق المعارف ، ومن جملة ذلك دلالتها على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه ، وهو الليل الذي يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار ، ويتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه وهو النهار المبصر الذي يظهر به الأشياء التي تتضمن منافع الحياة للأبصار .

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبت عنه ظلمة الجهل ولا يقول بغير علم ولا يكذب بما لا يحيط به علماً وأن يقول ويؤمن بما تجلّيه له بينات الآيات التي هي كالنهر المبصرة .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ النفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعاً كالحضور والارتحال وغير ذلك ، والفزع كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ، والدخور الذلة والصغار .

قيل : المراد بهذا النفخ النفخة الثانية للصور التي بها تنفخ الحياة في الأجساد فيبعثون لفصل القضاء ، ويؤيده قوله في ذيل الآية : ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ والمراد به حضورهم عند الله سبحانه ، ويؤيده أيضاً استثناءه ﴿مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من حكم الفزع ثم قوله فيمن جاء بالحسنة : ﴿وَهُمْ مِنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ حيث يدل على أن الفزع المذكور هو الفزع في النفخة الثانية .

وقيل : المراد به النفخة الأولى التي يموت بها الأحياء بدليل قوله : ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾^(١) ، فإن الصعقة من الفزع وقد رتبت على النفخة الأولى وعلى هذا يكون المراد بقوله : ﴿وكل أتوه داخرين﴾ رجوعهم إلى الله سبحانه بالموت .

ولا يبعد أن يكون المراد بالنفخ في الصور يومئذ مطلق النفخ أعم مما يميت أو يحيي فإن النفخ كيفما كان من مختصات الساعة ، ويكون ما ذكر من فزع بعضهم وأمن بعضهم من الفزع وسير الجبال من خواص النفخة الأولى وما ذكر من إتيانهم داخرين من خواص النفخة الثانية ويندفع بذلك ما يورد على كل واحد من الوجهين السابقين .

وقد استثنى سبحانه جمعاً من عباده من حكم الفزع العام الشامل لمن في السماوات والأرض ، وسيجيء كلام في معنى هذا الاستثناء في الكلام على قوله الآتي : ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿وكل أتوه داخرين﴾ رجوع جميع من في السماوات والأرض حتى المستثنين من حكم الفزع وحضورهم عنده تعالى ، وأما قوله : ﴿فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾^(٢) ، فالظاهر أن المراد نفي إحضارهم في الجمع للحساب والسؤال لا نفي بعثهم ورجوعهم إلى الله وحضورهم عنده فآيات القيامة ناصة على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذ منهم شاذ .

ونسبة الدخور والذلة إلى أوليائه تعالى لا تنافي ما لهم من العزة عند الله فإن عزة العبد عند الله ذلته عنده وغناه بالله فقره إليه نعم ذلة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزة الكاذبة ذلة هوان .

قوله تعالى : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ الآية بما أنها واقعة في سياق آيات القيامة محفوفة بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات وهو سير الجبال وقد قال تعالى في هذا المعنى أيضاً : ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾^(٣) ، إلى غير ذلك .

(١) الزمر : ٦٨ .

(٢) الصافات : ١٢٨ .

(٣) النبأ : ٢٠ .

فقوله : ﴿وترى الجبال﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به تمثيل الواقعة ، كما في قوله : ﴿وترى الناس سكارى﴾^(١) ، أي هذا حالها المشهودة في هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهداً ، وقوله : ﴿تحسبها جامدة﴾ أي تظنها الآن ولم تقم القيامة بعد جامدة غير متحركة ، والجملة معترضة أو حالية .

وقوله : ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ حال من الجبال وعاملها ﴿ترى﴾ أي تراها إذا نفخ في الصور حال كونها تسير سير السحاب في السماء .

وقوله : ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ مفعول مطلق لمقدّر أي صنعه صنعاً وفي الجملة تلويح إلى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب للدنيا وهدم للعالم ، لكنه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء إلى غايته وإيصاله إلى وجهته التي هو مولئها من سعادة أو شقاوة لأن ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه ولا يسلط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير الآخرة .

وقوله : ﴿إنه خير بما تفعلون﴾ قيل : إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب آثارها من الثواب والعقاب عليها بعد البعث والحشر وتسيير الجبال .

وأنت ترى ما فيه من التكلف وأن السياق بعد ذلك كله لا يقبله .

وقيل : إن قوله : ﴿إنه خير بما تفعلون﴾ استئناف في حكم الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إن الله خير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل بقوله : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ إلى آخر الآيتين .

وهنا وجه آخر مستفاد من الإمعان في سياق الآيات السابقة فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه ﷺ أن يتوكل عليه ويرجع أمر المشركين وبني إسرائيل إليه فإنه إنما يستطيع هداية المؤمنين بآياته المستسلمين للحق وأما المشركون في جحودهم وبنو إسرائيل في اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون وصم عمي لا يسمعون ولا يهتدون

إلى الحق بالنظر في آيات السماء والأرض والاعتبار بها باختيار منهم .

ثم ذكر ما سيواجههم به - وحالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات - وأنه سيخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم وهي آية خارقة تضطرهم إلى قبول الحق وأنه يحشر من كل أمة فوجاً من المكذبين فيتم عليهم الحجة ، وبالأخرة هو خير بأفعالهم سيجزي من جاء بحسنة أو سيئة بعمله يوم ينفخ في الصور ففزعوا وأتوه داخرين .

وبالتأمل في هذا السياق يظهر أن الأنسب كون ﴿يوم ينفخ﴾ ظرفاً لقوله : ﴿إنه خير بما يفعلون﴾ وقراءة ﴿يفعلون﴾ بياء الغيبة أرجح من القراءة المتداولة على الخطاب .

والمعنى : وإنه تعالى خير بما يفعله أهل السماوات والأرض يوم ينفخ في الصور ويأتونه داخرين يجزي من جاء بالحسنة بخير منها ومن جاء بالسيئة بكب وجوههم في النار كل مجزي بعمله ، وعلى هذا تكون الآية في معنى قوله تعالى : ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾^(١) ، وقوله : ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾^(٢) ، ويكون قوله : ﴿من جاء بالحسنة﴾ الخ ، تفصيلاً لقوله : ﴿إنه خير بما يفعلون﴾ من حيث لازم الخبرة وهو الجزاء بما فعل وعمل كما أشار إليه ذيلاً بقوله : ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : ﴿هل تجزون﴾ الخ ، لتشديد التقرير والتأنيب .

وفي الآية أعني قوله : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ الخ ، قولان آخران :

أحدهما : حملها على الحركة الجوهرية وأن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه .

وهذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما في قوله : ﴿تحسبها جامدة﴾ من التلويع

(١) العاديات : ١١ .

(٢) المؤمن : ١٦ .

إلى أنها اليوم متحركة ولما تقم القيامة ، وأما جعل يوم القيامة ظرفاً لحسبان الجمود وللمرور كالسحاب جميعاً فمما لا يلتفت إليه .

وثانيهما : حملها على حركة الأرض الانتقالية وهو بالنظر إلى الآية في نفسها معنى جيد إلا أنه :

أولاً : يوجب انقطاع الآية عما قبلها وما بعدها من آيات القيامة .

وثانياً : ينقطع بذلك اتصال قوله : ﴿إنه خير بما يفعلون﴾ بما قبله .

قوله تعالى : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ هذه الآية وما بعدها - كما تقدمت الإشارة إليه - تفصيل لقوله : ﴿إنه خير بما يفعلون﴾ من حيث أثره الذي هو الجزاء ، والمراد بقوله : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنة وذلك لأن العمل أياً ما كان مقدمة للجزاء مقصود لأجله والغرض والغاية على أي حال أفضل من المقدمة .

وقوله : ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثاني دون الأول فيكون في معنى قوله : ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾^(١) .

قوله تعالى : ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ يقال : كَبَّه على وجهه فانكَبَّ أي ألقاه على وجهه فوقه عليه فنسبة الكب إلى وجوههم من المجاز العقلي والأصل فكَبُّوا على وجوههم .

وقوله : ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ الاستفهام للانكار ، والمعنى : ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم .

والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة والسيئة من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقت السيئة وأما من حمل حسنة وسيئة فيعلم بذلك حكمه إجمالاً وأما التفصيل ففي غير هذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾
الآيات الثلاث - من هنا إلى آخر السورة - ختام السورة يبين فيها أن هذه الدعوة الحققة
تبشير وإنذار فيه إتمام للحجة من غير أن يرجع إليه ﷺ من أمرهم شيء وإنما الأمر
إلى الله وسيرهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم .

وفي قوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ الخ ، تكلم عن لسان النبي ﷺ فهو في معنى :
قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ، والمشار إليها بهذه الإشارة مكة المشرفة ،
وفي الكلام تشريفها من وجهين : إضافة الرب إليها ، وتوصيفها بالحرمة حيث
قال : رب هذه البلدة الذي حرّمها . وفيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمة
حرمة بلدتهم ولم يشكروا الله بعبادته بل عدلوا إلى عبادة الأصنام .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ إشارة إلى سعة ملكه تعالى دفعاً لما يمكن أن يتوهم
أنه إنما يملك مكة التي هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها
على عقيدتهم جزءاً من أجزاء العالم كالسما والأرض وبلدة كذا وقوم كذا وأسرة
كذا ، فيكون تعالى معبوداً كأحد الآلهة واقعاً في صفهم وفي عرضهم .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من الذين أسلموا له فيما أراد
ولا يريد إلا ما يهدي إليه الخلقة ويهتف به الفطرة وهو الدين الحنيف الفطري الذي
هو ملة إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ
إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ أي أمرت أن أقرأ القرآن
والمراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله : ﴿ فَمَنْ اهْتَدَى ﴾ الخ ، عليه .

وقوله : ﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ أي فمن اهتدى بهذا القرآن فالذي
ينتفع به هو نفسه ولا يعود نفعه إلي .

وقوله : ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي ومن لم يهتد به
بالإعراض عن ذكر ربه وهو الضلال فعليه ضلاله ووبال كفره لا عليّ لأنني لست إلا
منذراً مأموراً بذلك ولست عليه وكيلاً والله هو الوكيل عليه .

فالعَدُول عن مثل قولنا : ومن ضل فإنما أنا من المنذرين وهو الذي كان
يقتضيه الظاهر إلى قوله : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ لتذكيره ﷺ بما تقدم من

العهد إليه أنه ليس إلا منذراً وليس إليه من أمرهم شيء فعليه أن يتوكل على ربه ويرجع أمرهم إليه كما قال : ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى﴾ الخ ، فكأنه قيل : ومن ضل فقل له قد سمعت أن ربي لم يجعل عليّ إلا الإنذار فلست بمسؤول عن ضلال من ضل .

قوله تعالى : ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ معطوف على قوله : ﴿فقل إنما أنا من المنذرين﴾ وفيه انعطاف إلى ما ذكره بعد أمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه في أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبة سوء ويقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ويريه من آياته ما يضطرون إلى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم .

ومحصل المعنى : وقل الشاء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعى الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأما قلوبهم وأصم آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذبوا بآياته .

وقوله : ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾ وما بعده ، وظهور قوله : ﴿آياته﴾ في العموم دليل على شموله لجميع الآيات التي تضطرهم إلى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعة وبعده .

وقوله : ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ الخطاب للنبي ﷺ وهو بمنزلة التعليل لما تقدم أي إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شيء مما تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوة والهداية والإضلال وإراءة الآيات ثم جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة .

وقرىء ﴿عما يعملون﴾ بياء الغيبة ولعلها أرجح ومفادها تهديد المكذبين وفي قوله : ﴿ربك﴾ بإضافة الرب إلى الكاف تطيب لنفس النبي ﷺ وتقوية لجانبه .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال : انتهى رسول الله ﷺ

إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملًا ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال : قم يا دابة الأرض فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله أيسمي بعضنا بعضاً بهذا الاسم ؟ فقال : لا والله ما هو إلا له خاصة وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

ثم قال : يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك .

فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام : إن العامة يقولون : إن هذه الآية إنما ﴿ تكلمهم ﴾ فقال أبو عبد الله عليه السلام : كلمهم الله في نار جهنم إنما هو تكلمهم من الكلام .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة من طرق الشيعة .

وفي المجمع وروى محمد بن كعب القرظي قال : سئل علي عن الدابة فقال : أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية .

أقول : وهناك روايات كثيرة تصف خلقتها تتضمن عجائب وهي مع ذلك متعارضة متدافعة من أرادها فليراجع جوامع الحديث كالدر المنثور أو مطولات التفاسير كروح المعاني .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما يقول الناس في هذه الآية ﴿ يوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ ؟ قلت : يقولون إنه في القيامة . قال : ليس كما يقولون إنها في الرجعة أيحشر الله في القيامة من كل أمة فوجاً ويدع الباقيين ؟ إنما آية القيامة ﴿ وحشرناهم فلم يغادر منهم أحداً ﴾ .

أقول : وأخبار الرجعة من طرق الشيعة كثيرة جداً .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ : واختلف في معنى الصور - إلى أن قال - وقيل : هو قرن ينفخ فيه شبه البوق وقد ورد ذلك في الحديث وفيه في قوله تعالى : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قيل : يعني الشهداء فإنهم لا يفرعون في ذلك اليوم وروي ذلك في خبر مرفوع .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ قال :
فعل الله الذي أحكم كل شيء .

وفيه في قوله تعالى : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾ قال : الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والسيئة والله عداوته .

أقول : وهو من الجري وليس بتفسير وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون ربما أمكن حملها على ما سيأتي .

وفي الخصال عن يونس بن ظبيان قال : قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام :
إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه : فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع ، وآخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة ، ولكني أعبد حبا له فتلك عبادة الكرام وهو الأمن لقوله تعالى : ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ ، ولقوله : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ فمن أحب الله أحبه الله ومن أحبه الله كان من الأمنين .

أقول : لازم ما فيه من الاستدلال بتفسير الحسنة في الآية بالولاية التي هي عبادته تعالى من طريق المحبة الموجبة لفناء إرادة العبد في إرادته وتوليه تعالى بنفسه أمر عبده وتصرفه فيه وهذا أحد معني ولاية علي عليه السلام فهو عليه السلام صاحب الولاية وأول فاتح لهذا الباب من الامة وبه يمكن أن يفسر أكثر الروايات الواردة في أن المراد بالحسنة في الآية ولاية علي عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ يعني بها شهادة أن لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة يعني بها الشرك يقال : هذه تنجي وهذه تردى .

أقول : وهذا المعنى مروى عنه صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختلفة من طرق شتى وينبغي تقييد تفسير الحسنة بلا إله إلا الله بسائر الأحكام الشرعية التي هي من لوازم التوحيد وإلا لغى تشريعها وهو ظاهر .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي

حرمها ﴿ قال : مكة .

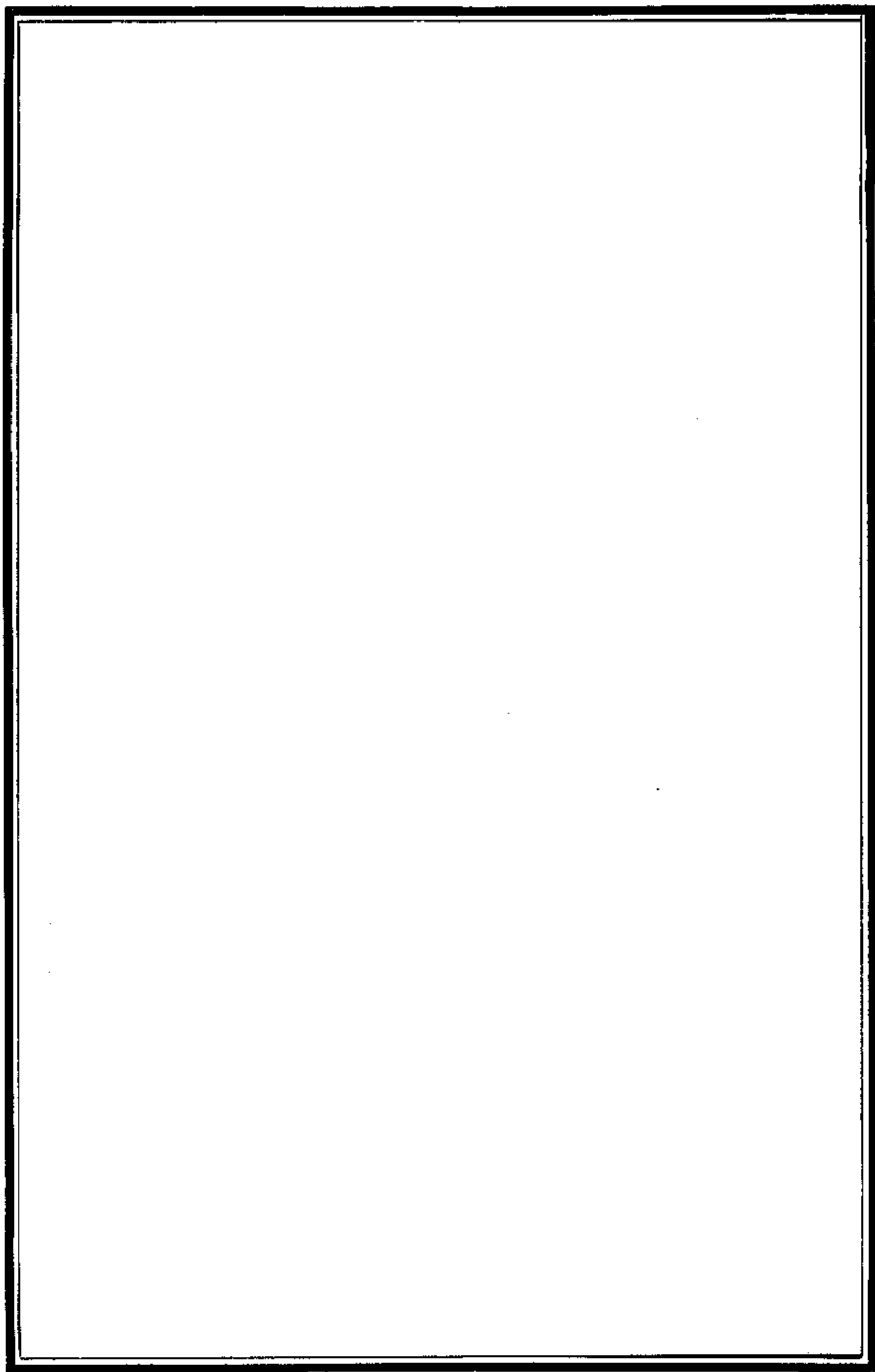
وفيه عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال : ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة لا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلالتها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد .

فقال العباس : يا رسول الله إلا الأذخر فإنه للقبر والبيوت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الأذخر .

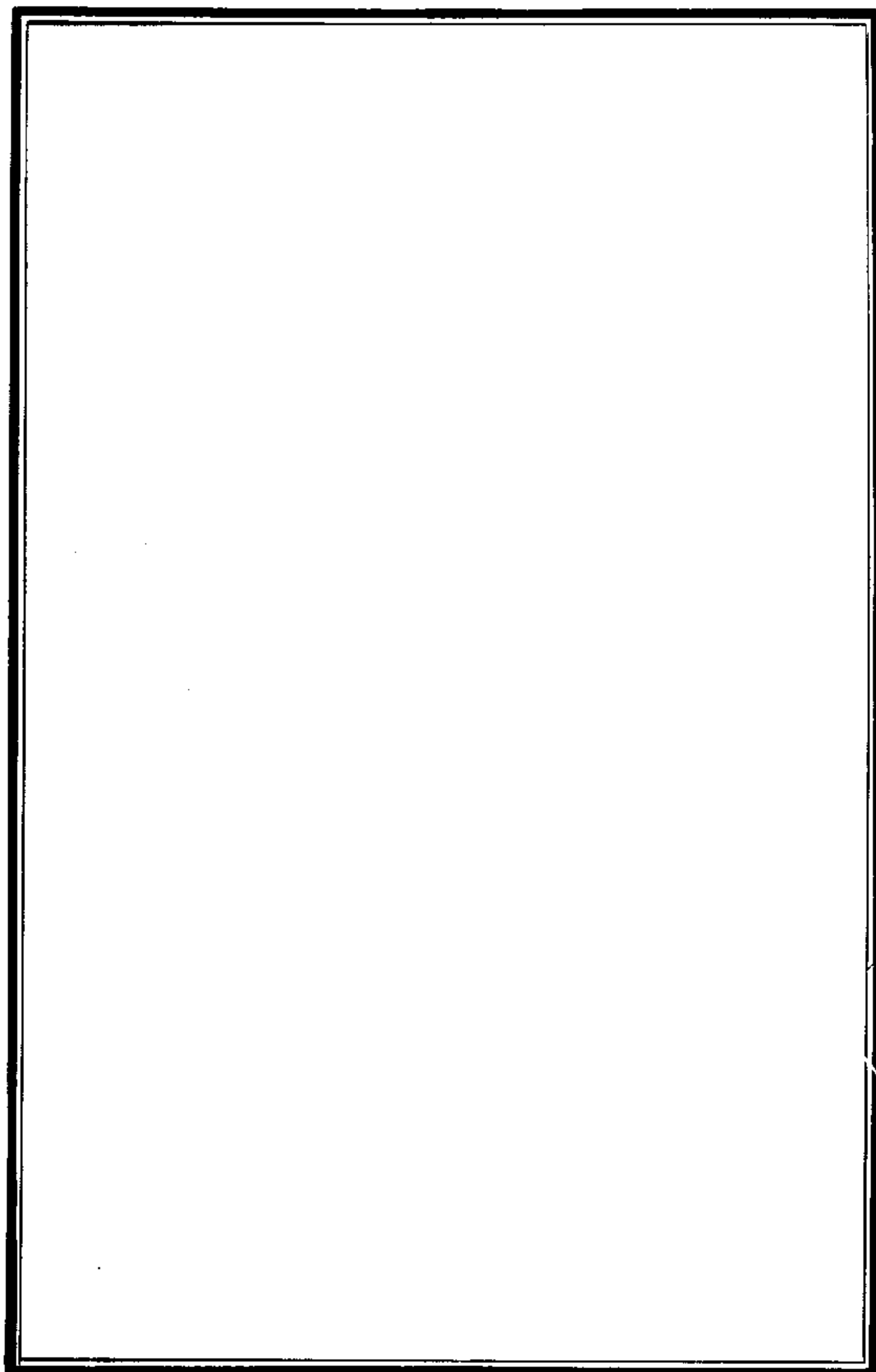
أقول : وهو مروي من طرق أهل السنة أيضاً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما كان في القرآن ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ بالتاء ، وما كان ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ بالياء .

تم والحمد لله



فهرس الكتاب
وبعض المواضع المبحوث عنها
في هذا الجزء



السورة	موضوع البحث	نوع البحث	الصفحة
سورة المؤمنون	كلام في معنى تأثير الإيمان بحث حقوقي اجتماعي	اجتماعي حقوقي اجتماعي	٥
١ - ٢			٧
١٠ - ١١			١٧
سورة النور	في معنى عليته تعالى للأشياء	فلسفي	٧٨
٤٥ - ٤٦			١٣٨
سورة الفرقان			١٧٢
سورة الشعراء	في ارتباط الأشياء بعلمه تعالى في معنى نفي الظلم عنه تعالى	فلسفي عقلي	٢٤٨
٥ - ٩			٢٥١
٢٠٤ - ٢٠٩			٣٢٥
سورة النمل	كلام في قصة سليمان ١ - ما ورد من قصصه في القرآن ٢ - الشناء عليه في القرآن ٣ - ذكره (ع) في العهد العتيق ٤ - الروايات الواردة في قصصه	تاريخي	٣٤٠
٤١ - ٤٤			٣٦٨
٤١ - ٤٤			٣٦٨
٤١ - ٤٤			٣٦٩
٤١ - ٤٤			٣٦٩
٤١ - ٤٤			٣٦٩
٤١ - ٤٤			٣٧٠